الجذور التاريخية للصراع العربى الإسرائيلى

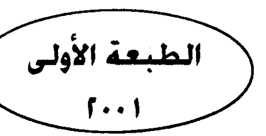
دكتور

محمد الجزار

الطبعة الأولى

٢٠٠١م

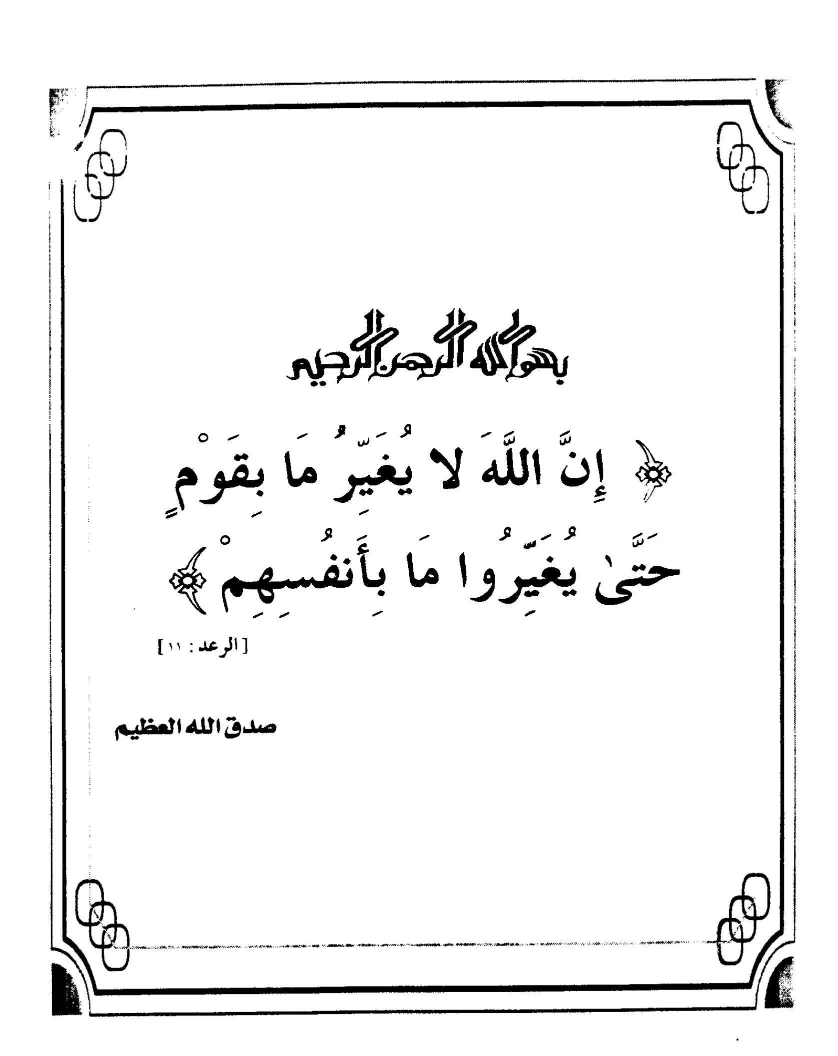
مركز الكتاب للنشر





مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون: ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة ت: ٢٧٢٣٣٩٨


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

[الرعد : ١١]

صدق الله العظيم

المحتويات

مقدمة

لم يكن الصراع العربى / الإسرائيلى وليد القرن العشرين، انه تاريخ طويل له جذور تمتد إلى نحو أربعة آلاف سنة. بدأ مع المصريين بعد أن ميز أب ابن من أبنائه عن باقى إخوته، فاشتعلت نار الغيرة والحقد، فرموه في البئر وهو صبى صغير، ليحمله بعض الرحالة إلى مصر، ويكون له شأناً كبيراً، فيطلب من عشيرته الهجرة من بلاد الشام والإقامة فى مصر. تستوطن قبيلة يعقوب أو بنى إسرائيل أرض مصر ويتناسلوا ويتكاثروا، أربعمائة سنة مكثوا فى مصر حتى يتم الخروج على يد النبى موسى، متجهين إلى أرض الميعاد، ليبدأ صراع آخر مع أهل بلاد الشام (فلسطين / لبنان/ سوريا / الأردن).

تمر الأيام، وتنتهى حضارات قديمة، وتظهر حضارات جديدة، ويظل حلم أرض الميعاد فى عقيدة كل يهودى، فيخطط يهود العالم فى القرون الحديثة لإنشاء دولة إسرائيل، ويتجدد صراع كان نائماً فى سبات عميق – بالنسبة لنا نحن العرب – وتدخل دول المواجهة العربية مع إسرائيل فى أربع حروب، ويقتل آلاف من البشر، ويتشرد الملايين، ثم تجرى مفاوضات ومباحثات طويلة، من خلال ميزان قوى غير متعادل، تدعم فيه الحضارة الغربية الحديثة، والرائدة اقتصادياً، وتكنولوجيا، وعسكريا، إحدى الأطراف، بينما الطرف الآخر يتهم أفراده بعضهم البعض بالخيانة والعمالة، ويهددون أنفسهم بالقتل والغزو، وينفذون.

أسباب الصراع كثيرة، بعضها تاريخى يرجع جذوره إلى آلاف السنين، وبعضها استراتيجى لموقع بؤرة الصراع بالقرب من منابع ثروات حيوية، وطاقة لازمة للإنتاج والتدفئة، ومياه لازمة للزراعة. قد يكون بعض أسباب الصراع نابع من الغريزة العدوانية للبشر ومن مبدأ إثبات الذات. كلها أسباب تتجمع لتخلق صراع مقدر على البشر. صراع بدأ مع قابيل وهابيل، ولن ينتهى إلا بنهاية الجنس البشرى، أو عن طريق الهندسة الوراثية بالقضاء على الجينات العدوانية للإنسان.

يحتوى الجزء الأول من الكتاب الجذور التاريخية لأطراف الصراع، مع التركيز النسبى لتاريخ بنى إسرائيل، لأنه قد يكون تاريخهم خفى عن معظم

بنى العرب، فقد تعودنا نحن العرب أن نغفل ذكر اسم العدو، ومن يمت إليه بصلة، من عقيدة وتاريخ وثقافة، أو حتى حالته الاجتماعية والاقتصادية. يحتوى هذا الجزء أيضا على موجز لحروب القرن العشرين، وفى النهاية التحليل الاستنتاجى لأسباب الصراع، والخطوط العريضة لرؤية مستقبلية من منظور مصرى / عربى من أجل أن يكون لنا مكان فى حضارات المستقبل، راجيا من الله أن تستكمل هذه الرؤية من آخرين فى كتب أخرى، ثم يبدأ التنفيذ ليتحقق الحلم العربى.

جاءت قصص الجذور القديمة لبنى إسرائيل من توراتهم، لكى نتفهم نحن العرب عقلية الإنسان اليهودى، وأساطيره، ومعتقداته التى عاشت فى داخله آلاف السنين، والتى كونت كيان اليهودى القديم، حتى تم التحول التاريخى فى مسيرة اليهود بمجيء عصر التحرر الفكرى والعلمى فى أوروبا فى القرن الثامن عشر، فتشكل كيان جديد لليهود نابع من عقيدة تاريخية وفكر علمى حديث استطاع اليهود بالتفوق المالى والعلمى أن ينشأوا دولة إسرائيل، بينما ينظر بعض مثقفى العرب فى حسرة إلى الحالة التى وصلت إليها بلادهم.

إذا كان الجزء الأول من الكتاب يتضمن ماضى قد ذهب، فهذا فقط للتذكرة والاتعاظ، ولكن يجب علينا نحن العرب أن ننظر إلى المستقبل بعقلانية، وبرؤية واضحة، نائية عن المصالح الفردية. القرون القادمة ستحمل الإجابة على سؤال بعيد عن تفكيرنا الآن، وهو هل نحن العرب سوف يكون لنا مكان فى المستقبل أو لن نكون. لقد انمحت حضارات قديمة، فهل تنتهى الحضارة العربية بعد قرن أو قرنين من الزمان. لا يشكل المستقبل إلا الحاضر، والحاضر هو الذى نعيش فيه. من الممكن أن نجعل المستقبل زاهر وباهر لأحفادنا، يعيشون فيه فى حرية وديمقراطية، ورخاء اقتصادى، ومساواة، وعدالة اجتماعية، ومن الممكن أيضا أن نجعلهم يعيشون فى تعاسة وشقاء، وفقر وطغيان.

الفصل الأول

جذور مصر التاريخية

جذور مصر التاريخية

مقدمة

مصر، أرض الكنانة، وهبة النيل، ورائدة الحضارات الأولى. كانت مصر تدعو فى اللغة المصرية القديمة وفى اللغة القبطية (خم) أو (أرض خم) ومعناها الأرض السوداء، نسبة إلى لون تربتها. وكان الشعب العبرانى يدعوها (مصرايم)، وقد يكون اسم مصر قد جاء من هذه التسمية. أما اليونانيون فكانوا يسمونها (ايجبتوس) ومنها جاء اسم (إيجيت بالإنجليزية)، كما سمى أهلها بالقبط التى اشتقت من الكلمة اليونانية ايجبتوس. قد تكون الكلمة اليونانية ايجبتوس قد جاءت من اسم الإله (جب بتاح) وهو من أوائل الآلهة التى عبدها المصرى القديم منذ بداية الحضارات. جاء اسم النيل من كلمة (آل - نيل) الهيروغليفية، أى النهر الأزرق والتى كانت تطلق على نهر النوبة والصعيد.

يمكن تقسيم تاريخ مصر بداية من بزوغ حضارته الأولى وحتى تاريخه إلى ثلاثة أقسام :

أولاً : مصر الفرعونية (٣٢٠٠ق. م - ٣٣٢ ق. م)

مر على حكم مصر ثلاث من الأسر الفرعونية، بداية من حكم الملك نعرمر (مينا) من الأسرة الأولى، والذى وحد قطرى مصر فى دولة واحدة. تنتهى مصر الفرعونية بنهاية عصر تختانبو الثانى، آخر ملوك الأسرة الثالثة. كان إجمالى حكم ملوك الفراعنة حوالى ثلاثة آلاف عام.

ثانيا : مصر اليونانية / الرومانية وتنقسم إلى :

١- الدولة اليونانية - دولة البطالمة - بداية من غزو الإسكندر المقدونى لمصر من عام ٣٣٢ ق. م إلى ٣٠ ق. م، ومدة حكمها ٣٠٢ عاما.

٢- الدولة الرومانية (٣٠ق. م - ٦٤٠ميلاديا) ومدة حكمها ٦٧٠ عاما (القرنين والنصف الأواخر تحت حكم الإمبراطورية البيزنطية).

ثالثا : مصر العربية / الإسلامية :

بداية من الفتح الإسلامى لمصر فى عام ٦٤٠ م وحتى الحاضر، وتنقسم إلى :

– دولة الخلفاء الراشدين	٦٤٠-٦٦١ م
– الدولة الأموية	٦٦١-٧٥٠ م
– الدولة العباسية الأولى	٧٥٠-٨٧٠ م
– الدولة الطولونية	٨٧٠-٩٠٥ م
– الدولة العباسية الثانية	٩٠٥-٩٣٤ م
– الدولة الإخشيدية	٩٣٤-٩٦٩ م
– الدولة الفاطمية	٩٦٩-١١٧١ م
– الدولة الأيوبية	١١٧١-١٢٥٠م
– دولة المماليك الأولى	١٢٥٠-١٣٨٢م
– دولة المماليك الثانية	١٣٨٢-١٥١٧م
– الدولة العثمانية	١٥١٧-١٨٠١م
– أسرة محمد على	١٨٠١-١٩٥٣م
– مصر الجمهورية	١٩٥٣- تاريخه

مصر الفرعونية

جاء فى كتاب " قصة الحضارة " للمؤرخ ول ديورانت، أن العالم الأثرى دى مورجان، كشف فى عام ١٨٩٥م عن سلسلة متدرجة تكاد تكون متصلة الحلقات من حضارات تنتمى إلى العصر الحجرى القديم. مخلفات رؤوس معاول يدوية، ورؤوس سهام، ومطارق تعود تاريخها إلى عصر ما بين عشرة آلاف إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد. تطورت صناعة الأدوات الحجرية فى مصر القديمة تدريجيا، فازدادت تهذيبا، ووصلت إلى درجة كبيرة من الصقل ودقة الصنع. قبل نهاية هذا العصر الحجرى القديم تظهر صناعة المعادن فى صورة مزهريات ومثاقب، ودبابيس من النحاس، وحلى من الفضة والذهب.

عرف المصرى القديم الزراعة وأعمال الرى منذ أكثر من ستة آلاف عام، فقد عثر فى صعيد مصر على موميات يرجع تاريخها إلى نحو أربعين قرنا قبل الميلاد، تحتوى أمعائها على قشور حبوب الشعير الغير مهضوم، مما يدل على ممارسة أهل صعيد مصر زراعة الحبوب. لقد بدأ المصرى القديم الزراعة، والتحكم فى مياه فروع نهر النيل منذ أكثر من ستين قرنا من الزمان، فجففوا المستنقعات وزرعوها، وقاموا بتربية الماشية. بدأ المصرى القديم فى استخدام الأدوات المعدنية، وصنع القوارب ونسج الكتان لصنع الملابس، وطحن الحبوب وتخزين الغلال، والتزين بالحلى، ومعرفة العطور. كانت حضارات مصر الأولى قبل عصر الأسر الفرعونية، حول بحيرة قارون، وعلى حدود الدلتا الغربية (حضارة مرمده).

منذ حوالى ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد، أى قبل قيام حكم الأسر الأولى، انشأ المصريون المقيمون على ضفاف نهر النيل نظم حكم، أخذت فى التطور حتى تكونت مملكتان، واحدة فى جنوب مصر من القاهرة حتى الشلال الأول فى أسوان وربما أبعد من ذلك إلى داخل بلاد النوبة، وكانت عاصمة الجنوب أومبوس بالقرب من مدينة نقاده ، والأخرى فى الشمال فى منطقة دلتا النيل وكانت عاصمتها مدينة بحدت بين دمنهور والإسكندرية. قد يكون هذا التقسيم

صورة من نزاع كان قائماً بين أهل الجنوب الوافدين من وسط شرق أفريقيا، وبلاد النوبة، وبين أهل الشمال المهاجرين من آسيا. ظل هذا الانقسام قائماً حتى قام مينا بتوحيد قطرى مصر، وأعلن فى كل أنحاء مصر قانونا واحدا نابعا من عبادة الإله تحوت، وأقام أولى الأسر المالكة فى تاريخ مصر المعروف، وأسس عاصمة جديدة فى منف. فى عهد مينا، عاشت مصر سنوات ازدهار ورفاهية، وحضارة فرعونية بدأت نحو ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد، وامتدت حتى بعد دخول الإسكندر المقدونى فى مصر، وخضوع مصر لحكم البطالمة ثم حكم الرومان. فى القرن الأول الميلادى تلاشت تدريجيا ديانة مصر الفرعونية، وانقضى عهد مناسكها بعد ظهور المسيحية وانتشارها فى البلاد. كان ملك مصر فى العصور الفرعونية الأولى يعيش فى ربوة عالية يشرف منها على رعاياه ويدير ملكه، لذلك عرف المصريون القدماء قصر الملك باسم " برعو" أى البيت العالى- من المرجح أن لفظ فرعون ومعناه صاحب البيت العالى قد اشتق من ذلك الاسم، وسميت ملوك مصر بعد ذلك باسم الفراعنة.

عاش المصريون فى نعيم عزلتهم، فلم تتوفر لأى حضارة قديمة غير الحضارة الفرعونية الظروف الطبيعية للنمو والازدهار بمنأى من المؤثرات الخارجية. كانت مصر بفضل موقعها الجغرافى المميز، أقل الدول تعرضا للخطر الخارجى. لقد رسمت الطبيعة حدود مصر، فالشلالات جنوب أسوان تحدها فى الجنوب، تقف فى وجه أى غازى تروق نفسه غزو البلاد من جهة الجنوب، والصحراء الشرقية والغربية الواسعة الأطراف، تؤلف سدا منيعا نحو أى طامع فى خيرات مصر، كما كان البحر المتوسط شمالا، والبحر الأحمر شرقا يمثلان حدودا طبيعية، ومانع ضد أى غاصب يطمع فى ثروات مصر القديمة، لقد كانت مصر القديمة مثل الواحة الكبيرة وسط الصحراء المترامية الأطراف. لا يعنى وجود حدود مصر الطبيعية والمانعة لأى طامع فيها من تهديد مصر من بعض الغزاة الأجانب مثل الهكسوس والليبيين، والإثيوبيين، والآشوريين، والفرس، والمقدونيين، والرومان، ولكن تمتعت مصر باستقرار واستقلال نسبى، فكانت مصر أقل دولة فى العالم القديم تتعرض للقلاقل والغزوات. بل كان لوضع مصر الجغرافى ميزة أخرى وهى انصهار أى

غازى أو مهاجر فى الجنس مصرى، عدا اليهود الذين عاشوا على أرض مصر نحو أربعمائة عام، وبعض الهكسوس الذين طاردوهم، وطردهم المصريين من أرض مصر، ليعودوا إلى المناطق التى جاءوا منها فى آسيا. لم تمنع عزلة مصر الطبيعية خروج المصرى من واحته ونهره إلى العالم الخارجى، فقد وصلت جيوش ملوك مصر العظام مثل رمسيس الثانى، وتحتمس الثالث، وأمنحتب الثانى إلى بلاد الشام، وإلى شواطئ نهر الفرات حيث حضارات بين النهرين من بابل وآشور. ووصلت الحملات المصرية إلى شواطئ أفريقيا الشرقية. لقد كانت يد مصر القديمة طويلة وقوية، بقادتها الكبار وشعبها العظيم.

نحو ١٥٧٠ق. م قام أحمس الأول، أول ملوك الدولة الحديثة أو الإمبراطورية المصرية الحديثة، بطرد الهكسوس وتعقبهم فى بلاد الشام، وأسس الفراعنة الأسرة الثامنة عشرة، والتى بلغت مصر فى عهدها ذروة المجد، والقوة، والقمة. لم يعزز تحتمس الأول جيش مصر، ويبنى دولة جديدة فحسب، بل غزا أيضا بلاد الشام وحارب الكنعانيين نحو خمسة عشر أو ستة عشر قرنا قبل الميلاد. كان هدف مصر السيطرة على غرب آسيا كى تمنع الاعتداء على أراضيها فيما بعد، فأخضعت الجيوش المصرية البلاد الساحلية الفلسطينية، والبلاد السورية إلى حكمها، وأقامت حاميات مصرية فى تلك البلاد، وعادت الجيوش إلى أرض مصر محملة بالغنائم والأسلاب، يكللها المجد والفخر بقوة مصر الفرعونية. حكمت حتشبسوت مع أبيها تحتمس الأول فى أواخر أيام حكمه، ثم جاء زوجها وأخوها تحتمس الثانى ليحكم مصر. أرسلت حتشبسوت بعثات بحرية إلى بلاد بونت على شواطئ أفريقيا الشرقية، وافتتحت سوقا جديدة للتجارة. فى عهد حتشبسوت عاشت مصر فى أمان ونظام، ورواج اقتصادى.

انتهزت بلاد الشام فرصة موت حتشبسوت فثارت على حكم مصر، وظنت هذه البلاد أن الشاب تحتمس الثالث الذى يحكم مصر غير قادر على الاحتفاظ بمصر القوية. وخيب تحتمس الثالث ظن أعدائه فسار على رأس جيشه فى السنة الأولى من حكمه عن طريق القنطرة، فغزاهم، والتحم بالقوات الثائرة عند هار مجدو (جبل مجدو)، وهى بلد صغيرة ذات موقع حربى منيع بين

سلسلتى جبال لبنان على الطريق الممتد بين مصر ونهر الفرات. هزم تحتمس الثالث السوريين وحلفائهم، ثم سار بجيشه نحو بلاد بين النهرين (دجلة والفرات)، حتى عاد إلى مصر ظافرا منتصرا بعد ستة أشهر من بداية غزوته. كانت هذه الغزوات أولى حملات حربية بلغت خمسة عشر حمله، اخضع فيها تحتمس الثالث بلاد البحر المتوسط الشرقى لحكم مصر، وأقام فى جميع البلاد التى فتحها حاميات حربية قوية، وأنشأ فيها حكما منظما وإدارة حاكمة قادرة. انشأ تحتمس الثالث أيضا أسطولا بحريا مصريا قويا، قادرا على حماية الشواطئ المصرية، وإخضاع شواطئ شرق البحر المتوسط لسلطانه. حكم مصر بعد تحتمس الثالث، امنحوتب الثانى، الذى قام أيضا بغزوات جديدة إلى بلاد الشام التى ثار أهلها مرة ثانية ضد الحكم المصرى.

جاء بعد امنحوتب الثانى، ملك فرعونى لم يكن له أى إنجازات، ثم حكم مصر من بعده امنحوتب الثالث عام ١٤١٢ قبل الميلاد حكما طويلا، عاشت فيها مصر فى رخاء وقوة. أن ازدهار الإمبراطوريات الفرعونية وصل إلى اعلى قمته خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد بين فترة اعتلاء تحتمس الثالث للعرش ووفاة أمنحتب الثالث، فلم يحدث قبل هذه الفترة أو بعدها أن امتدت حدود إلى هذا الحد فى الشمال إلى حدود تركيا، أو فى الجنوب إلى أقصى جنوب بلاد النوبة. فخلال سبعين سنة بعد طرد الهكسوس تطورت مصر ووصلت إلى أوج عظمتها وقوتها، والتى لم تضاهيها أى قوة أخرى فى ذلك الوقت.

خلف امنحوتب الثالث عام ١٣٨٠ ق. م امنحوتب الرابع المعروف باسم إخناتون الشاعر الحكيم، رائد الوحدانية. عاش إخناتون فى عالم حالم، وعقيدة جديدة هى عقيدة التوحيد. لم يكن إله إخناتون إله حروب ودمار، بل إله حب وسلام ورحمة. عرف أهل الشام أن فرعون مصر، شاعر حالم، له مبادئ بعيدة عن القوة والعنف فغزا الحيثيون وغيرهم من القبائل، الحاميات والقلاع المصرية فى بلاد الشام، وأخذ الحكام المعينون من قبل مصر يلحون فى طلب النجدة العاجلة، فلم يلبى إخناتون طلباتهم، فامتنعت بلاد الشام الواقعة تحت الحكم المصرى من دفع الخراج

إلى مصر، وتحررت من سلطان مصر عليها، فأقفرت الخزانة المصرية، وانكمش دور مصير خارج حدودها، وعمت الفوضى، وساد الفقر البلاد.

ورث الحكم بعد إخناتون زوج ابنته توت عنخ آمون والذى توفى وهو صبى صغير. ثم جلس على عرش مصر رمسيس الثانى، الذى سير حملة إلى بلاد النوبة ليفتح ما فيها من مناجم الذهب، ويملأ به خزائن مصر مرة ثانية، واستخدم رمسيس هذه الثروة فى إخضاع البلاد الآسيوية التى ثارت على حكم مصر، وخرجت عن طوعها. قضى رمسيس ثلاث سنوات فى إخضاع فلسطين لحكمه، ثم واصل زحفه والتقى عند قادش عام ١٢٨٨ ق. م بجيش عظيم من الحلفاء الآسيويين، ولكن هزم رمسيس العظيم جيوش أعدائه. عاش رمسيس تسعون عاما أعاد فيها إلى مصر الفرعونية انتصاراتها. جاء بعد ذلك رمسيس الثالث فعاشت مصر فى عهده عصر رخاء وازدهار، ثم حكم مصر إمبراطوريات دينية متخلفة، طغى فى عهودها الكهنة الذين حكموا ونهبوا باسم الآلهة، فاستعبد المصرى فى بلده، ونضبت موارده وساد الطغيان والاستعباد، وبدأ عهود الاضمحلال والتدنى.

ظهرت حضارات جديدة وفتية فى بلاد أشور، وبابل، وفارس، بينما الحضارة المصرية آخذة فى التدهور، فقدت مصر سيطرتها على ولايات آسيا، كما فقدت تميزها التجارى فى سواحل البحر المتوسط أمام تفوق التجارة البحرية الصاعدة لأهل فينقيا (سواحل لبنان)، وفقدت مصر سلطانها، وتجارتها وفنونها، ومع سيادة الظلم والطغيان، فقد المصرى كبريائه وعزته. انقض الليبيين علىٰ مصر من الغرب عام ٩٤٥ق. م، وعاثوا فيها فسادا وتدميرا. فى عام ٧٢٢ ق.م غزا الأحباش من الجنوب الأراضى المصرية، وثأروا لعبوديتهم القديمة. وفى عام ٦٧٤ ق. م اجتاح الآشوريين مصر من الشمال الشرقى واخضعوا البلاد لسلطانهم. استطاع ابسماتيك لفترة ما أن يرد الغزاة، وان يضم أجزاء مصر كلها تحت حكمه.

ظهر قورش فى بلاد فارس فى القرن السادس قبل الميلاد، ليحكم ويحول فارس إلى إمبراطورية تضم بلاد آشور، وبابل، وليديا وآسيا الصغرى.

أقام قورش دولته على النبل وكرم الأخلاق، كان لا ينهب البلاد ويخرب المعابد، بل كان يُبدى الإجلال والمجاملة لآلهة البلاد التى غزاها. جاء بعد قورش ابنه قمبيز الذى ورث من أبيه قوته دون نبل أخلاقه. أغرت ثروة مصر قمبيز فزحف عليها عام ٥٢٥ق. م ليمد حدود الإمبراطورية الفارسية إلى نهر النيل. لم يجد قمبيز مقاومة كبيرة فى منف، ولكن جيشه الذى أرسله للاستيلاء على واحة آمون هلك فى الصحراء، سخر قمبيز من دين المصريين، ونبش قبور الملوك، ودنس المعابد المصرية. لما انتاب المرض قمبيز، تشفى فيه المصريين وأرجعوا مرضه إلى غضب الآلهة المصرية. عند عودة قمبيز إلى بلاد فارس، علم أن ثورة قد اندلعت فى بلاده، وان عرشه قد اغتصب، فاختفى بطريقة غامضة، وتذهب بعض الروايات إلى انتحاره أو موته كمدا. فى عهد حكم الفارسى دارا الأول، ثارت مصر على فارس فى عام ٤٨٥ق. م، وخرج حاكم مصر مع حكام ولايات الإمبراطورية الفارسية الأخرى عن التبعية لفارس، ولكن دارا أخضع الولايات التابعة له ومنها مصر، مرة ثانية إلى حكمه، واستخدم فى إخضاعها العنف والقسوة.

اجتاحت جيوش الإسكندر المقدونى بلاد آسيا، ودخل الإسكندر مصر عام ٣٣٢ق. م، ويحكم البطالمة اليونانيين بعد الإسكندر أرض مصر حتى عام ٤٨ق. م عندما غزا قيصر روما الإسكندرية عاصمة مصرفى ذلك الوقت. فى عام ٣٠ق. م. أصبحت مصر تابعة للإمبراطورية الرومانية، تنهل من خيرات مصر، تاركة الشعب المصرى يجتر أحلام تاريخ حضارة مصرية فرعونية قديمة، انتهت إلى الأبد. لم تعيش مصر طوال العهود الفرعونية التى امتدت لحوالى ٣٥٠٠ سنة، فى مستوى واحد من الازدهار والتنمية، لقد مرت بمصر عهود رخاء وتوسع، كما مرت بها عهودا أخرى من الانحطاط والسبات العميق. تعاقبت على مصر الفرعونية منذ الآلف الثالث قبل الميلاد ثلاث إمبراطوريات من الأسرتين الثالثة والرابعة وهم بناة الأهرام حتى أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وهو تاريخ زوال الأسرة التاسعة عشر التى ينتمى إليها رمسيس الثانى. وبعد ذلك فى القرنين السابع والثامن قبل الميلاد، أى بين انقضاء سيادة آشور والفتح الفارسى، عاد إلى مصر شئ من حيويتها مع أسرة

سيبيس، ثم أخذت الحضارة الفرعونية فى الانحدار والانكسار لما حكموا الكهنة البلاد، واستعبدوا أهلها، ونهبوا ثرواتها.

العقائد المصرية القديمة

عرف قدماء المصريين العقيدة الدينية منذ أكثر من أربعة آلاف سنة قبل الميلاد، أى قبل عصر الأسرات الفرعونية. لقد كتب عالم المصريات القديمة برستد : " إن عطاء مصر للحضارة والإنسانية دائم ومتجدد، وأعظم ما جاء به التصور المصرى كان فى مجال الأديان والعقائد، فقضية الدين وتتبعها على مدار العصور تنهض دليلا على عبقرية أصيلة ووجدان مرهف لشعب وادى النيل. أكد المؤرخ اليونانى هيروديت على اهتمام المصريين الزائد بكل الأمور المتصلة بالعقيدة والدين، وعبادة الآلهة، والطاعة الكاملة للكهنة الذين ينقلون لهم ما توصى به هذه الآلهة من فروض وأوامر.

لقد وردت فلسفة المصرى القديم عن الدين وحساب الآخرة، ومفهوم الجنة والنار فى كتاب الموتى الذى يعتبره كثير من المؤرخين وعلماء الأديان أول كتاب دينى عرفته البشرية. تم العثور على أول نسخة كاملة لكتاب الموتى وهى بردية " أنى " الشهيرة فى معبد ابيدوس بصعيد مصر، مدونة باللغة الهيروغليفية ومفسرة بالنقوش والرسومات الملونة. يصف كتاب الموتى قصة الخليقة كما جاء فى البردية : "كان الكون فضاءً أزليًا يغمره الظلام وتنعدم فيه الحركة حتى خلق الإله الأكبر رع نفسه فسارت الحركة الدائمة وغمر النور الكون كله. ومن أنفاسه أُنجب شو وتغنوت أبا الكون وأمه. وتزوج شو وتغنوت فانجبا نوت ربة السماء وجب إله الأرض. أنجب زواج نوت وجب أربعة أبناء – ايزيس وأوزوريس وست وتفتيس، آلهة الخير والخصب والشر والبركة. بوجودهم بدأت الحياة فى الأرض، وبدأ معها الصراع البشرى عندما قتل ست إله الشر أخاه أوزوريس إله الخير ". أنها كما قال الدكتور سيد كريم فى كتابه " لغز الحضارة المصرية "، قصة قابيل وهابيل. احتوى كتاب الموتى للحكيم المصرى آنى وصف كامل لرحلة الروح فى العالم الآخر، وهى الرحلة التى سجلها على شكل تجربة افترضها آنى، على انه قد مات فعلا وانتقلت روحه

إلى العالم الآخر ليقوم برحلة المصير، ابتداء من مفارقة الروح للعالم الأرضى وحتى وصولها إلى عالم الخلود. تستمر الرحلة لتمر خلال السماوات السبع، ويصف كتاب الموتى كل سماء وصفا تفصيليا وطبيعة كل منها، وما تحويه من مخلوقات، وما يجب أن يتلى فيها من تعاويذ. يصف آنى محكمة السماء التى يتصدرها الإله أوزوريس إله الآخرة وهو يجلس على عرشه السماوى، يشع النور من جسده، فيكسو الضياء والنور القائمة بأكملها، ويقف على جانبى الإله كل من إيزيس ونفتيس ملكى الحسنات والسيئات، وأمامه الميزان، ويجلس خلفه القضاة الاثنين والأربعين. ينزع انوبيس قلب آنى ويضعه فى إحدى كفتى الميزان، ويضع فى الكفة الأخرى ريشة ماعت، رمز الحق والعدالة، ويجلس تحوتى إله المعرفة ليراقب سهم الميزان، ويقف على جانبى الميزان رمزا المهد والمصير، ويقف خلف آنى الوحش امنتى حارس الجحيم، على شكل حيوان له رأس تمساح وصدر ومخالب أسد، والجزء الخلفى لفرس النهر. تبدأ المحاكمة بتحية آنى للإله الأعظم وهيئة المحكمة والقضاة بقراءة بعض التلاوات المقدسة المأخوذة من كتاب الموتى، يقول فى نهايتها " يا قلبى لا تشهد ضدى "، ثم يبدأ القضاة فى سؤال الروح، ويقوم ملكا السيئات والحسنات بتسجيل أقواله.

سجل كتاب الموتى أسئلة القضاة مثل : هل راعيت حق بدنك عليك ؟ هل حفظت جسدك طاهرا ؟ هل تغلبت على شهوات جسدك ؟ هل حافظت على حسن سمعتك ؟ هل راعيت أهل بيتك ؟ هل امتدت يدك إلى سرقة ما ليس لك ؟ هل قتلت نفساً بغير حق ؟ هل تغلب عليك الغضب فكنت أسيراً له؟ هل كنت حقودا وحسودا؟ هل أذيت حيوانا أو عذبته ؟ هل سكرت حتى فقدت عقلك ؟ هل نظرت إلى من هو أغنى منك؟ هل مزقت الغيرة قلبك ؟ هل أهملت أرضك؟ هل شغلت عيناك بأمور الدنيا ونسيت الآخرة ؟ هل تعاملت فى الأسواق بالعدل والأمانة ؟ هل تصدقت بخبزك على المحتاجين ؟. . إلى آخره من الأسئلة. يشرح آنى المرحلة الأخيرة بعد إجابته على جميع الأسئلة، وكيف تساوى وزن قلبه مع ريشة ماعت، لقد كانت أعماله بما ترضى الإله، وانه رجل صدق وحق، ونجا آنى من الوحش امنتى حارس بئر الجحيم. يعلن الإله تحوت قرار الإله الأعظم أن روح آنى قد سجلت ولادتها فى عالم الخلود، ويخرج آنى بصحبة حورس ليصعد سلم السماء الموصل

إلى الجنة. قسم كتاب الموتى الجنة إلى سبع طبقات وهى : طبقة الأبرار وطبقة المطهرين وطبقة القديسين وطبقة الشهداء فى جيش حورس وطبقة الآلهة وطبقة النور الأزلى وطبقة الآلهة. وصف آنى الجنة التى دخلها بأن فيها أنهارا من خمر مقدس، ولبن يتساقط من صدر نوت إلهه السماء، وأشجار دائمة الثمار وزهور زاهية الألوان، ومياه خالدة، وجسم لا يفنى، بل هو دائم الشباب. يصف آنى الجحيم الذى شاهده من خلال فتحه الجب وهو يغادر القاعة، أنه مكون من سبع طبقات أو سبع بحيرات للعذاب والألم والندم.

ذهب المؤرخون أن قصة الجنة والنار التى وردت فى كتاب الموتى وتناولتها مختلف الأساطير الفرعونية مع بدء الحضارات القديمة، نقلها اليهود عند خروجهم من مصر فى أسفار الكابلاه العبرية القديمة، كما سبقهم الآشوريين فى نقلها، وتوالت ظهور هذه القصة على مر العصور اللاحقة فى حضارات الشرق وفى العصور الوسطى لأوروبا.

عرفت مصر الفرعونية ديانة التوحيد منذ حوالى ثلاثة آلاف وثلاثمائة عام فى عصر امنحوتب الرابع المعروف باسم إخناتون ومعناه (آتون راض). لم يكد يتولى الملك امنحوتب الرابع بعد وفاة والده تحتمس الثالث حتى ثار على دين آمون. كان الملك الشاب فى حياته الخاصة مثالا للطهر والأمانة، كره الترف، وأعلن فى شجاعة أن الآلهة القديمة وجميع ما فى الدين من احتفالات وطقوس كلها باطلة، وانه لا يوجد إلا إله واحد وهو آتون. رأى إخناتون أن الألوهية أكبر ما تكون فى الشمس مصدر الضوء وكل ما على الأرض من حياة. أن آتون لا يوجد فى الصراع والمعارك الحربية، بل يوجد فى الأزهار والأشجار، وفى فرخ وليد يخرج من البيض، وفى جميع صور الحياة. أن الإله الحق فى عقيدة آتون هو خالق حرارة الشمس ومنبع الحياة والموت، انه خالق كل شئ فى الوجود فهو الذى ملأ أرض مصر بالحب والدفء. كان للدين فى مصر القديمة أثرا عميقا فى كل مجالات الحياة، من أدب، وفن، ونظام الحكم والإدارة، ومعاملات بين أفراد الشعب. كانت السماء هى بداية الخلق فى العقيدة المصرية القديمة، وظلت السماء والنيل من منابع العقائد المصرية الفرعونية. كانت الشمس هى الإله حورس متمثلا فى صورة طير، يطير فى عظمة وجلال

فى السماوات العليا، كما كان رع، أو امون كما كان يسميه أهل الجنوب الشمس أيضا - هو خالق الكون. كانت الآلهة من الحيوان أكثر انتشارا من آلهة النبات. أخذت الآلهة صورة التمساح والصقر والعجل وأبو منجل والكبش والقط والأوزة وابن آوى والأفعى، وغيرها من الحيوانات. كان آمون يمثل بإوزة أو بكبش، ورع يرمز له بعجل، وحتحور ببقرة، والصقر رمز للإله حورس، وابن آوى يمثل انوبيس إله التحنيط، وأبو منجل رمز لتحوت إله العلم والحكمة.

كان الملك فى مصر القديمة إلها، وكان على الدوام ابن آمون - رع، لا يحكم مصر بحقه الإلهى فحسب بل يحكمها أيضا بحق مولده الإلهى، فهو إله رضى أن تكون الأرض موطنا له، كان يرسم على رأس فرعون الصقر رمز حورس وشعار الملك، وتعلو جبهته الأفعى رمز الحكمة والحياة ووهبة القوى للتاج، وكان الملك هو الرئيس الدينى الأعلى يرأس المواكب والمناسبات الدينية. استطاع ملوك الفراعنة أن يحكموا على مدى عصور طويلة من خلال قوة الدين. من ذلك المنطلق كان الكهنة فى مصر القديمة دعامة العرش، وعيونه السرية على أبناء الشعب. وجدت فى مصر الفراعنة طبقة من الكهنة بارعة فى فنون السحر والطقوس الدينية. كان منصب الكاهن ينتقل بالوراثة من الأب إلى الابن، وعليه نشأت طبقة أصبحت على مر الزمان، بفضل تمسك المصريين بالدين، أعظم ثراءً وأقوى سلطانا من الأمراء، ومن الأسرة المالكة نفسها.

كان الكهنة يحصلون على طعامهم وشرابهم من القرابين التى تقدم للآلهة، كما كانت لهم موارد عظيمة من إيراد المعابد، ومن صلواتهم المقدسة وخدماتهم الدينية. كان الكهنة معفيين من دفع الضرائب، ومن أعمال السحرة، والخدمة العسكرية، فقد كان لهم من المكانة والسلطان ما تحسدهم عليه باقى طبقات الشعب. كان الكهنة أصحاب العلم والمعرفة، احتفظوا بها وعلموا بعضها للشعب. وصفهم المؤرخ الإغريقى هيروديت، بأنهم كانوا يلبسون ثيابا نظيفة، يحرصون على نظافة أجسادهم، ويحلقون كل شعر أجسامهم، حتى لا تجد الأقذار مكانا فيهم. من جهة أخرى وجدت فى مصر القديمة طائفة فاسدة من الكهنة، استغلت الدين فى الكسب الحرام، وفى استعباد المصرى المسالم، الطيب السريرة، فكانت هذه الطائفة سببا فى انهيار حضارته الفرعونية.

فى مقدونيا ظهر الإسكندر المقدونى، بعد أن عهد والده فيليب إلى الفيلسوف اليونانى أرسطو بتعليمه عقليا، وآخرين بتعليمه بدنيا. فشب الإسكندر فى بيئة رياضية وفكرية تمهده للنجاح حتى سمى بعد ذلك بالإسكندر الأكبر. ا جلس الإسكندر على العرش بعد وفاة أبيه، واجه صعوبات وقلاقل داخل دولته فقضى عليها بحسم، والقى القبض على المتآمرين. عندما انتهى الإسكندر من متاعبه الداخلية اتجه بجيوشه نحو بلاد اليونان فى عام ٣٣٦ ق. م، فأعلنت له أثينا ولائها. فى عام ٣٣٤ ق. م بدأ الإسكندر فى أجرأ مغامرة لفاتح فى التاريخ القديم. مغامرة استمرت لحوالى إحدى عشر سنة لم ير فيها الإسكندر بلاده مرة ثانية حتى وفاته. زحف الإسكندر نحو الشرق، والتقى بأول جيش فارسى عند نهر غرا نيقوس وهزمه، وبعد ذلك فتح دمشق، وصيدا التى قاومته فانتقم من أهلها بعد فتحها بأن قتل منهم آلاف. استسلمت أورشليم بدون مقاومة فأحسن معاملتها، وحاربته غزة فقتل من أهلها الكثير.

واصل الإسكندر وجيوشه الزحف نحو مصر عن طريق سيناء فوصلها عام ٣٣٢ ق. م، كان الإسكندر حكيما، فقد كان يعلم مدى ارتباط المصريين بالآلهة، فعظم آلهة المصريين فرحبوا به ورأوا فيه منقذا أرسلته الآلهة ليحررهم من ظلم الفرس. اخترق الإسكندر الصحراء الغربية متجها إلى واحة سيوة وقدم الطاعة إلى الإله آمون، فنصبوه المصريين فرعونا على مصر وألهوه. عاد الإسكندر إلى وادى النيل وخطط لإنشاء مدينة جديدة على الشواطئ المصرية الشمالية لتكون مركزا للتجارة مع بلاد اليونان، وكانت هذه المدينة هى الإسكندرية التى أصبحت عاصمة لدولة البطالمة فى مصر بعد ذلك. ترك الإسكندر مصر متجها إلى آسيا ليغزوها.

مات الإسكندر فى شبابه وهو فى ذروة مجده، فكانت مصر من نصيب بطليموس لاجوس أحد قواد الإسكندر، فتولى بطليموس إمارة مصر، وبلاد اليهود جنوب السامرة. حافظ البطالمة على النظام الفرعونى من ملكية الأرض للملك الإله، له الحق فى كل ما تنتجه، لم يكن الفلاح المصرى عبدا ولكن كان

يجب عليه أن يورد الجزء الأكبر من محصوله إلى الدونه. ابقى البطالمة على هذا النظام، بل وسعوا نطاقه باستيلائهم على الأراضى الواسعة التى كانت تمتلكها الأسر المالكة السابقة والأمراء والكهنة. أسس البطالمة هيئة بيروقراطية كبيرة مكونة من موظفين حكوميين، يدعمها حراس مسلحون، لإدارة أرض مصر كمزرعة حكومية ضخمة. استغل البطالمة مناجم الذهب فى بلاد النوبة، ومناجم النحاس فى صحراء سيناء، واحتكروا معاصر الزيت، وشجعت دولة البطالمة إقامة الصناعات فى المدينة الوليدة الإسكندرية. أدخل بطليموس الثانى الجمل فى مصر لنقل المراسلات الحكومية، وانشأ البطالمة أسطولا تجاريا كبيراً لنقل تجارة مصر إلى جميع أنحاء العالم القديم. كانت حكومة البطالمة من أقدر الحكومات، فأخذت شكلها القومى المركزى عن مصر وفارس. قسمت البلاد إلى أقاليم يديرها موظفين يعينهم الملك، وكانوا جميع من اليونانيين. أدخل اليونانيين نظام الرق فى مصر. بالرغم من أنهم رفعوا من اقتصاد مصر، إلا أنهم استولوا على ثرواتها. لم يترك البطالمة شيئا إلا فرضوا عليه الضرائب كانت حقول مصر وصناعاتها تنتج قدرا كبيرا من المحاصيل ومن المنتجات المصنعة، زادت على حاجة البلاد، فكانت تباع فى جميع بلاد العالم القديم. نهلوا البطالمة من رواج الاقتصاد المصرى ما جعلهم يعيشوا فى رفاهية حتى سقوط مصر فى يد الرومان. عاشت مدينة الإسكندرية خاصة فى نحو ٢٠٠ق.م ازهى عصورها فى عصر البطالمة. عاش فيها المقدونيين، واليونانيين، والمصريين واليهود والفرس، وغيرهم من الجنسيات المختلفة، امتلئت المدينة بالقصور والحدائق والملاعب الرياضية، واشتهرت الإسكندرية بكثرة أماكن المتعة، كان نحو خمس سكان الإسكندرية من اليهود، قدم إليها فى فترة ازدهارها الاقتصادى الكثير من التجار اليهود، لقد حثهم الإسكندر للهجرة إلى مصر، وشجعهم بطليموس على الإقامة فى الإسكندرية، وأعطى لهم ما لليونانيين من حقوق سياسية واقتصادية.

بعد وفاة بطليموس السادس فى علم ١٤٥ ق. م، أخذت مصر البطالمة طريق الاضمحلال، وأخذ مجلس الشيوخ الرومانى يقوى سلطانه فى مصر، ويملى عليها إرادته، بل انه أقام حامية رومانية فى الإسكندرية. بعد وفاة

بطليموس الحادى عشر الذى أجلسه القائد الرومانى بمبى على العرش، آلت مقاليد الحكم إلى ابنه بطليموس الثانى عشر وابنته كليوباترا وفقا لوصية الوالد الذى طلب أن يتزوج الأخ أخته ويشتركا فى حكم مصر معا. كانت كليوباترا من أصل يونانى مقدونى. لم تكن جميلة ولكن كانت تتميز بقوة شخصيتها، وثراء ثقافتها، مما اكسى عليها فتنة وإغراء. فى هذه الأثناء حدثت حرب أهلية فى بلاد الرومان بين قيصر وقائده بمبى، ودار صراع بين الطرفين انتهى بهزيمة بمبى وهروبه إلى الإسكندرية. فأمر بوثينس وزير بطليموس الثانى عشر بقتل بومبى إرضاءً لقيصر. لما جاء قيصر إلى مصر اظهر رجال بوثينس رأس بمبى لقيصر فأظهر امتعاضه لعملية الاغتيال. نزل قيصر فى قصر البطالمة الملكى واخذ ينظم شئون المملكة المصرية. استاء قيصر عندما عرف أن بوثينس قد نفى كليوباترا ونصب نفسه نائبا عن بطليموس الشاب، يحكم البلاد باسمه. احتالت كليوباترا للوصول إلى قيصر بأن اخفت نفسها فى سجادة أو فراش حمله خادمها إلى مسكن قيصر، فأعجب قيصر بذكائها وفتنتها، ووفق بينها وبين أخيها، وأجلسها مع أخاها على عرش مصر كما كانا من قبل.

عرف قيصر أن بوثينس، والقائد المصرى اخلاس تآمرا عليه لقتله، فدبر قيصر اغتيال بوثينس، وفر اخلاس جنوبا واتصل بالجيش المصرى وحرضه على الثورة ضد قيصر وجيشه الصغير، فتوافد على الإسكندرية قوات من جيش اخلاس لمحاربة قيصر. طلب قيصر المدد من آسيا الصغرى وسوريا ورودس. أدرك قيصر أن أسطوله سيقع فى يد أعدائه، فأمر بحرقه، فالتهمت النيران مكتبة الإسكندرية الشهيرة بكتبها ووثائقها. فى أثناء المعارك ظن بطليموس الثانى عشر أن الثوار قد حالفهم النصر، فخرج من القصر وانضم إليهم ثم اختفى عندما جاء المدد إلى قيصر، وهزم به المصريين. كافأ قيصر كليوباترا على إخلاصها بأن عين أخاها الأصغر بطليموس الثالث عشر ملكا على مصر معها، فكانت بذلك هى الحاكم الحقيقى على مصر. أقام قيصر فى مصر حوالى تسعة شهور، تمتع فيها بفتنة كليوباترا التى وضعت طفلا من قيصر فى عام ٤٧ ق. م أسمته قيصرون عاد قيصر إلى بلاده بعد أن اندلعت القلاقل والفوضى فى إمبراطوريته.

فى عام ٤٤ ق. م اغتال بروتس قيصر، وامتد عهد الفوضى والحروب الداخلية فى روماء ظهر فى هذه الأثناء القائد انطونيوس (انطونيو) الذى انتقم لمقتل قيصر وحارب بروتس وهزمه، وتقاسم المنتصرون الغنائم، واختار انطونيوس مصر وبلاد اليونان والشرق ليحكمها. استسلم انطونيوس لشهواته ومجونه وأرسل إلى كليوباترا للمثول بين يديه فى طرسوس ببلاد الشام للتحقيق معها فى الاتهامات الموجهة إليها، فجاءت إليه فى قارب ينساب فى النهر على أنغام الموسيقى الشجية، ففتنته بسحر شاعرية اللقاء. بدأ اللقاء بلوم انطونيوس لكليوباترا، وانتهى بإهدائها فينقيا وسوريا الوسطى وقبرص وأجزاء من قليقية وبلاد العرب وبلاد اليهود. ردت كليوباترا الهدية بأن دعته إلى الإسكندرية لينهل من حبها ويرتوى من جسدها. بينما كان انطونيوس يلهو فى الإسكندرية مع كليوباترا، كانت زوجته وأخوها يتآمران عليه مع اوكتافيان ليسقطاه وينتزعا سلطانه على روما. اقنع اوكتافيان مجلس الشيوخ الرومانى بأن كليوباترا تستخدم انطونيوس للاستيلاء على الإمبراطورية الرومانية، ثم أعلن اوكتافيان الحرب على كليوباترا، وفى عام ٣١ ق. م التحم جيوش وأساطيل اوكتافيان، مع جيوش وأساطيل انطونيوس وكليوباترا عند اكتيوم. احرق اوكتافيان أسطول انطونيوس فهرب إلى أسطول كليوباترا، وعاد انطونيوس وكليوباترا إلى الإسكندرية يجران ثوب الخزى والهزيمة. حاولا انطونيوس وكليوباترا استرضاء اوكتافيان ولكنه رفض وتوجه بأسطوله إلى الإسكندرية، وحارب انطونيوس. ترامى إلى سمع انطونيوس أن كليوباترا قد ماتت فطعن نفسه بسيفه ثم علم ساعة احتضاره أن خبر موت كليوباترا كاذب فطلب من جنوده أن ينقلوه إليها. رأت كليوباترا أنها ستصبح أسيرة ذليلة فانتحرت هى الأخرى. جلس اوكتافيان على عرش البطالمة فى مصر وورث أملاكهم، ثم ترك فى مصر حاكما يدير شئون البلاد باسمه. وهكذا أصبحت مصر تابعة للإمبراطورية الرومانية فى عام ٣٠ ق. م.

فى السنين الأولى من القرن الأول الميلادى ظهر المسيح عيسى بن مريم فى بلاد الشام، جاءت المسيحية إلى مصر مع القديس مرقص الذى وصل إلى مصر حاملا تعاليم المسيح بعد سنوات قليلة من صلب معلمه فى ٣٠ م. كتب

القديس مرقص الإنجيل الذى يحمل اسمه عندما جاء إلى مصر فى صحبه القديس بطرس. كانت مصر فخرا للمسيحيين لأنها كانت الملجأ الذى أوى إليه العائلة المقدسة (السيد المسيح، والعذراء مريم، ويوسف النجار) هربا من اضطهاد هيرودس الذى أقامه الرومان ملكا على بلاد اليهود فى أورشليم. في القرنين الأوليين للمسيحية، واجه المسيحيون فى مصر موجات من الاضطهاد الدينى على يد الرومان، خاصة تحت حكم ديسيوس وفاليريان وديوكليتيان فى القرن الثالث وبداية القرن الرابع الميلادى، حتى اصدر الإمبراطور الرومانى قسطنطين الذى اعتنق المسيحية مرسوم التسامح الدينى فى عام ٣١٣ م، فيأمر بعودة أملاك المسيحيين التى صُدرت أثناء عصور الاضطهاد. أسهمت الكنيسة المصرية بنصيب بارز فى دراسة وحفظ الفكر المسيحى. كان المسيحيون الأتقياء يذهبون إلى الصحراء فارين من الاضطهاد الرومانى للمسيحية وتقربا إلى الرب فى عزلة الصحراء. كان القديس انطونيوس، ابن أسرة مسيحية ثرية أول من استجاب فى عام ٢٦٨ م لقول المسيح : " اذهب وبع ما تملك وأعطه للفقراء ". ذهب انطونيوس إلى صحراء وادى النطرون وأنشأ نظام الرهبنة، وتبعه بعض من تلاميذه فى الانقطاع للعبادة. لم تمض سنوات قليلة حتى شهد وادى النطرون بناء ما يقرب من خمسين ديرا جمعت حوالى خمسة آلاف راهب قرروا أن يهبوا حياتهم للمسيح.

كان الإمبراطور قسطنطين هو العامل الرئيسى لانتشار المسيحية فى أوروبا وآسيا. أقام قسطنطين مدينة روما الجديدة والتى سميت بعد ذلك بالقسطنطينية على مضيق البسفور (اسطنبول - تركيا). كانت هذه المدينة قد أقامها جماعة من المستعمرين اليونان حوالى عام ٦٥٨ ق. م، وكانت تسمى بيزنطية، ثم أقام فيها الرومان، وأنشأوا الإمبراطورية البيزنطية.

فى عام ٣٣٥م وقبل وفاته بعامين، خص قسطنطين ابنه قسطنطيوس بآسيا الصغرى وسوريا ومصر.

تشير النظريات المطروحة لتاريخ تكوين الجنس المصرى كما وردت فى كتاب شخصية مصر للدكتور جمال حمدان إلى ثنائية العنصرية فيما قبل عصور الأسر القديمة أى قبل ثلاث آلاف سنة قبل الميلاد. العنصر الأول كان يتمركز فى الدلتا وفى مصر الوسطى حتى الفيوم وكان ينتمى فى الشكل إلى جنس حوض البحر المتوسط. أما العنصر الثانى فكان يعيش فى جنوب مصر، من المنيا حتى وادى حلفا وكان يتميز بأنفه العريض وبعض بروز الفك نتيجة للأثر الزنجى الذى تسرب إليه من الجنوب فى أعماق قارة أفريقيا. حتى ما كان عصر الأسرات حتى أخذ العنصر الشمالى يزحف تدريجيا إلى اعلى النهر، واخذ العنصر الجنوبى يتقهقر ويتراجع نحو الجنوب حتى ساد العنصر الشمالى كل أنحاء مصر منذ حوالى ألفين سنة قبل الميلاد، وحدث تجانس بين عنصرى أو جنسى الشعب المصرى. ليظهر الجنس المصرى الواحد الذى حافظ على طبيعته بالرغم من الغزوات والهجرات الأجنبية على مصر بدءا من الهكسوس ساكنى آسيا الوسطى، ثم العرب وبعد ذلك المماليك، ونهاية بالهجرات التركية، الأوربية. لقد حدث اختلاط وامتزاج للعناصر الاثينية المختلفة الواردة إلى مصر على مدى العصور الماضية، انتهت بذوبان وانصهار العناصر الغريبة فى الجنس المصرى الموحد الذى تبلور فى عصر الأسرات.

كانت الغزوات لا الهجرات هى السائدة على مر تاريخ مصر. كان للغزوات أثربيولوجى على الجنس المصرى بحكم عددها الذى وصل إلى نحو الأربعين. أما الهجرات فيمكن تقسيمها إلى ثلاث هجرات رئيسية هى الهكسوس واليهود والعرب، وهجرتين ثانويتين هما الهجرة الإغريقية وهجرة العناصر الوافدة من آسيا طوال العصور الوسطى من أتراك وأكراد وشراكسة، أى منذ عصر المماليك.

تعددت الحروب والفتوح المصرية القديمة شرقا فى آسيا مع الآشوريين والكنعانيين والفينقيين والفارسيين، وغربا مع الليبيين، وجنوبا مع الإثيوبيين. عندما تنتصر الجيوش المصرية كانت الآلاف من الأسرى تتدفق على الأراضى

المصرية، ليعملوا كعبيد لدى المصريين ثم يمتزجوا معهم بعد ذلك على مر العصور.

حدث غزو وحكم الهكسوس الآسيويين لمصر نحو عام ١٧٣٠ ق. م والذى استمر حتى عام ١٥٨٠ق. م تقريبا، أى من المرجح أن تكون هجرة اليهود لمصر نحو عام ١٨٠٠ ق. م قد تمت أثناء حكم الهكسوس لمصر. فى آخر العصر الفرعونى، فى عصور التدهور أخذت بعض الأسرات الفرعونية تعتمد على المرتزقة الأجانب وبالأخص الإغريق الذين ظهروا فى مصر فى القرن السادس قبل الميلاد. مع غزو الإسكندر الأكبر لمصر فى القرن الثالث قبل الميلاد ومع حكم البطالمة، حدثت هجرات يونانية مؤثرة، فقدر عدد الإغريق الذين أقاموا بمصر فى تلك الفترة بنحو مائة وخمسون ألفا أى حوالى ٢٪ من سكان مصر. تركز الوجود الإغريقى فى مصر فى الإسكندرية وبعض مناطق الدلتا الشمالية مثل منطقة مريوط - البحيرة، ومنطقة الفيوم، ولكن كان الوجود الإغريقى فى مصر منعزلا ومميزا إلى حد كبير. فى تلك العصور أيضا، خضعت مصر لفارس نحو عام ٥٠٠ قبل الميلاد حتى حكم البطالمة نحو عام ٣٣٠ قبل الميلاد، وفى عام ٣٠ قبل الميلاد خضعت مصر للحكم الرومانى، الذى كان مجرد غزو عسكرى لم تصحبه هجرة مؤثرة، ولم يكن له أثر جنسى يذكر على المصريين.

تم الفتح العربى الإسلامى لمصر ما بين عام ٦٣٩ وعام ٦٤٢ ميلاديا. كان الفاتحون العرب ينزلون فى مخيمات عسكرية خاصة بهم فى منطقة الفسطاط، ثم تحولت هذه المخيمات إلى مستعمرات مغلقة تتزاوج داخليا وذلك لاختلاف العادات والتقاليد مع السكان المحليين، إلا انه بمرور الوقت حدث انفتاح لهذه المستعمرات وتزاوج العرب مع أهل مصر واندمج العرب مع السكان المحليين وانصهروا تماما فى بوتقة الجنس المصرى. إذا كان الفتح العربى قد تم فى القرن السابع الميلادى، فإن هجرات أخرى عربية ممثلة فى قبيلتى بنى هلال وبنى سليم قد وفدت إلى مصر فى القرن الحادى عشر. انفتحت مصر على العالم الإسلامى، وامتصت مصر هجرات وغزوات فاطمية وطولونيه وإخشيدية، وأكراد أيوبيين، وأتراك وشراكسة وقوقازيين (مماليك)،

ومغربة وأندلسيين، ثم أتراك العثمانيين مع بعض الألبان والبلقان والأرمن قبل ومع عصر محمد علي. تركت هذه الغزوات والهجرات ذو الأصل الآسيوى مع قلة أوربية وأفريقية أثرا فى تكوين الجنس المصرى، فأخذ بعض المصريين الملامح الآسيوية وقلة منهم الملامح الأوربية. لقد ذكر المقريزى أن جيوش ابن طولون كانت تتكون من ٤٠ ألف جندى أسود، ٢٤ ألف تركى، أما قوات المستنصر فقد كانت بها ٢٠ ألف فارسى، ٤٥ ألف اسود، ٥٠ ألف بدوى حجزى، ١٥ ألف مغربى. لقد قدم صلاح الدين الأيوبى إلى مصر فى نحو ١٢ ألف فارس من الأكراد والأتراك. وفى أيام الدولة المملوكية حين اشتدت وطأة الغزو المغولى لمصر، ارتفع عدد المماليك فى مصر إلى أقصاه خاصة أيام أيبك وقطز وبيبرس وكتبغا، فمثلا كان مماليك قلاوون عشرة آلاف، ومماليك ابنه اثنى عشر ألفا. وبعد سقوط بغداد بعد الغزو المغولى حدثت موجات متوالية من اللاجئين لمصر، ولكن يظل العنصر التركى كأكثر الوافدين إلى مصر طوال العصور الوسطى والحديثة. سكنت أرض مصر جاليات كثيرة من دول مختلفة :مثل سوريا ولبنان وفلسطين والسودان من الدول العربية، وقبرص ومالطا واليونان وإيطاليا والبوسنة وألبانيا وإنجلترا وفرنسا من أوروبا، والقوقاز وبخاريا من آسيا.

لقد كانت مصر عبر العصور مستقبلة للأجانب عكس اليهود الذين تشتتوا عبر العصور فى جميع أنحاء العالم. لقد استقبلت مصر أجناس كثيرة من أماكن متفرقة ولكن حرارة وطبيعة الجنس المصرى أدى إلى ذوبان جميع الأجناس الواردة فى الجنس المصرى المميز.

كانت الهجرات الرئيسية الثلاث إلى مصر من شعوب سامية دخلت عبر سيناء فى عهود الأسر الفرعونية الوسطى، ونتيجة للفوضى التى حدثت فى عصر ما بين الإمبراطوريتين القديمة والوسطى غزا الهكسوس مصر فى موجات من الهجرة الجماعية.

كانت الهجرة العربية الإسلامية السلمية فى القرن السابع ميلاديا هى أكثر الهجرات التى أثرت فى انثروبولوجيا الجنس المصرى، فهى التى غيرت

لغته، وثقافته، وديانته. لماذا اندمج الجنس العربى السامى مع الجنس المصرى الحامى وأصبحا نسيجا واحدا ؟ كان الزمن الذى مر على مصر على مدى حوالى ٢٥٠٠ سنة ما بين هجرات الهكسوس واليهود، وهجرة العرب، هو العامل الرئيسى لحدوث الاندماج والامتزاج بين العرب والمصريين. مرت على مصر أحداث كثيرة خلال هذه الفترة من مجد وازدهار أثناء الإمبراطورية المصرية الفرعونية الحديثة، وفراعنة عظام مثل تحتمس الثالث ورمسيس الثانى، وفرعون التوحيد إخناتون، ثم حدث اضمحلال للحضارة المصرية وانهيار للقوى العسكرية، بدأت بغزو الفرس، ثم الإسكندر الأكبر وحكم البطالمة الإغريق لمصر، ثم حكم الرومان. عند غزو العرب لمصر حدث تفاعل بين العرب والمصريين لسببين أو من منطلق محورين أساسيين :

أولاً : لم يكن الغزو العربى الإسلامى غزوا بالمعنى التقليدى من أجل فرض السيطرة والسطو على ثروة البلاد، بل كان غزوا من أجل نشر دين جديد. كما كانت طبيعة العربى بها سماحة وبساطة تنقصها حضارة رفيعة كالتى عاش فيها المصريين قديما، حضارة برع فيها المصرى فى علوم لم يسمع عنها العربى أى شئ مثل الفلك والكيمياء والطب والحساب. لقد ورد اسم مصر فى القرآن عدة مرات، كما وردت قصص ملوك مصر فى آيات كثيرة يتلوها المسلمون العرب فى صلاتهم خمس مرات يوميا على الأقل. لذا كان يوجد إعجاب مسبق للمصريين من عرب الجزيرة العربية قبل غزوهم لمصر خاصة أنهم من نسل إسماعيل وهاجر المصرية، وطبيعة العربى مراعاة صلة الدم والنسب حتى لو مر عليها آلاف من السنين.

ثانيا : غربت الحضارة القديمة عن مصر، وعاشت مصر تحت نير حكم بلاد مختلفة، لها ثقافات بعيدة عن ثقافتها، كانت طبيعة الطبقة الحاكمة من الإغريق والرومان التى عاشت فى مصر متعالية عن المصريين، فلا عجب أن ينجذب المصريين إلى العرب ذوى الطبيعة البسيطة المتواضعة، بعدما ذاقوا هوان الضعف والمذلة بعد الازدهار والرقى والحضارة القديمة.

لقد تلاقى ذو الحضارة العريقة فى أوقات ضعفه مع بدوى بسيط دون حضارة فى أوقات قوته، انه القدر لتتحول مصر الفرعونية إلى مصر العربية الإسلامية.

ان ضخامة عدد السكان فى مصر فى معظم مراحل تاريخها كانت تحد من تأثير الجنس الأجنبى الوافد عليها، فكان الجنس الأجنبى سرعان ما يذوب وينصهر فى المجتمع المصرى المتميز بتسامحه وتقبله حتى مع الغازى، خاصة شمال مصر بدءا من القاهرة، حيث التربة الخصبة وفروع نهر النيل الممتدة فى دلتا مصر. أن مصر كما يقول الدكتور جمال حمدان لم تعرف كراهية الأجانب قط بحكم موقعها ووجودها بين تيارات مختلفة من البشر. لم تعرف مصر العنصرية أو التعصب الجنسى، ولارفضت الاختلاط الصحى بالغير، ولا أقامت حاجزا لونيا فى تاريخها. يزيد الدكتور جمال حمدان فى كتابه القيم " شخصية مصر"، أن التسامح الدينى فى مصر دين ثان بعد التدين نفسه. ان التدين من أقدم خصائص المصرى القديم، حيث كانت الحياة الفرعونية بكامل طقوسها تدور إلى حد كبير حول الحياة الأخرى من موت وبعث، وضمير وأخلاق. بل أن مصر قد عرفت التوحيد فى عهد إخناتون قبل نزول الأديان السماوية. أن النزعة الدينية العميقة والأصيلة هى التى جعلت مصر تتقبل الديانات التوحيدية الثلاث، فمصر بطبيعتها تربة صالحة للتدين. لم تعرف مصر على مدى عصورها التعصب الدينى العنيف، ولا عرفت الحروب الدينية الدموية، أو المذابح الطائفية. حتى وان وجد أحيانا بعض التعصب الدينى، فسريعا ما يلفظ من أغلبية المصريين، ثم تعود مصر مرة ثانية إلى التسامح والاعتدال، والاتزان الحضارى. أن المصرى بحكم عمله الزراعى، صبور ومثابر، يبذر البذور وينتظر شهورا قبل جنى ثمار تعبه، فأصبح الصبر، والتمهل طبيعة لاصقة فى المصريين. كما خلقت الطبيعة المنبسطة الخالية من قسوة البراكين والزلازل والعواصف والمناخ المعتدل صيفا وشتاءً، صفات يتميز بها المصرى من حياة الأنس والانبساط، والوداعة، (والفرفشة). تعلم المصرى من فيضان النيل الحذر واليقظة، واكتسب من سهولة الحصول على مياه النيل للشرب والزراعة – العيشة السهلة والسلسة، وتجنب الكفاح الصعب، والثورات العنيفة.

من جهة أخرى اكتسب المصرى نتيجة لطول فترات استعماره مناعة ضد الطغيان والاستبداد. فتعلم السلبية والنفاق، والرياء والخنوع، الرضا والقناعة والطاعة، والقدرية والتواكلية. تغلب المصرى على الهموم والطغيان، إما بالميل إلى الهم والأسى والحزن، أو بروح الفكاهة والنكتة والسخرية، من الحاكم الدكتاتور الطاغى. أو حتى من نفسه.

مصر العربية / الإسلامية

بعد وفاة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام ٦٣٦م، تولى أمور المسلمين الخليفة الأول، أبو بكر الصديق فى الأعوام (٦٣٢-٦٣٤)، ثم الخليفة الثانى عمر بن الخطاب فى الأعوام (٦٣٤-٦٤٤م) والذى مات اغتيالا، ثم الخليفة الثالث عثمان بن عفان فى الأعوام (٦٤٤-٦٥٦م) والذى مات قتيلا، وأخيرا آخر الخلفاء الراشدين على بن أبى طالب(٦٥٦-٦٦١م) والذى مات قتيلا أيضا. أسس معاوية بن أبى سفين الدولة الأموية التى حكمت العالم الإسلامى من دمشق، فى الأعوام (٦٦١-٧٥٠م)، أى لمدة تسعين عاما تقريبا، توارث الحكم فيها أربع عشر خليفة، بداية من معاوية، وانتهاءً بالوليد بن يزيد بن عبد الملك. ينتسب معاوية مؤسس البيت الأموى إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب، وأبوه سفيان بن حرب بن أمية، زعيم قريش وقائد المشركين ضد الرسول صلى الله عليه وسلم بعد موت أبى جهل، ولكنه اسلم عند فتح مكة. نجح معاوية فى الوصول إلى حكم الدولة الإسلامية عقب مقتل على بن أبى طالب على يد الخارجى عبد الرحمن بن ملجم، وبعد تنازل الحسن بن على له عن الخلافة، وبعد أن بويع فى عام الجماعة بالخلافة بحضور الحسن والحسين ابنى الخليفة على.

حرص معاوية حين ولى الحكم، على جمع كلمة المسلمين، ونجح فى ذلك بفضل ذكائه، ودهائه، وشجاعته. عمد أثناء خلافته إلى أخذ البيعة بالخلافة لابنه يزيد من بعده، وبذلك حول الخلافة من نظام الشورى والاختيار الحر فى عهد الخلفاء الراشدين، إلى النظام الملكى الوراثى، وصارت الخلافة وراثية فى أسرة واحدة، بدلا من أن تكون حقا للمسلمين جميعا يختارون لها من يرون صلاحه لتوليها. إذا كان المسلمون قد ارتضوا بحكم معاوية، فإن غالبية المسلمين أنكروا

خلافه مـن جـاء مـن بعده. كثرت الثورات والمعارضـة ضـد الأمويين، واستخدم الحكام القوة والعنف فى تثبيت حكمهم. أخذت المعارضة فى الازدياد، حتى نجح بنو العباس فى استغلالها، وتمكنوا من القضاء على خلافة بنى أمية عام٧٥٠م. بالرغم ما أخذ على الأمويين من ثورات الحكم، إلا أن فى عهودهم اتسعت الدولـة الإسـلامية، فوصل الإسلام إلى قلب شبه القارة الهندية وإلى غرب الصين، وجنوب فرنسا. وفى هذه العهود احتل العرب بلاد البربر فى شمال أفريقيا، وغزوا أسبانيا، وحاصروا القسطنطينية. كما يسجل للحكام الأمويين، أنهم وضعوا النظم السياسية والإدارية والحكومية للإمبراطورية الإسلامية الجديدة، وبذلك وضعوا بذور حضـارة إسـلامية شملت جميع فروع الحياة، من علوم، وفنون، وآداب. سقطت دولـة الأمويين عام ٧٥٠م لأسباب عديدة منها المعارضـة التى واجهت الدولـة الأموية خاصـة مـن جماعات الشيعة، والموالين لعلى بن أبى طـالب ولبنيه مـن بعده، حيث أنهم كانوا يروا ضرورة استمرار حكم المسلمين فى بيت رسـول الله صلى الله عليه وسلم، كما عارض البعض لإغفال نظام الشورى الذى نادى به الإسلام، وتحول الحكم إلى ملكية وراثية. قام الشيعة بثورات ضد الأمويين، الذين واجهوا هذه الثورات بعنف شديد ضد الشيعة. عارض الخوارج أيضا حكم الأمويين. نشأت الخوارج أثناء معركة صفين بين على ومعاوية بعد حادثة التحكيم التى اعترض عليها الخوارج، فتركوا جيش على بن أبى طالب، واختاروا لهم قائدا وتم تسميتهم بالخوارج. حاول الخوارج إسقاط حكم الأمويين، حيث كانوا يرون أن الخلافـة حق مباح لكل مسلم يبايعه المسلمون مهما كان لونـه أو جنسه أو نسبه. قاتل حكام الأمويين الخوارج بضراوة واستنفذ قتالهم جهدا كبيرا، وكادوا يقضـون على الدولـة الأموية فى عهد عبد الملك بن مروان، لولا شجاعة قائده الحجاج بن يوسف الثقفى الذى نجح فى هزيمتهم. كان الموالى (المسلمون من غير العرب) أيضا مـن أسباب سقوط الدولـة الأموية. زاد عـدد الموالى نتيجة للفتوح الإسلامية الكثيرة، ودخول شعوب مثل الفرس والترك والبربر والأرمن والقبط وغيرهم تحت تبعية الدولة الإسلامية. ترفـع الأمويين على الموالى بالرغم من الاستعانة بهم فى الأمور التى لم يعرفونها أو يتقونها. نقم الموالى على الأمويين بسبب سوء معاملتهم، وكان الموالى يشعرون بأن الأمويين لا ينفذون تعاليم الإسلام فى العدل والمساواة فى المعاملة، خاصـة أهل الفرس لأنهم كانوا من أصحاب الحضارات القديمة والعريقة. كذلك كانت العصبية

القبلية من أهم العوامل التى أدت إلى القضاء على الدولة الأموية، فقد عاد التعصب إلى القبيلة، مما ساعد فى نشوب النزاع العرفى بين القبائل العربية. عادت كل قبيلة تتعصب إلى أصلها اليمنى القحطانى، أو القيسى المضرى. عجلت الحروب بين القيسية واليمنية بنهاية الدولة. كذلك كان من عوامل سقوط الدولة الأموية انقسام البيت الأموى بسبب نظام ولاية العهد، وتولية العهد لأكثر من واحد، كما تولى آخر العهد الأموى خلفاء ضعف، لم يتصدوا بقوة إلى المؤامرات والدسائس التى كانت تحاك، والثورات التى اشتعلت، فأتاح مناخ الضعف للعباسيين فى إسقاط دولة بنى أمية، وقيامة الدولة العباسية. قد يتوارد إلى الذهن سؤال، وهو لماذا استمر حكم الأمويين لنحو قرن من الزمان، بالرغم من العوامل العديدة المناوئة لهم، وكيف اتسعت الإمبراطورية الإسلامية فى ظل الظروف السابقة. قد يكون القصور الذاتى لظهور الإسلام بمعنى استمرار الحركة بالرغم من وجود ظروف تحاول الحد منها، والقوة المعنوية، والطاقة العقائدية الهائلة التى أوجدها الرسول فى وجدان العربى هما اللتان حركتا الامور نحو انتشار الإسلام وازدهار الحضارة الإسلامية العربية، بالرغم من الأسباب العديدة السابق ذكرها والتىقد تحدمن تطور أى حضارة جديدة.

حكمت الدولة العباسية العالم الإسلامى العربى فى الفترة (٧٥٠-١٢٥٨م) تناوب على حكمها ستة وثلاثون خليفة. أما فى مصر فقد حكمت الدولة العباسية خلال عصرين، الأول فى الأعوام (٧٥٠-٨٧٠م) والثانى فى الأعوام (٩٠٥-٩٣٤م). ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب عم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. يعتبر العصر الأول لهذه الدولة والذى امتد طوال مئة عام، هو العصر الذهبى فى الحكم والإدارة والحضارة. أما فى عصرها الثانى الذى امتد حتى سقوطها، فقد ساد الاضطراب بسبب تسلط القواد الأتراك والفرس على خلفاء ذلك العصر. صاحب هذا التسلط فوضى وصراع على الحكم، مما أضر بأحوال الدولة، وأضعفها، وجعلها فى النهاية تسقط على يد الغزو المغولى الذى اجتاح العراق، واسقط العاصمة بغداد عام ١٢٥٨م، وقتل الخليفة المستعصم بالله العباسى، آخر خلفاء الدولة العباسية.

كانت الخلافات الداخلية التى نشبت بين القائمين على الحكم فى الدولة العباسية، والتنافس بين الفرس والعرب الذين يشرفون على الإدارات المختلفة

في البلاد، ومحاولة التخلص من هذين الحزبين والاتجـ ه إلى الاعتماد على الأتراك، هي التي أدت إلى ضعف الخلافة العباسية، وتفكك الإمبراطورية العربية. استطاع السرى بن الحكم أن يجعل نفسه واليا على مصر أيام الخلافة العباسية في بغداد، ثم حاول الاستقلال بمصر، وان يجعل من مدينة تنيس بشرق الدلتا عاصمة لها، بعيدا عن الفسطاط، أول مقر للدولة الإسلامية في مصر بعد أن دخلت الجيوش العربية أرض مصر بقيادة عمرو بن العص. جاء احمد بن طولون إلى مصر نائبا عن باكباك التركي عام ٨٦٨م، وأخذ يجمع السلطة كلها في يده، واستطاع أن ينشر الأمن والاستقرار في البلاد، وان يقضي على الفتن، وأسس بذلك الدولة الطولونية في عام ٨٧٠م، وأسس جيشا قويا يحمي به استقلال مصر.

امتد عهد احمد بن طولون حتى عام ٨٨٤م، قام فيها بحركة عمرانية واسعة في أرض مصر، وأصبح من القوة ما جعل الخلافة العباسية تستعين به ضد الروم البيزنطيين. ضم احمد بن طولون بلاد الشام لحكمه، وبذلك أصبحت مصر والشام وحدة لها أثرها العميق، وقوتها الرادعة، في حماية أرض الإسلام والعروبة في وقت عجزت فيه الخلافة العباسية في بغداد عن القيام بأي عمل إيجابي. بلغت القوة العسكرية بوحدة مصر والشام ذروتها، حتى الروم أرسلوا إلى احمد بن طولون طلب عقد صلح أو معاهدة يضمنوا بها جانبه.

بعد أن وصلت مصر إلى عصر ازدهار وقوة، عمت الاضطرابات والفوضى في عهد شيبان رابع الخلفاء الطولونيين، لاشتداد الخلاف والتنافس بين الطامعين في السلطان، مما ساعد على دخول الجيوش العباسية البلاد وأزالت الدولة الطولوتية التي حكمت مصر والشام طول ثمانية وثلاثون عاما.

دخلت قوات الخليفة المكتفي بالله مصر في عام ٩٠٤م بقيادة محمد بن سليمان، وأشعلوا النار في قصورها، ومعاهدها، وحدائقها ودمروا مبانيها. إذا كان قد تم القضاء على الدولة الطولونية في عام ٩٠٥م لتصبح مصر تحت الحكم العباسي مرة ثانية، إلا انه لم يتم القضاء على الخلافات الداخلية، مما شجع محمد بن طفج في عام ٩٢٥م، على الانفراد بالسلطة، وقد ساعده على

ذلك وقوفه فى وجه الفاطميين الذين حاولوا الهجوم على تونس، فأنعم عليه الخليفة الراضى العباسى لقب (الإخشيد)، وأصبح محمد بن طفج حاكم البلاد، وأسس دولة جديدة سميت بالدولة الإخشيدية.

على أثر خلاف مع الخلافة العباسية، أعلن محمد الإخشيدى استقلال مصر، وأصبحت مصر دوله اخشيدية فى عام ١٩٣٤. حققت مصر فى عهد محمد الإخشيدى التقدم والازدهار بعد أن قضى على الفتن الداخلية، ثم ضم بلاد الشام إلى حكمه، ويبسط نفوذه على مكة والمدينة، ويشرف بذلك على الحرمين الشريفين.

مات الإخشيد وتولى حكم مصر أبو المسك كافور، الذى استمرت ولايته ثلاثا وعشرين سنة حكم فيها باسم أبناء الإخشيد عدا سنتين انفرد فيهما بالحكم. بالرغم من تميز كافور بالفطنة والذكاء، إلا أن عصره كان عصر كوارث ومصائب أصابت مصر، إذ تعرضت البلاد لغارات القرامطة، وهزات الزلازل العنيفة، وغارات ملك النوبة، واشتعال الحدائق فى الفسطاط، وانخفاض مياه النيل. تولى أمر مصر بعد ذلك الحدث أبو الفوارس احمد حفيد الإخشيد، بوصاية الحسن بن طفج والى الشام، الذى أساء معاملة أهل مصر، فعم الاضطراب البلاد. انتهز الخليفة المعز لدين الله الفاطمى الفرصة فأرسل قائده جوهر الصقلى على رأس جيش استولى به على مصر عام ٩٦٩م، فأصبحت مصر ولاية فاطمية.

كان يطلق على الفاطميين فى صدر الإسلام اسم الشيعة، أو العلويين، أو آل البيت، أولاد على من فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه الصلاة والسلام. اختار الفاطميون شمال أفريقيا ليقيموا فيها دولتهم لمنافسة دولة العباسيين فى بغداد، ودولة الأمويين فى الأندلس. حاول الفاطميين فى خمس محاولات فى الأعوام ما بين ٩١٣ إلى ٩٣٣ م غزو مصر إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل، حتى كان الفتح على يد جوهر الصقلى. دانت مصر للفاطميين الذين أنشأوا فيها حضارة تباهى حضارة بغداد والأندلس ودمشق، ثم طلب جوهر الصقلى من الخليفة الفاطمى المعز لدين الله الحضور إلى مصر، فوصل مصر عام ٩٨٣م،

ودخل المعز القاهرة وافدا من تونس عن طريق الإسكندرية، وأصبحت القاهرة المركز الجديد للدولة الفاطمية. وصلت مصر فى عهد الفاطميين إلى درجة عالية من التقدم والازدهار، وارتفعت فيها العلوم والفنون، والآداب والعمارة، وأنشئت دار الحكمة التى حوت الآلاف من الكتب فى شتى العلوم والفنون، واللغة، والفلك، والكيمياء، والفلسفة، والطب. برز فى مصر أسماء كثيرة من الأطباء المسلمين والنصارى واليهود، فقد كان من سياسة الفاطميين التسامح مع أصحاب الديانات الغير إسلامية. كان من الأطباء النابغين أحمد بن محمد البلوى، وأبو عبد الله التميمى، وعلى بن رضوان، وأبو القاسم عمار، وموسى ابن العازار الإسرائيلى، ويوسف البطريق، وغيرهم. كما ظهر فى هذا العصر أيضا أبو على الحسن بن الهيثم الذى نشأ فى البصرة، ثم انتقل إلى مصر للإقامة بها، فألف الكثير من الكتب فى الرياضيات، وعلم الضوء وعلوم الفلسفة. برز فى مجال الفلك أبو الحسن المصرى، كما نشطت دراسة التاريخ من محمد بن يوسف الكندى، وأبو القاسم عبد الرحمن بن الحكم، والقضاعى، والمؤرخ القبطى ساويرس بن المقفع.

أسس الفاطميين مدينة القاهرة عام ٩٧٣م، وتم بناء الأزهر الشريف. أعلن المعز الحرب على الفساد، من التحلل الاجتماعى، وفساد خلقى، وغيرها من موبقات سادت مصر فى الأعوام الأخيرة من حكم الإخشيديين جاءت تسمية القاهرة من أنه عندما بدأ جوهر الصقلى فى بناء سور تمهيدا لتأسيس مدينة جديدة، جمع المنجمين وأمرهم أن يختاروا طالعا لحفر الأساس، فكان كوكب المريخ الذى كان يسمى القاهر هو الذى فى الطالع، فصاح المنجمين القاهر فى الطالع، فسميت المدينة الجديدة بالقاهرة. ويعزو آخرين اختيار هذا الاسم إلى مواقف وأسباب أخرى، ولكن القول الأول هو الأقوى والسائد. استمرت الدولة الفاطمية حتى عام ١١٧١م.

كانت الدولة الفاطمية ذات عظمة وأثر مازال قائماً حتى الزمن الحاضر، فهى التى أسست مدينة القاهرة المعزية، وباب زويلة، وباب النصر والفتوح، والجامع الأزهر، وجامع الحاكم، والجامع الأقمر، وهى التى أنشأت القصور والبساتين، ودور الكتب، وهى التى شجعت رجال العلم والأدب، ولكن بالرغم

من كل ذلك فقد سقطت الدولة الفاطمية عام ١١٧١م لأسباب عديدة منها استعانة حكام الفاطميين بمماليك الترك والديلم، والأرمن والصقالبة بدلا من العرب، مما ساعد على قيام الصراع بين الطوائف المختلفة، وكان هذا السبب هو الذي أضعف الدولة الأموية، وأنهى الدولة العباسية. من الأسباب الأخرى التي أدت إلى انهيار الدولة الفاطمية، عدم اختيار الحكام الأكفاء، حيث كان يتم البيعة إلى الأطفال مما سهل على الوزراء وأمراء الجيوش الاستبداد بالملك. أيضا تغالى الفاطميون في إحداث البدع، وخالفوا في بعضها جمهور المسلمين، ونبذتهم الممالك المجاورة، وعملت على محو دولتهم، واستقلت عنهم بعض أطراف بلادهم. قامت الحروب الصليبية أيام حكم الفاطميين مما أدى إلى ضعفهم، واشتداد المجاعات، وتفشي الطاعون. في أواخر أيام دولة الفاطميين، استعان بعض وزرائهم بالصليبيين لنصرتهم على أقرانهم، مما أوجب تدخل نور الدين في أمر مصر، وإرساله الجيوش مع أسد الدين شيركوه عامي ١١٦٤م، ١١٦٩م، وابن أخيه يوسف صلاح الدين إلى مصر فقضوا على الدولة الفاطمية. توفي شيركوه عام ١١٦٩م، وتم تولية صلاح الدين الأيوبي وزيرا في مصر للخليفة الفاطمي الشيعي العاضد آخر خلفاء الفاطميين، وعاملا للخليفة العباس نور الدين المقيم في دمشق.

ولد الناصر صلاح الدين بن يوسف بن أيوب، أو صلاح الدين الأيوبي في بلاد الكرد شمال بلاد الشام، والتحق بخدمة الخليفة العباسي نور الدين، ثم رافق عمه شيركوه في الحملتين إلى مصر. لما تولى صلاح الدين الوزارة عام ١١٦٩م، عمل على اجتذاب المصريين، وكسب حبهم، ليشتد بهم أزره في الانسلاخ من نور الدين، والتغلب على الفاطميين، وتكوين دولة مستقلة له بمصر. حارب صلاح الدين الصليبيين الذين أغاروا على دمياط وهزمهم، مما أضطرهم إلى الانسحاب إلى بيت المقدس، وغنم صلاح الدين الكثير من حروبه، فأحبه المصريين. أخذ صلاح الدين في تحصين مصر ليأمن شر غارات الأعداء، فشرع في بناء سور عظيم يضم الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة، ولكنه لن يتم بناءه بالكامل كما شيد صلاح الدين قلعته المشهورة ناحية المقطم.

أرسل صلاح الدين عدة جيوش إلى البلاد المجاورة لمصر، فى سواحل أفريقيا الشمالية والسودان، وبلاد الجزيرة العربية. عندما مات نور الدين، بسط صلاح الدين الأيوبى نفوذه على جميع الممالك الإسلامية وكون دولة واحدة عظيمة، تشمل مصر والسودان وبلاد الشام، وبلاد الجزيرة العربية والسواحل الإفريقية الشمالية، وضم إلى دولته شمالى العراق وبلاد كردستان. عندما توحدت كلمة المسلمين عمل صلاح الدين فى تنمية البلاد فبنى قناطر المياه الموصلة بين النيل والقلعة، وعمل على استئصال الصليبيين من الشرق.

هزم صلاح الدين جيوش الصليبيين فى معركة حطين، ثم توغل فى فلسطين وفتح عسقلان، وكثيرا من الحصون والمعاقل الصليبية، ثم نزل بجيوشه إلى بيت المقدس فى منتصف رجب من عام ٥٨٣ هجرية (عام ١١٨٧م)، لما أشرف الصليبيين على الهزيمة، اتفقوا مع صلاح الدين أن يسلموا إليه المدينة، ويخرجوا منها بأموالهم نظير الفدية، فقبل صلاح الدين، ولم يعاملهم بمثل ما عاملوا به المسلمين من فظائع عندما فتحوا المدينة وأخذوها من العرب المسلمين. فى عام ١١٨٨م، هادن صلاح الدين وإلى أنطاكية، وفتح الكرك، وجميع مدن ساحل البحر المتوسط شمالى صور. حاصر صلاح الدين عكا عام ١١٨٩م، وبقى الحال على ذلك سنة ونصف، إلى أن وفد على الشرق فيليب ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، بجيوشهم لمناصرة الصليبيين المقيمين فى الشرق، وتجددت الحروب بين صلاح الدين والصليبيين، إلى أن عقد صلاح الدين صلح مع ريتشارد بجهة الرملة، جاء فيه أن يكون بيت المقدس للمسلمين، على أن يسمح للمسيحيين حج بيت المقدس بدون ضريبة، وأن يبقى الساحل بين صور ويافا بأيدى الصليبيين.

توفى صلاح الدين الأيوبى عام ١١٩٣م، فخلفه فى حكم مصر ابنه عماد الدين، وحدث خلاف وحروب بينه وبين أخيه الأفضل ملك دمشق، فتولى أخو صلاح الدين، العادل سيف الدين أمر دمشق، ثم تولى حكم مصر بعد وفاة عماد الدين. تجددت الحروب الصليبية، أيام العادل فى بلاد الشام، ثم فى دمياط بمصر. استولى الصليبيين على دمياط عام ١٢١٨م، ومات العادل فى نفس العام، وتولى السلطان الملك الكامل، الذى حارب الصليبيين الذين زحفوا فى

اتجاه القاهرة عام ١٢٢١م، ولكن جيوش السلطان الكامل هزمتهم فى المنصورة شر هزيمة، رحلوا عن مصر فى سبتمبر من نفس العام. كان الكامل يحسن الإدارة والسياسة، فتقدمت مصر فى عهده كثيرا. تولى الحكم بعد الكامل ابنه الملك العادل، الذى كان يميل إلى اللهو، فخلعه الأمراء، وتولى الحكم أخو. الملك الصالح نجم الدين أيوب عام ١٢٣٩م، فكان من خيره السلاطين. دبر السلطان الملك الصالح المملكة المصرية أحسن تدبير، وأخمد الفتن، وبنى قلعة الروضة، وحشد فيها المماليك الذين دربهم ليكونوا غالبية جيشه. كان المماليك من عناصر مختلفة من الأتراك والمغول والصقالبة (الجنس السلافى الذى كان يعيش فى دولة البلقان فى شرق أوروبا) والأسبان والألمان والجراكسة وغيرهم، إلا أن غالبيتهم فى عصر دولة المماليك الأولى (المماليك البحرية) كانوا من بلاد القفجاق والقوقاز، على حين كانت معظم عناصرهم فى الدولة الثانية من الجراكسة.

تجدد الغزو الصليبى على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا عام ١٢٤٩م، فكانت فرصة للمماليك فى الدفاع عن العالم الإسلامى، فهزموا جيش الصليبيين، ثم استطاعوا بمساعدة المتطوعين المصريين القضاء تماما على الجيش الصليبى، وأسر لويس نفسه.

فى خضم الصراع ضد الصليبيين توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وقامت زوجته شجرة الدر بإدارة شئون الحكم والحرب بمساعدة كبار أمراء المماليك. حين تولى توران شاه عرش مصر، اصطدم بطموح شجرة الدر من ناحية، وبقوة المماليك البحرية من ناحية أخرى، إلى أن قتل بعد سبعين يوما من حكمه، وتولت العرش شجرة الدر عام ١٢٥٠م كان من الطبيعى أن يرفض الملوك الأيوبيين فى بلاد الشام الاعتراف بشرعية حكم سلاطين المماليك، كما أن المماليك أدركوا عدم شرعية حكمهم، فاتفق المماليك أن يولوا الأشرف موسى الملك، وكان عمره ثمانى سنوات، وجعلوا عز الدين أيبك أحد مماليك الصالح قيما عليه، فتزوج أيبك من شجرة الدر، ثم خلع الأشرف من الملك واستبد به، وعليه انتهت دولة الأيوبيين عام ١٢٥٠م لتبدأ دولة المماليك الأولى. كان من أسباب انهيار الدولة الأيوبية تقسيم صلاح الدين لمملكته الممتدة

إلى معظم بلاد العرب الإسلامية بين اخوته وأقاربه، فتنافسوا، وتباغضوا، وتعدى بعضهم على بعض، فتفككت عصبيتهم، وضعف بأسهم. أيضا كان الاستعانة بالمماليك والتنازل لهم عن كل شئ فى الدولة حتى فى تدبير القصر، كان من أهم أسباب وثب المماليك على حكم مصر، ثم إلى باقى البلاد العربية.

قتلت شجرة الدر السلطان أيبك أول سلطان مملوكى عام ١٢٥٧م، فقامت زوجة أيبك الأولى بقتل شجرة الدر، وتولى الحكم ابن أيبك الذى كان لا يزيد عمره عن إحدى عشر سنة، فقام بأمر الدولة سيف الدين قطز. فى عام ١٢٥٨م سقطت بغداد فى يد التتار، وزالت الخلافة العربية، فأفتى قضاة مصر بخلع السلطان الصبى، وولوا قطز حكم مصر، ولقب بالملك المظفر. جمع قطز المماليك تحت رايته، والتقى جيشه مع جحافل التتار فى عين جالوت بفلسطين، ثم لاقاهم فى بيسان، فأنتصر عليهم، لحسن قيادة الأمير المملوكى ركن الدين بيبرس، الذى طاردهم حتى أخرجهم من دمشق وحلب، وانتزع أكثر إمارات الشام من أيدى بنى أيوب، فوعده قطز بولاية حلب، ثم أخلف وعده، فقتله بيبرس وهم عائدون إلى مصر، واختار المماليك بيبرس سلطانا على مصر عام ١٢٦٠م.

بدأ بيبرس بتنظيم أمور الدولة وإصلاح الجيش، وإنشاء الأساطيل، فكان بوضع أنظمته الملكية المؤسس الحقيقى لدولتى المماليك اللتين استمرتا ٢٦٧عاما، بالرغم من تشاحنهم وتنازعهم. حارب بيبرس التتار لمدة عشر سنوات (١٢٦١-١٢٧١م)، شتت فيها شملهم، وهدم مراكزهم فى يافا وإنطاكية، ثم أخضع قبائل الباطنية من الإسماعيلية النازلين بلاد الشام بعد أن كانوا آفة على ملوك مصر منذ أيام صلاح الدين الأيوبى. هاجم بيبرس التتار فى آسيا الصغرى وهزمهم، وتولى عرش قيصرية التى كانت تابعة لإمبراطورية الروم. أرسل بيبرس بعد ذلك جيشا إلى بلاد النوبة عام ١٢٧٥م، فأخضع أهلها إلى حكمه، وأعاد تحصيل الجزية. مات بيبرس عام ١٢٧٧م بعد أن بلغت مصر فى عهده أوج درجات المجد.

سنتان تولى فيهما اثنان من أبناء بيبرس الملك، ثم تولى السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الملك عام ١٢٧٩م، حتى وفاته عام ١٢٩٠م،

عقد أثناء حكمه هدنة مع الصليبيين، وحارب التتار فى حمص ببلاد الشام وهزمهم. خلف قلاوون ابنه الأشرف خليل، الذى فتح عكا عام ١٢٩٢م، وكانت آخر مدينة حصينة بقيت فى أيدى الصليبيين، ثم سقطت باقى مدن الصليبيين، وبذلك انتهى وجودهم فى بلاد الشام. فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون أغار التتار على بلاد الشام عام ١٣٠٠م، وهزموا المماليك واستولوا على دمشق، إلا أن المسلمين هزموهم فى موقعة فاصلة بالقرب من دمشق عام ١٣٠٣م، وأسروا منهم عشرة آلاف. كان السلطان حسن آخر سلاطين المماليك البحرية، التى انتهى عصرهم عام ١٣٨٢م، ليتولى الملك بعدهم المماليك الشراكسة.

أن كان أصل معظم المماليك البحرية من بلاد الترك، فأن المماليك الشراكسة أو المماليك البرجية من أصل شركسى، والذى أكثر من شرائهم وجعلهم فى أبراج القلعة (فسموا البرجية) المنصور قلاوون. لم يكن الملك فى دولة المماليك الشراكسة وراثيا، بل كان استيلاء الملك على الدولة قائما على شهرته الحربية، وعلاقاته بزملائه من الأمراء. كان عدد ملوكهم ثلاثة وعشرون. أشهرهم الملك الظاهر سيف الدين برقوق، والأشرف برسباى، والأشرف قايتباى، والسلطان الأشرف قانصوه الغورى، وآخر سلاطين المماليك الشراكسة طومان باى، والذى توفى عام ١٥١٧م، لتصبح مصر ولاية عثمانية. كان لكثير من ملوك دولة المماليك الشراكسة اهتماما بالعلوم، واشتهروا بالتنافس فى بناء القصور والمساجد والمدارس والسبل وغير ذلك من المعاهد الخيرية. إلا أنهم كانوا يميلون إلى الظلم والاستبداد، والبذخ والإسراف، والخلاعة والمجون، فأثقلوا كاهل أهل مصر بالضرائب، وانتشر الخلل فى عهدهم إلى جميع فروع الحكومة، وكثرت الثورات والفتن، بالرغم من ذلك كانوا على الأجنبى يدا واحدة، فحفظوا البلاد من الغارات الأجنبية نحو قرن ونصف من الزمان، فحاربوا التتار بقيادة تيمور لنك فى بلاد الشام قبل نهاية القرن الرابع عشر، وأرسلوا أسطولا إلى جزيرة قبرص لتأديب القراصنة الذين كانوا يغيرون على مصر، واستولى المماليك فى عهد برسباى على قبرص، وجلبوا الكثير من سكان الجزيرة لبيعهم فى أسواق الرقيق بالقاهرة.

تألفت الإمارة العثمانية فى النصف الأول من القرن الرابع عشر، من مقاطعات وولايات واقعة على سواحل بحر مرمرة الجنوبية. نجح السلطان عثمان، التركى المسلم، فى توحيدها لتصبح بعد ذلك إمبراطورية عظمى ترث الإمبراطورية البيزنطية. فى عام ١٥١٢م، تولى السلطان سليم خان الأول حكم الدولة العثمانية، وكان مولعا بالحروب، شديد الرغبة فى توسيع نطاق الدولة العثمانية، فاتهم السلطان الغورى ملك مصر بأنه يأوى العصاة والفارين من الفرس، أعداء الدولة العثمانية. أدرك الغورى نيات السلطان سليم، فخرج بجيشه إلى الشام، والتقى الجيشان فى مرج دابق شمال حلب عام ١٥١٦م. هزم العثمانيين جيوش المماليك، وقتل السلطان الغورى، وأخذ السلطان سليم بلاد الشام بدون مقاومة، وزحف على مصر. ولى المماليك عليهم السلطان طومان باى، الذى حشد جنوده، والتقى مع السلطان سليم بالعباسية (الريدانية سابقا)، فانهزم طومان باى، ودخل السلطان سليم القاهرة، وفر طومان باى، ثم قبض عليه سليم وصلبه على باب زويلة. بموت طومان باى انتهت دولة المماليك الشراكسة عام ١٥١٧م، وصارت مصر ولاية عثمانية، وتنازل الخليفة العباسى عن الخلافة لسلاطين العثمانيين.

أقام السلطان سليم فى مصر نحو ثمانية أشهر ما بين بولاق والجزيرة الوسطى، ثم القلعة، ثم مدينة الجيزة وإمبابة، ثم أقام فى جزيرة الروضة. شن سليم الأول الأنظمة الإدارية لدواوين الحكم فى مصر، ونقل إلى القسطنطينية، أكثر ما فى القلعة ومنازل الأمراء والسلاطين من النفائس والذخائر، والكتب والوثائق. نفى سليم من مصر إلى القسطنطينية كل أبناء السلاطين والأمراء، ثم أمر بجمع رؤساء الصناعات المشهورين من كل الطوائف، فجمع نحو ألف صانع، فأمر بنقلهم إلى الأستانة ليعلموا الصناع العثمانيين الصناعات الدقيقة التى برع فيها المصريون واختار السلطان سليم أكبر وزرائه (يونس باشا) واليا على مصر، ثم ولى (خير بك) كأول والى من قبل العثمانيين فى مصر.

أدت كثرة تنقل ولاة العثمانيين إلى عدم تثبيت نفوذهم فى مصر، فعاد المماليك فى أوائل القرن الثامن عشر باسترجاع قوتهم ونفوذهم. ساعد المماليك فى القبض على السلطة، اتحادهم لاختيار زعيما من بينهم ليكون حاكم القاهرة، والمسمى فى ذلك الوقت (شيخ البلد).

لقد استمر جلب المماليك حتى فى عصر العثمانيين، وكان المماليك الذين يشترون بالمال يعتقون عادة بعد عدة أعوام. انتبه الولاة العثمانيين إلى قوة المماليك، فعملوا على الوقيعة بينهم، لتفريق كلمتهم، ونجح الولاة إلى حد ما فى الوقيعة ما بين المماليك بعضهم البعض. قويت شوكة المماليك فى عهد على بك الكبير الذى تولى شياخة البلد أو حاكم القاهرة عام ١٧٦٣م، بعد أن انتصر على شيخ البلد خليل بك. جمع على بك الكبير المماليك حوله، وأثار حميتهم، وذكرهم بمجد سلاطين المماليك القدامى، ثم خلع الباشا والى العثمانيين من مصر، منتهزا فرصة انشغال الدولة العثمانية بمحاربة روسيا، وأعلن على بك الكبير استقلال مصر، وامتنع عن دفع الجزية للباب العالى عام ١٧٦٩م، ثم أرسل جيشا لفتح بلاد العرب، فاستولى على جدة لتكون مركزا للتجارة مع الهند، ثم أخضع باقى جزيرة العرب إلى حكمه، ثم توجه إلى بلاد الشام لفتحها، وأرسل جيشا بقيادة محمد بك أبو الدهب إلى بلاد الشام، فاستولى أبو الدهب على كثير من مدن الشام.

تآمر أبو الدهب على سيده، وحارب على بك الكبير وهزمه، كافأ الباب العالى العثمانى أبو الذهب على ذلك فمنحه لقب باشا، وولاه حكم مصر عام ١٧٧٢م بعد موت على بك الكبير. مات أبو الدهب بعد ذلك بعامين فتولى حكم مصر اثنان من المماليك هما إبراهيم بك ومراد بك. أرسلت الدولة العثمانية حملة على مصر عام ١٧٨٦م، فاستولت على القاهرة بعد قتال المماليك وفر إبراهيم ومراد إلى الصعيد. عهد العثمانيون بشياخة البلد لأحد بكوات المماليك المدعو إسماعيل بك. فى عام ١٧٩٠م حدث وباء شديد فى مصر، فعاد إبراهيم بك ومراد بك لابتزاز أموال الشعب، خاصة التجار والأجانب، فكثرت شكاوى الأجانب الفرنجة إلى دولهم، فكان ذلك ذريعة لإرسال الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨م والتى استمرت حتى عام ١٨٠١م.

كان من أهم أسباب الحملة الفرنسية على مصر، رغبة فرنسا فى السيطرة على البحر المتوسط، وضم مصر لنفوذ فرنسا لما فيها من خيرات كثيرة، والتمهيد لقهر الإنجليز بطردهم من الهند، حيث أن موقع مصر الجغرافى يعتبر مفتاح الطريق إلى بلاد الشرق. وصلت الأساطيل الفرنسية أمام

ميناء الإسكندرية أول يوليو عام ١٧٩٨م، وبعد أن أرسل نابليون رسولا إلى أهل الإسكندرية يبلغهم بأن فرنسا لا تقصد سوءا بالمماليك، وأنها تحرص على مودة أهل البلد، فاستسلم كبير الإسكندرية السيد محمد كريم، لقلة ذخيرته، وحقنا للدماء بعد أن أمطر أهل الإسكندرية القوات الفرنسية بالمقذوفات عندما اخترقت هذه القوات شوارع الإسكندرية الضيقة وحدث قتال بين القوات الفرنسية وأهل الإسكندرية. ترك نابليون قائده كليبر في الإسكندرية وزحف نحو القاهرة، وتقابل الأسطولين الفرنسي والمملوكي في شبراخيت، وانهزم مراد بك وتقهقر إلى القاهرة. شرع إبراهيم بك في تحصين بولاق بمساعدة المصريين. واستعد مراد بك للقاء نابليون في بلدة انبابه (إمبابة)، وهناك رأى نابليون الأهرام، وقال كلمته المشهورة، حاثا جنوده على القتال: (أيها الجند، إن أربعين قرنا تنظر إليكم من قمة هذه الأهرامات). هزم نابليون جيوش المماليك، وفر مراد بك إلى الصعيد بعد حمل ما غلى ثمنه وخف وزنه، ثم فر بعد ذلك إبراهيم بك بعد أن علم بهزيمة مراد بك. اجتمع علماء القاهرة بالجامع الأزهر ليتداولوا الأمر، وكان قرارهم تسليم القاهرة للقوات الفرنسية. ذهب وفد من الأعيان لمقابلة نابليون الذى أحسن استقبالهم مؤكدا صداقته للمصريين، وانه جاء فقط لتخليصهم من نير حكم المماليك.

لما استتبت الأمور لنابليون في مصر، بدأ في عمل الإصلاحات، ونقل بعض أمور الإدارة والحضارة الفرنسية إلى مصر، فأمر بتشكيل مجلس نيابى، وأمر الأهالى بكنس الشوارع، ووضع مصابيح في المنازل. أحضر نابليون معه إلى مصر نحو مائة من علماء فرنسا الملمين بالفنون والعلوم. أخذ العلماء دراسة جميع ما في مصر من آثار ونبات وحيوان ومعادن، ودرسوا شق ترعة بين البحرين المتوسط والأحمر، كما أن علماء الحملة الفرنسية عثروا على حجر رشيد الذى كان له الفضل في كشف طلاسم اللغة الهيروغليفية والتعرف على أسرار مصر الفرعونية.

قامت معركة حربية في خليج أبو قير، بين الاسطولين الفرنسي، والبريطاني، بقيادة نلسون، انتهت بتدمير الأسطول الفرنسي. قامت ثورة أهلية على الفرنسيين بعد نزولهم مصر بحوالى شهرين، لقتل الفرنسيين محمد كريم

حاكم الإسكندرية، وغلوهم في فرض الضرائب، وهدم بعض المساجد لتحصين القاهرة. كانت هزيمة الفرنسيين في معركة أبو قير البحرية، وإرسال الباب العالي العثماني جيشا لمصر حافزا للثوار الذين قتلوا كثيرا من الفرنسيين.

استطاع نابليون بالحيلة إخماد ثورة المصريين، ودخلت بعض من قواته الأزهر الشريف بخيولهم، فاستاء الشعب المصري وكاد أن تلتهب الثورة مرة ثانية. صد نابليون غارات العثمانيين في الشام، وحاصر عكا وحاول دخولها ولكنه فشل لحسن دفاع حاكمها احمد باشا الجزار، ومساعدة الأسطول البريطاني لحاكم عكا. غادر نابليون سرا الأراضي المصرية في أغسطس ١٧٩٩م، وتولى كليبر قيادة القوات الفرنسية، والذي قتل بعد ذلك بحوالي سنة. أرسل العثمانيين حملة أخرى من الأهالي المصريين على القوات الفرنسية. تولى مينو القيادة بعد مقتل كليبر. تظاهر مينو باعتناق الإسلام وتزوج من مصرية.

في شهر فبراير ١٨٠١م أرسلت بريطانيا أسطولا إلى ميناء الإسكندرية، وانضم إلى القوات البريطانية، القوات التركية التي أرسلتها الدولة العثمانية. قامت معارك بين الفريقين في أبو قير والإسكندرية. لما زحفت القوات البريطانية والعثمانية نحو القاهرة، عرض الفرنسيين الصلح على أن تخرج القوات الفرنسية من مصر على نفقة الحكومة البريطانية. خرجت الحملة الفرنسية من مصر في سبتمبر ١٨٠١م، ودخلت القوات العثمانية وبعض رجال الجيش البريطاني إلى مصر، ومعهم من أمراء مصر إبراهيم بك الكبير والبرديسي والألفي وعمر مكرم، ففرح الشعب المصري لخلاصهم من الفرنسيين.

رافق محمد على الألباني الأصل قوات الحملة العثمانية لطرد الفرنسيين من مصر، فنال إعجاب قائده التركي، والقادة الإنجليز لما آتاه من شجاعة أثناء المعارك التي دارت مع القوات الفرنسية، فتم ترقيته إلى رتبة قائد في الجيش. أراد المماليك الاستقلال بمصر، وبدأ النزاع بينهم وبين الباب العالي العثماني. استغل محمد على هذه الخلافات، وكذلك تأخر رواتب العساكر الترك، الذين

ثاروا وحاصروا الخزانة المصرية، ونهبوا وسلبوا القاهرة، فاعتصم بالقلعة خسرو باشا الوالى الجديد على الديار المصرية. بعد ذلك هرب خسرو باشا إلى دمياط، وتولى أمور مصر طاهر باشا قائد فرقة الألبانيين، فوقع فى نفس مشكلة عدم دفع رواتب الجنود الترك. اغتيل طاهر باشا من بعض الضباط الترك. بعد هروب خسرو باشا ومقتل طاهر تولى محمد على رئاسة القوات العثمانية وفقا لرتبته العسكرية، كما أن محمد على كان محبوبا من رجال الدين والأهالى، لما كان يبديه من العطف عليهم. رأى محمد على أنه من الحكمة أن ينضم إلى عثمان بك البرديسى، فتحالف معه، ونصبا إبراهيم بك الكبير نائبا عن الوالى العثمانى فى مصر. بعد كثير من الأحداث والنزاع بين المماليك وولاة الباب العالى العثمانى فى مصر، وبفضل ذكاء وحيلة محمد على، اجتمع علماء مصر من رجال دين ووجهاؤها برياسة الشيخ الشرقاوى والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف، وأقاموا محمد على واليا على مصر علم السلطان العثمانى عن مدى ميل المصريين إلى محمد على، فوافق على تنصيبه واليا على مصر فى شهر يوليو من عام ١٨٠٥م لتبدأ أحقبة أخرى من تاريخ مصر الحديث.

أرسلت بريطانيا حملة إلى مصر عام ١٨٠٧م لتأييد المماليك فقضى عليها محمد على، ثم حارب المماليك فى أسيوط عام ١٨١٠م، قام محمد على بالتخلص من المماليك نهائيا فى مذبحة القلعة فى مارس ١٨١١م. فى نفس العام وبتكليف من الباب العالى، جهز محمد على جيشا من الألبانيين بقيادة ابنه طوسون، لغزو بلاد العرب، والقضاء على الحركة الوهابية، وإرجاع سلطة الدولة العثمانية على الحرمين الشريفين. فشل طوسون فى حملته فقرر محمد على أن يتولى قيادة جيشه ى الجزيرة العربية بنفسه. هزمت قوات محمد على الوهابيين فى معركة عند (بيصل) عام ١٨١٥م، ثم اضطر للرجوع إلى مصر لما عرف بهروب نابليون من منفاه، وتوقع احتمال غزو الترك للبلاد المصرية. أعاد محمد على الحملة مرة أخرى على الوهابيين عام ١٨١٦م، بقيادة ابنه إبراهيم بعد وفاة طوسون. ونجح إبراهيم فى القضاء على سلطة الوهابيين بعد عامين قضاها مع جيشه فى الأراضى العربية.

بعد أن قضى محمد على على الوهابيين، اتجه جنوبا إلى السودان لضمها إلى نفوذه، وذلك لأسباب سياسية من مطاردة المماليك الفارين من مصر إلى السودان، واستبدال الجنود الألبان المنشقين بجنود من السودان. أما الأسباب الأخرى فهى مادية، لتوسيع نطاق التجارة بين البلدين، وفتح مورد جديد للخزانة المصرية من فرض الضرائب على هذه التجارة. سارت الحملة المصرية إلى السودان فى عام ١٨٢٠م بقيادة إسماعيل اصغر أبناء محمد على، حيث استسلم بعض المماليك، وتشتت البعض الآخر. عندما تفشى المرض فى جيش إسماعيل، أرسل محمد على المدد إليه بقيادة إبراهيم، ثم جيشا ثالثا بقيادة صهره محمد الدفتر دار. حققت حملة السودان أهدافها السياسية، ولكنها لم تنجح ماديا.

نشبت ثورة فى بلاد اليونان، فعين الباب العالى محمد على واليا على جزيرة اقريطس ببلاد اليونان فوق ولايته لمصر، واصدر إليه الأوامر بإخماد الثورة، فأرسل ابنه إبراهيم فهزم الثوار فى عام ١٨٢٣م. وفى عام ١٨٢٤م جعله السلطان العثمانى والى على بلاد الموره لإخضاعها للسلطان العثمانى، فتم له ذلك فى عام ١٨٢٥م. تكررت حملات الأسطول المصرى إلى بلاد اليونان، ولولا تدخل بريطانيا وفرنسا وروسيا، ما كانت قوات محمد على بقيادة إبراهيم باشا أن تخلت عن المواقع التى احتلتها فى بلاد اليونان عام ١٨٢٩م.

امتدت غزوات محمد على إلى بلاد الشام، ففى عام ١٨٣١م زحف الجيش المصرى إلى بلاد الشام واستولى على غزة ويافا بدون مقاومة، وتقابل الجيش البرى المصرى مع الأسطول المصرى فى يافا، ثم زحف إبراهيم باشا إلى عكا واستولى عليها عام ١٨٣٢م.

سارت جيوش إبراهيم باشا نحو دمشق، فسلمت إليه بدون مقاومة، ثم إلى حمص فاستولى عليها بعد أن هزم الجيش العثمانى الذى أرسله الباب العالى بعد أن اصدر قرار بعزل محمد على عن الديار المصرية وجزيرة اقريطس. دخل إبراهيم باشا حلب بدون مقاومة، ثم اقتفى اثر الجيش التركى، فهاجمه وشتت شمله، وبذلك استولى إبراهيم باشا على كل بلاد سوريا. طلب إبراهيم من والده المدد لمواصلة القتال والزحف، فلما وصله المدد تقدم إلى (قونيه)،

وحارب الجيش العثماني وهزمه في موقعة (قونية) داخل الأراضي التركية - جنوب انقرة عام ١٨٣٢م. انتشر صيت إبراهيم في بلاد آسيا الصغرى، وفرحوا بانتصارات إبراهيم الذى تقدم بجيشه الى كوتاهية جنوب غرب انقرة، وهدد العثمانيين فى عقر دارهم، وطالب الباب العالى العثمانى من محمد على الصلح فلم يوافق محمد على بأقل من ولايته على سوريا، وولاية اطنة - شمال حلب، وتدخلت روسيا تلتمس من محمد على ايقاف إبراهيم عن الزحف على الأستانة. لما احتل إبراهيم (كوتاهيـة) عام ١٨٣٣م، اضطر الباب العالى إلى طلب المساعدة من روسيا رسميا، فأرسلت إليه روسيا جيشا، وأقلق تدخل الروس فرنسا وبريطانيا، وشددت على الباب العالى للاتفاق مع محمد على، فأبرم معاهدة (كوتاهية) فى مايو ١٨٣٣م، والتى تنص على أن يتولى محمد على الولاية على بلاد سوريا، وجعل إبراهيم باشا محصلا لولاية أطنة.

ثار أهالى الشام على إبراهيم باشا عام ١٨٣٥م، كرد فعل للضريبة التى فرضت، والتجنيد الإجبارى، ونزع سلاح الأهالى، ثم قامت الحرب بين قوات محمد على، والقوات العثمانية عام ١٨٣٩م، وانتصر محمد على. تدخلت إنجلترا وفرنسا وروسيا لحل المشكلة التركية المصرية، ثم انحازت روسيا وبروسيا والنمسا وإنجلترا لجانب الدولة العثمانية، وأرسلوا جيوشهم لمحاربة جيش إبراهيم باشا فى بلاد الشام عام ١٨٤٠م.

انهزمت قوات محمد على أمام جيوش الحلفاء، وأظهر خضوعه لسيادة الباب العالى، على أن يمنح محمد على ولاية مصر وراثية، وتكون الولاية لمن يختاره الباب العالى من أولاد محمد على الذكور، ونص فرمان فبراير ١٨٤١م على بنود أخرى خاصة بالضرائب وعدد الجيش المصرى وبعض المواد الأخرى. انكمش محمد على فى ولاية مصر، وحرمته الدول الأوربية والدولة العثمانية من مكاسب فتوحاته التى اكتسبها بدماء المصريين.

نهض محمد على بالدولة المصرية، بإدخال الإصلاحات الغربية، واهتم بالزراعة، وأدخل زراعة القطن وبعض المحاصيل الأخرى فى الأراضى المصرية. كما شجع الصناعات الوطنية، حتى يتسنى له صنع كل ما يحتاج إليه من

لوازم الجيش ومعدات الأسطول، وأنشأ معامل الغزل ونسج القطن والحرير والكتان والصوف، وأسس مصانع للمنسوجات، ومعامل للسكر في الصعيد، حفر ترعة المحمودية، وأصلح مرفأ الإسكندرية، وأنشأ القناطر الخيرية، قام محمد على بتعميق الترع، وإقامة السدود اهتم محمد على بالتعليم، بعد أن ساد الجهل في عهد المماليك، فأسس المدارس الأولية، والمتخصصة في مجالات الطب البيطري، والفنون والصنائع، وتعليم اللغات، والهندسة، والموسيقى، كما اهتم بالتعليم الزراعي. أرسل محمد على عددا كبيرا من الشبان المصريين إلى ممالك أوروبا وخصوصا فرنسا لتلقى العلوم بها. شجع محمد على العلماء الغربيين الذين وفدوا على مصر لدراسة تاريخ الآثار المصرية، فاستطاع الفرنسى شامبليون عام ١٨٢١م فك رموز اللغة الهيروغليفية. قام محمد على بتنظيم الجيش بعد أن أقصى القوات الألبانية عن القاهرة، وأسس مدرسة لتعليم النظام الحربي في أسوان، وعهد بها إلى الفرنسي الذى اعتنق الإسلام سليمان باشا الفرنساوى، ثم أسس مدرسة للعساكر المشاة، وأنشأ فرقة خاصة بالمدفعية، ورفع من إعداد الجيش المصرى ومن ذخيرتهم وعتادهم، وحول جزءا كبيرا من قلعة الجبل إلى دار للصناعة يعمل بها مئات من المصريين في صب المدافع، وصنع معدات الجنود والذخيرة، وكل ما يلزمهم. أنشأ محمد على أول أسطولاً مصرياً حديثاً لنقل الجنود المصريين إلى بلاد العرب أيام حربه مع الوهابيين، وأسس دار صناعة بحرية بالإسكندرية. حقا لقد كان محمد على هو بانى مصر الحديثة التى لولا تدخل دول أوروبا لكبح طموحه لأصبحت مصر دولة عظمى تضاهى الدول الأوربية المتقدمة في ذلك الوقت .

قبل وفاة محمد على، وفى سنوات شيخوخته الأخيرة، تولى ابنه إبراهيم باشا ولاية مصر، ثم توفى إبراهيم باشا عام ١٨٤٨ م، أى قبل وفاة محمد على، فتولى ولاية مصر عباس باشا ابن طوسون بن محمد على في عام ١٨٤٨م، وانزوت مصر فى طى النسيان، لان ذريته لم يصلوا حتى إلى جزء من صفات محمد على العديدة والتى رفعته إلى مصاف الرجال العظام، ولكن في عهد الخديوى إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩م)، تم إصلاح القضاء واستقل عن الإدارة، ونشر العدل، وتم الاهتمام بالتربية والتعليم، وأنشأت دار الكتب ودار الآثار المصرية، ومنع تجارة الرقيق.

إذا كان محمد على قد سار بالبلاد فى سبيل الحكم الدستورى، فان من جاء بعده قد محا ما أنشأه من علم، الى أن جاء الخديوى إسماعيل، فأعاد مجلس الشورى وسماه مجلس شورى النواب، فبدأ أول حكم نيابى فى ممالك الشرق. اهتم إسماعيل أيضا بالزراعة والأشغال العامة، فأقام الطرق الزراعية، وشيد القصور العديدة والمبانى الضخمة، وفى عهده زادت مساحة الأراضى الزراعية بنسبة ٣٠٪.

كان فردناند ديلسبس سفيرا لفرنسا فى عهد محمد على، وكان يخطط لتأسيس شركة لحفر قناة السويس تصل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر. وافق سعيد باشا على تأسيس الشركة وحفر قناة السويس فى عام ١٨٥٦م. ثم بدأ العمل فى حفر القناة عام ١٨٥٩م، وتم الاحتفال بافتتاحها فى نوفمبر ١٨٦٩م، فى عهد الخديوى إسماعيل. فى عام ١٨٨١ م تذمر بعض الضباط المصريين بزعامة على فهمى، وأحمد عرابى، وعبد العال حلمى، حيث كان الاستياء يتفشى فى الجيش المصرى لان معظم الترقى بين ضباطه كان قاصرا على الأتراك والشراكسة.

فى سبتمبر ١٨٨١م سار عرابى بقوات من الجيش إلى قصر عابدين، لمطالبة الخديوى توفيق بمطالب الثوار من الضباط المصريين. بعد مطالب عرابى، رأت فرنسا وإنجلترا وجوب بسط إشرافهما على مصر. فى أوائل صيف عام ١٨٨٢م وصل الأسطول الإنجليزى الفرنسى إلى مياه الإسكندرية. حدث فى هذا الوقت أن تشاجر رجل مالطى ثمل مع مصرى فى الإسكندرية لامتناع المالطى دفع الأجر الكافى نظير ركوب حمار المكارى المصرى. طعن المالطى المكارى المصرى بمدية، فهاج بعض الرعاع من الأهالى وأرادوا أن يثأروا من الأوربيين، ولاسيما أن حوادث الحركة العرابية كانت قد أوغرت صدور المصريين ضد الأجانب، وقام نزاع وإطلاق نيران بين الأهالى المصريين والأجانب. امتنع الأسطول الفرنسى عن ضرب مدينة الإسكندرية بالمدافع، فعمل الأسطول الإنجليزى منفردا فى دك المدينة فى شهر يوليو من عام ١٨٨٢م. عسكر عرابى بقواته جهة كفر الدوار. لما وجد الإنجليز أن موقع عرابى حصينا دخلوا مصر من جهة قناة السويس. أراد عرابى هدم قناة

السويس، ولكن ديلسبس وعد عرابي بمنع مرور السفن الحربية الإنجليزية، فانخدع عرابي ولم يردم القناة. نزلت القوات الإنجليزية أرض مصر عن طريق القناة، وكانت موقعة التل الكبير المشهورة بين القوات الإنجليزية وقوات عرابي في سبتمبر ١٨٨٢م، ولم تدم الواقعة أكثر من عشرين دقيقة انتهت بتبديد الإنجليز لجيش احمد عرابي، ثم سار الإنجليز إلى القاهرة فدخلوها بلا مقاومة في ١٥ سبتمبر ١٨٨٢م، وهكذا احتلت مصر في القرن التاسع عشر.

قويت الحركات الوطنية في مصر في أواخر القرن التاسع عشر، وظهر مصطفى كامل بصدق وطنيته وجرأته، وفصاحته، وأسس الحزب الوطني المصري، كما ظهر رفيقه محمد فريد والذي تولى المسيرة من بعده. ظهر الاحتلال في أكمل صورة في نظام الحماية التي بسطت على مصر في ١٩١٤/١٢/١٩، وظهرت الحركة الوطنية في أكمل صورة في ثورة ١٩١٩، وما إليها من إرسال وفد مصري برياسة زعيم الأمة سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية المنتخب نائبا عن جميع طبقات الأمة للدفاع عن حقوق مصر أمام مؤتمر السلام الذي أعقب الحرب العالمية الأولى. في مارس ١٩١٩ نفي سعد زغلول وثلاثة من زملائه أعضاء الوفد إلى مالطا، فثار الشعب المصري. لم تتوقع إنجلترا أن يثور الشعب المصري الهادئ، الوديع، الصبور، وان تكون ثورته بهذه العزيمة، وهذه الجرأة، في وقت خرجت فيه إنجلترا منتصرة من الحرب. رأت الحكومة البريطانية بعد تعاقب الحوادث أن سياسة قمع الثورة بالقوة لا تؤدي إلى إخماد الثورة، بل تزيد من نار العداوة للإنجليز، فأفرجت عن سعد زغلول وصحبه، ودعت بريطانيا مصر للدخول في مفاوضات. إذا كانت الثورة قد انتهت في إبريل ١٩٢١، فإن روحها ظلت تؤثر في تطور الأحداث، حتى اعترفت إنجلترا باستقلال مصر وإلغاء الحماية في تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، فتولى المصريين مقاليد الحكم، وترك بعض المستشارين وكثيرين من رؤساء المصالح الإنجليز والأجانب في خدمة الحكومة المصرية.

في ٢٣ فبراير ١٩٥٢ قامت ثورة الجيش، وفي ٢٦ يوليو تم عزل الملك فاروق ملك مصر والسودان، الذي تنازل عن العرش لابنه الأمير أحمد فؤاد، وغادر فاروق مع أسرته مصر في نفس اليوم بالبحر متجها إلى ايطاليا.

ثم أعلنت الجمهورية فى ١٨ يونيو من عام ١٩٥٣، وعين اللـواء محمـد نجيب كأول رئيس للجمهورية، وبذلك انتهى عهد أسرة محمـد علـى، ليبـدأ عهـد جديـد فى تاريخ مصر.

اليهود فى مصر الحديثة

عاشت الجاليات اليهودية فى مصـر فـى منـاخ مـن الحريـة والاسـتقرار حتى إنشاء دولة إسرائيل ثم ثورة يوليو ١٩٥٢. بدأت علاقة العـبرانيين بمصـر منذ قدوم أبـو الأنبيـاء إلـى مصـر مـع زوجتـه سـارة منذ حوالـى ٤٠٠٠ سنة. تجددت علاقة بنى إسرائيل بمصر، عندما طلب يوسف من اخوته إحضار أبـوه يعقوب للاستقرار فى مصر، فمكثوا فيها نحو أربعمائة عام حتى كان الخروج منها على يد موسى عليه السلام. قد يكون بعـض اليهـود قـد فضلـوا البقـاء فـى مصر فى منطقة الفيوم بعد خروج موسى ببنى إسرائيل. ذهب بعض المؤرخيـن إلى وجود طائفة يهودية فى مصر فى القرن السادس قبل الميـلاد، حيـث اسـتقر بعضهم فى مدن الدلتا، وفى جزيرة اليفانيتن بمصر العليا. هـاجر بعـض اليهـود إلى مصر بعد فتح الإسكندر الأكبر بـلاد الشـام عـام ٣٣٢ ق. م، وشـجع حـاكم مصر بطليموس الأول اليهـود علـى الاسـتقرار فـى مدينـة الإسـكندرية. بعـد أن سقطت أورشليم فى يد الرومان عام ٦٣ ميلاديـا، أرسـلوا الآلاف مـن الأسـرى اليهود إلى مصر. فى فترة الفتح الإسلامى لمصر فـى القـرن السـابع الميـلادى، شـهدت الطائفـة اليهوديـة بعـض الازدهـار، وانتقـل كثـير منهـم إلــى الفسـطاط العاصمة الإسلامية لمصر. فى عصر العثمانيين تمتـع الكثـير مـن اليهـود بنظـام الامتيازات، وتحقق للطائفة اليهودية نوع من الاستقلال الذاتى من الناحية الدينية والإدارية، وكان الحاخام باشى فى الاسطنبول يمثل كل يهود الإمبراطورية أمام الباب العالى. فى هذه الفترة بـدأت موجـات مـن الهجـرة اليهوديـة، مـن مختلف أرجاء الإمبراطورية العثمانية، ومن دول أوربا، خاصة من اليونان وإيطاليا اثر اندلاع الحرب التركية اليونانية عام ١٨٢١، وبلغت موجات الهجرة ذروتها فـى الأعوام ١٨٤٠ -١٨٥٤ بفضل تشجيع من محمد على وأسرته، حيـث وجـدوا المناخ ملائما للاستثمار فى المجال المالى والتجارى وأقامـه بعـض الصناعـات. بسقوط مصر فريسة للديون الأجنبية، وسيطرة الأوربيين على المالية المصرية،

ازداد تمتع الأجانب، ومنهم اليهود بالامتيازات وحماية قناصل الدول الأوربية. بعد افتتاح قناة السويس، وفى عهد الخديوى إسماعيل، واستخدام اليهود فى وظائف الدولة، توجهت الطائفة اليهودية إلى تأسيس المدارس والمعابد والمستشفيات والصحف اليهودية.

وصل عدد اليهود فى مصر قبل نهاية القرن التاسع عشر حوالى ٢٥ ألف، وزاد هذا الرقم إلى ٦٠ ألف يهودى فى بدايات القرن العشرين، حتى بدأت هجرات اليهود إلى إسرائيل ، وأمريكا اللاتينية وأوربا والولايات المتحدة الأمريكية بعد إنشاء دولة إسرائيل، ثم بعد قيام ثورة ١٩٥٢، وقيام العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦. تركز اليهود فى مدينتى القاهرة والإسكندرية حيث بلغ نسبة مجموع اليهود فيهما من ٨٥-٩٥٪. كان يوسف قطاوى أول وآخر وزير يهودى فى تاريخ مصر الحديثة فى عهد الملك فؤاد. كان ليهود مصر تأثير ملموس فى النشاط الاقتصادى للبلاد فى النصف الأول للقرن العشرين، فقد أسسوا أو شاركوا فى تأسيس كثير من البنوك مثل البنك الأهلى المصرى، والبنك العقارى المصرى، والبنك التجارى المصرى، وبنك سوارس، والبنك البلجيكى الدولى وبنك زلخة، وبنك حاييم يعبيس، وأسهمت عائلات عدس ورولو وموصيرى وقطاوى فى تأسيس وإدارة الشركة المصرية المالية. وفى مجال الاستثمار الزراعى والعقارى، ساهموا فى إنشاء شركة مساهمة البحيرة وشركة مطاحن المحمودية (ساكس)، وشركة وادى كوم أمبو المساهمة لاستصلاح الأراضى وزراعة المحاصيل، وشركة أراضى الغربية العقارية، وأسست عائلة قطاوى شركة أراضى (الشيخ فضل) العقارية، وشركة فنادق مصر الكبرى، وشركة الاتحاد العقارى المصرى، وفى مجال الصناعة والتجارة أسست العائلات اليهودية وساهمت فى تأسيس شركة التصديرات الشرقية، وشركة خليج الوجه القبلى، وشركة الأقطان المتحدة بالإسكندرية، وشركة محلات شملا، وشركة النسيج والحياكة المصرية وشركة محلات شيكوريل، وشركة الملابس والمهمات المصرية، وشركة موبيليات بونتريمولى، وفى مجال الصناعة شركة عموم مصانع السكر والتكرير المصرية، ومصنع سيجوارت للمواسير والأعمدة والمصنوعات من الأسمنت المسلح، ومصنع الطوب الأبيض

الرملى بالعباسية، ومصانع ناردين للمطاط والكاوتشوك، ومصانع النحاس المصرية. وفى مجال الكهرباء والطاقة كانت شركة توريد الكهرباء والثلج، والشركة العمومية للكهرباء والميكانيكا، وشركة البترول المصرية، وشركة الغاز الأهلية. فى مجال التأمين تأسست شركة الإسكندرية للتأمين على الحياة، وفى مجال النقل تأسست شركة ترام القاهرة البلجيكية، وشركة ترام الإسكندرية البلجيكية، وشركة ترام النقل الإنجليزية.

ظهرت عائلات يهودية كثيرة فى مصر فى النصف الأول من القرن العشرين، منها عائلة موصيرى، ومزراحى، وقطاوى، وهرارى، وجاتنيو، وشيكوريل، وعدس، وعائلة كوهين، وليفى، وإسرائيل، وسامسون، وحمص، ودويك، وشلهوب، وسوارس، وعاداه، وآشير، وزلخا، وتوريبل، وليفى، ومنشه، وسموحه، وشملا، ورولو، وساكس، وشامزمان، ويعبيس، . . . .وغيرهم من العائلات اليهودية العديدة التى عملت فى مجال الصناعة، والتجارة، والبنوك، والتأمين، والتوكيلات، والعقارات، والطاقة، واستصلاح الأراضى، والزراعة، وكان منهم محامون، وأطباء، ومهندسون، وسماسرة، وصيارفة، ورجال الأعمال. بقيام دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨، ونشوب الحرب الأولى بين العرب وإسرائيل فى نفس العام، رحلت أكثر هذه العائلات من مصر.

بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، تغيرت العلاقات بين أقطاب العائلات اليهودية والسلطات الحاكمة تغيرا جوهريا، بالإضافة إلى سياسة الثورة المصرية من تمصير ثم تأميم وحراسة، جعلت العائلات اليهودية تقوم بتصفية أملاكهم وأعمالهم والهجرة من مصر، إما إلى إسرائيل أو إلى أوروبا والأمريكتين.

شارك اليهود المصريين فى مجالات الأدب والصحافة والفنون، خاصة الموسيقى والسينما والمسرح. يعتبر يعقوب صنوع الشهير بأبى نضارة واضع أسس المسرح فى مصر، وأحد رواد فن الكاريكاتير السياسى فى الصحافة المصرية، وأحد المناضلين بالكلمة الساخرة ضد الاحتلال البريطانى والأسرة الخديوية. فى مجال الموسيقى بزغ نجم الموسيقار داود حسنى أو دافيد حايم

ليفى، الذى اثرى الموسيقى المصرية بغزارة عطائه الفنى على مدى خمسين عاما، واستوحى من البيئة الشعبية المصرية ألحانا خالدة مثل : (قمر له ليالى، ليلة فى العمر، ويمامة حلوة، وعصفورى يامه، على خدة يا ناس ميت ورده)، وغيره من الأدوار التى مازالت حتى الآن تجذب الكثير من الناس الذين يهوى النغم الشرقى القديم. أيضا لحن داود حسنى أكثر من خمسة وعشرين مسرحية وأوبريت، كما قام بتلحين أول أوبرا مصرية وهى أوبرا شمشون ودليله. فى مجال السينما برز اسم توجو مزراحى كواحد من رواد هذا الفن من تمثيل وإخراج وإنتاج وامتلاك بعض دور السينما. وفى مجال إنتاج وتوزيع أفلام السينما، كانت شركة جوزى فيلم التى أسسها جوزيف موصيرى عام ١٩١٥ والتى شيدت أستوديو للإنتاج السينمائى، تقوم بإنتاج العديد من الأفلام. كذلك أسس وأدار أدوار ليفى شركة إنتاج وتوزيع الأفلام السينمائية. وفى مجال التمثيل كان هناك راقية إبراهيم أو راشيل ابراهام ليفى، والفنانة القديرة نجمة إبراهيم، والفنان الكوميدى إلياس مؤدب، والنجمة اللامعة ليلى مراد والتى أشهرت إسلامها وهى فى قمة بزوغ نجمها الفنى، وشقيقها موريس الشهير بمنير مراد، والفنانة نجوى سالم، وغيرهم من الفنانين المحبوبين من الشعب المصرى المسالم والمتسامح، الذى لم يؤثر فى عاطفته نحو النجم أو الفنان ديانته أو عقيدته، شعب عاش معظم عهوده فى وفاق عقائدى مع الأديان الأخرى، شعب عاش تجربة التوحيد حتى قبل ظهور الأديان السماوية، شعب حضارى أصيل، تكالبت قوى عديدة فى كبح تطلعاته فآثر الاستكانة والكمون، ولكن للزمان دورات، وآن الأوان أن تبدأ دورة جديدة تتطلب الكثير من العقود أو القليل من القرون لإحياء حضارة جديدة بعد حضارتين سالفتين، فرعونية وعربية عاشهما الشعب المصرى فى أمجاد حقيقية فى عهدى تحتمس الثالث ورمسيس الثانى، قام المصرى بالحضارة الأولى، ثم شارك فى الثانية وتبوأ فيها دور الصدارة والزعامة فى عهدى صلاح الدين الأيوبى، ومحمد على الكبير.

الفصل الثانى

الجذور التاريخية لبلاد الشام

الجذور التاريخية لبلاد الشام

مقدمة

تتكون بلاد الشام من سوريا ولبنان والأردن وفلسطين، تبلغ إجمالي مساحتها حوالى ٣١٠ ألف كيلو متر مربع، أى اقل من ثلث مساحة مصر، كما يبلغ إجمالى السكان حوالى ٣٠ مليون نسمة أى اقل من نصف عدد سكان مصر. تبلغ مساحة سوريا حوالى ١٨٥ ألف كيلو متر مربع، وعدد سكانها حوالى ١٧ مليون نسمة، وعاصمتها دمشق التى تقع عند السفح الشرقى للجبال المقابلة للبنان على ارتفاع ٦٦٠ متر، ويمر بها نهر بردى. احتلها الآشوريين فى القرن الثامن قبل الميلاد، والإسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق. م، ثم الرومان عام ٦٤ ق. م، ثم العرب عام ٦٤٠ م، حتى سقطت فى أيدى المغول عام ١٢٦٠م، ثم التتار فى عام ١٣٩٩م، وأخيراً الأتراك العثمانيون عام ١٥١٦م. فى عام ١٩٢٤م أصبحت عاصمة للانتداب الفرنسى، وأخيرا فى عام ١٩٤١م أصبحت دمشق عاصمة للجمهورية السورية. من أهم مدن سوريا : تدمر وحلب وحماه وحمص ودرعا واللاذقية.

تبلغ مساحة لبنان حوالى ١٠٫ ٥ ألف كيلو متر مربع، وعدد سكانها حوالى ٣٫ ٥ مليون نسمة، وعاصمتها بيروت التى تأسست فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد على ساحل البحر المتوسط. أصبحت بيروت من أهم مدن المنطقة نظرا لكونها صلة الوصل بين العالمين الغربى والعربى. من أهم مدن لبنان : بعلبك وصور وصيدا وطرابلس وجبيل. أما الأردن فمساحتها حوالى ٩٨ ألف كيلو متر مربع، وعدد سكانها حوالى ٤٫ ٥ مليون نسمة. تتكون معظم أراضيها من صحراء، وتوجد الأراضى الزراعية فى غرب البلاد. عاصمتها عمان وهى مدينة قديمة تبعد عن القدس بحوالى ٨٦ كيلو متر إلى الشمال الشرقى، وهى على ارتفاع ٧٣٠ متر عن مستوى سطح البحر. يستوطن الأردن فى الوقت الحالى عدد كبير من الفلسطينيين الذين تركوا بلادهم بعد الحرب مع إسرائيل فى عام ١٩٤٨م. من أهم مدن الأردن : العقبة واربد والبتراء. تضم فلسطين قطاع غزة والضفة الغربية لنهر الأردن، وأهم مدنها

القدس الشرقية والخليل وبيت لحم ورام اللـه ونـابلس والجليـل. تـم تقسـيم مدينـة القدس فـي عـام ١٩٤٨م إلـى قسـمين : القدس الجديـدة والتـي تتبـع إسـرائيل، والقدس القديمة التابعة للفلسـطينيين تحـت حكـم الأردن. احتلـت إسـرائيل القسـم العربي للقدس في حرب ١٩٦٧. تتميز مدينة القدس بأنهـا مقدسـة مـن الأديـان السماوية الثلاث. تقع الأماكن المقدسة في المدينة القديمة التـي يحيـط بهـا سـور بنـاه سـليم الأول العثمـاني فـي القـرن السـادس عشـر، وتضـم المسـجد الأقصـى ومسجد الصخرة، وحائط المبكى (ما تبقى من هيكـل سـليمان)، وكنيسـة القيامـة والقبر المقدس، وتتركز هذه الأماكن المقدسة في مساحة لا تزيد عن كيلـو متـر مربع. على بعد حوالي ٣٠ كيلو متر إلى الجنوب الغربي لمدينة القـدس، وعلـى ارتفاع ٦٠٠ متر عن سطح البحر، في وادي اشكول توجد مدينة الخليل، موطن إبراهيم وداود، ومن المعتقد أن إبراهيم وإسـحاق ويعقـوب قـد دفنـوا فيهـا، كمـا يوجد في مدينة الخليل المسجد الإبراهيمي.

الجذور الفلسطينية

منذ حوالي ألفي سنة قبل الميلاد، وفد إلى بلاد الشام في أزمنة متقاربـة هجرتيـن : أولهمـا قبـائل (فلسـتيا) وهـم أصـل الفلسـطينيين اللذيـن جـاءوا مـن اقريطـش (جزيـرة كريـت)، وجـزر بحـر ايجـه، والتـي احتلـت الجـزء السـاحلي الشرقي للبحر المتوسط، جنوب جبل الكرمل، وثانيهما هجرة قبيلة إبراهيم التـي وفدت من بلـدة اور الكلدانيـة (فـي بـلاد سومر) – قـرب شـط العـرب (العـراق حاليا).

منذ العصور القديمة والتي ورد فيها اسم فلسطين على المنطقـة الواقعـة في الحوض الشرقي من البحـر المتوسـط حيـث كـان أشـهر مدنهـا يافـا وغـزه ومجدل وعسقلان وبيت داجون وبيت جبرين، لم يعرف العالم أسـم فلسـطين إلا فـي بدايـات القـرن العشـرين. كـان هـذا الجـزء مــن العــالم يؤلــف قسـما مــن الإمبراطورية العثمانية التـي قسمت الوطن العربـي إلـى ولايـات ومتصرفيـات دون أن يكون بينهما اسم ولاية فلسطين بل كانت هناك متصرفية القـدس، وهـي تابعة لولاية دمشق. عندمـا وقعـت الحـرب العالميـة الأولـى وتقـرر فـي نهايتهـا

وضع الأقطار العربية تحت الانتداب البريطاني واستولت بريطانيا على القسم الجنوبي من سوريا وأطلقت على نصفه الغربي اسم فلسطين وعلى نصفه الشرقي اسم شرق الأردن.

ورد اسم فلسطين في الكتب الدينية لليهود، وفي أسفار موسى الخمس، وهي كلمة محرفة من اسم شعب كان يقيم في الساحل الشرقي للبحر المتوسط منذ حوالي أربعة آلاف سنة. كانت القبائل الفلسطينية الأولى مثل الوضع السائد في ذلك الزمان تقوم بغزو سوريا والعراق ومصر وتستقر فيها وتخرج منها، تحارب بني إسرائيل وتهزمهم ويهزموها. أن الكنعانيين والفينيقيين، والبابليين، والآشوريين، والكلدانيين، والحيثيين، والآراميين، والهكسوس، والفراعنة، هي قبائل وشعوب أصبحت فيما بعد الشعوب العربية وتكونت منها بعض الدول العربية. كان الشعب الفلسطيني يقيم في الجنوب الشرقي لحوض البحر المتوسط، وكان له مدن وحضارة امتدت حتى كريت وليبيا وآسيا الصغرى، والجزر اليونانية. كانت السفن الفلسطينية تجوب بحار البحار قبل الفينيقيين.

كان الشعب الفلسطيني يعبد الإله داجون الذي رسموه على شكل سمكه كبيرة. قبل أن يأتي الفلسطينيون ويستقرون في الرقعة الجنوبية من صحراء النقب كانت هناك قبائل أخرى قد استقرت في هذه المناطق ومنها العمالقة الذين كانوا يستوطنون أطراف سيناء إلى بير سبع والخليل، واليابوسيون الذين كانوا يستوطنون أورشليم / القدس وما حولها، والكنعانيون الذين كانوا يسكنون جبال السامره والكرمل.

مثل باقي بلاد الشام غزا الإسكندر المقدوني الأراضي الفلسطينية عام ٣٣٢ ق. م. بعد موت الإسكندر كانت بلاد الشام من نصيب سلوقس الملقب بالمظفر، لما يتميز به من شجاعة وكرم. ضم سلوقس تحت لوائه عدة ممالك قديمة هي : عيلام وفارس وبابل وآشور، وسوريا وفينيقيا، وفلسطين في بعض الأحيان. انشأ سلوقس في سلوقية وإنطاكية عاصمتين لملكه. اختار موقع سلوقية قرب مدينة بابل القديمة، والتي شيدت فيها مدينة بغداد بعد ذلك. أصبغ اليونانيين على مدن بلاد الشام الثقافة اليونانية، من مدارس ودور اللهو،

وساحات الألعاب الرياضية، ومعابد للآلهة اليونانية، والاستمتاع بالغناء والرقص، والشراب والطعام، والتبحر في العلم والفلسفة.

نحو قرن ونصف قبل الميلاد أخذ حكم أسرة سلوقس في الاضمحلال والفناء نتيجة لكثرة خلافات الحاكمين على ممالك الإمبراطورية السلوقية، والعمل المستمر لروما ومصر البطالمة في اضعاف حكم الأسرة السلوقية، حتى سيطرت الإمبراطورية الرومانية في القرن الثاني قبل الميلاد على بلاد الشام ومنها الأراضي الفلسطينية.

ولد المسيح عليه السلام في العام الأول الميلادي أو عام ٤م أو ٦م في مدينة داود اليهودية (بيت لحم) والتي تقع جنوب أورشليم / القدس بحوالي عشرة كيلو مترات، ثم انتقلت أسرته إلى الناصرة في الجليل، سمي بيسوع أي معين يهوه. عمده وهو صغير يوحنا المعمدان. أخذ المسيح يقوم بعمله ويخطب في الناس مبشرا بملكوت الله. نشأت المسيحية بصفة عامة في مناخ ديني يهودي متزمت، فجاءت تعاليم الديانة المسيحية ثورة على التقاليد اليهودية الموروثة، وحرب ضد الشيع اليهودية السائدة في ذلك الوقت من فريسيين وصدوقيين. إذا كانت الديانة اليهودية دين توحيد، فان الديانة المسيحية تؤمن بالثالوث (الأب والابن والروح القدس).

توفي المسيح شابا وهو لم يكمل الثلاثين من عمره. ترك المسيح ورائه عددا من الحواريين وهم تلامذة المسيح. بعد وفاة المسيح ألف أتباعه طائفة يهودية صغيرة، ولكن القديس بولس جعل هذه الفئة الصغيرة هيئة كبيرة نشطة شملت اليهود وغير اليهود. ولد بولس أو شاول (اسمه اليهودي) في طرسوس (شمال سوريا) وتربى في أورشليم، وعارض المسيحية في بادئ الأمر، ثم بدأ يتحول من اليهودية إلى المسيحية في دمشق التي كانت مركز نشاطه الأول. لم يقوم بولس بالتبشير بالمسيحية في أورشليم أو على أيدي حواريين المسيح الاثنى عشر، الذين تشربوا بتعاليم المسيح وظلوا على يهوديتهم العميقة الجذور في أعماقهم. استطاع بولس أن يفصل المسيحية عن اليهودية متشبعا بالفلسفة اليونانية. لم يقبل اليهود المسيحيين برضاء كامل التبديلات والإضافات التي أراد

بولس فرضها على إيمان الحواريين. بدأت الجماعات المسيحية بعد ذلك الانفصال عن المعبد اليهودى، حتى أصبحت المسيحية فى مقتبل القرن الثانى تظهر فى ثوب دين مستقل ومنفصل تماما عن اليهودية. فى القرن الرابع الميلادى اصبح المجتمع المسيحى واسع النطاق، وتنكرت الكنيسة المسيحية الجديدة لشعب إسرائيل، وشاع فيها أن الشعب اليهودى قد خرج عن سبل الله، وبعد عن الحق، كما تخلصت المسيحية من شعائر الشريعة اليهودية مع الاحتفاظ بالتوراة ككتاب مقدس. ثم حدث تطور كبير للديانة المسيحية عندما تحولت الإمبراطورية الرومانية إلى الدين المسيحى فى القرن الرابع بعد أن اعتنق الإمبراطور الرومانى قسطنطين المسيحية.

غزت الجيوش العربية الإسلامية الشام فى القرن السابع عشر، وتحولت القبائل الفلسطينية إلى جزء من الدولة الإسلامية، بعد ما عاشوا فى ظل الاحتلال الرومانى الذى استعمر بلاد الشام ومصر. أصبحت أرض فلسطين بعد ذلك تابعة للدولة الأموية. كان الخلفاء الأمويون يملكون الضياع والقصور فيها، ويقضون فصل الشتاء فى مناطقها الدافئة، فكان عبد الملك بن مروان يقيم أحيانا فى مدينة الرملة البيضاء، وكان هشام بن عبد الملك يقيم فى أريحا وأقام الخلفاء الأمويين المسجد الأقصى وبنوا فى ساحته مسجد قبة الصخرة، وأنشأوا المدن والقصور وعمروا هذا الجزء من الدولة الإسلامية.

كانت أرض فلسطين وسوريا ولبنان والأردن قطرا واحدا أطلق عليه اسم بر الشام، وظلت هذه المناطق تشارك فى نفس الحوادث والتطورات منذ الأمويين والعباسيين، ثم الأيوبيين، ثم المماليك فالعثمانيين، وظل هذا الحال قائم حتى بدأ الانتداب البريطانى، فوضع الحدود بين فلسطين وجاراتها العربية تمهيدا لتجزئة وتقسيم الدولة العربية إلى دويلات وممالك وإمارات صغيرة فى خطة لتفتيت الدولة العربية الإسلامية والمفروض أن تكون دولة عربية واحدة.

بدأ عودة وتدفق اللاجئين اليهود إلى المناطق الحالية من أرض فلسطين/إسرائيل عندما استولى العثمانيون فى عهد السلطان سليم الأول على بلاد الشام بما فيها فلسطين فى سنة ١٥١٦م بعد هزيمة السلطان المملوكى

قنصوة الغورى فى موقعة مـرج دابـق. وقعت الأراضـى العربيـة تحـت الحكـم العثمانى فازداد تدفق اللاجئين اليهود إلى هذا الجزء من الشام حيث الحلم اليهودى القديم – العودة إلى أرض الميعاد، خاصة فى أعقاب الاضطهاد الدينـى لهم فى أوروبا ومحاكم التفتيش فى أسبانيا.

أورشليم / القدس :

تقع مدينة القـدس فـى بـلاد الشـام، وهـى هضبـة غير مسـتوية يـتراوح ارتفاعها بين ٧١٠-٨٢٠ مـتر، ويحيط بالمدينـة كثير مـن الجبـال، منهـا جبـل الزيتون الذى يقع فـى الجهـة الشـرقية، ولا يفصلـه عـن الأمـاكن المقدسـة غير وادى عميق، سريع الانحدار، هو وادى قدرون. جـاء اسم جبـل الزيتـون فـى التلمود باسم جبل (المسيح) أى جبل التتويـج، حيث كـانوا يـأخذون مـن زيتونـة الزيت المقدس الذى كـان يستعمل فـى تتويـج الملـوك. يوجـد فـى امتـداد جبـل الزيتون، فى الجهة الجنوبية الشرقية من القدس جبل بطن الهوا، لا يفصله عنهـا غير وادى سلوان الذى يتصل أيضا بوادى قدرون. فى الجنوب الغربـى للقـدس يقع جبل صهيون، وإلى الغرب يوجد جبل أكـرا، وجبـل موريـا أو جبـل بيـت المقدس.

كانت مدينة أورشليم أو مدينة القدس من أشهر مـدن العـالم فـى التـاريخ القديم، فقـد كـانت طريقـا مـن طـرق الهجـرات القديمـة مـن قلب شـبة الجزيـرة العربيـة إلـى الهـلال الخصيـب، وطريقـا للغـزوات والتبـادل التجـارى مـا بيـن حضارات بلاد ما بين النهرين (بابل وآشور)، والحضـارة المصريـة الفرعونيـة كانت المدينة قائمة فى الألف الثالث أو الرابع قبل الميلاد. هاجر إليها من قلب شبه الجزيرة العربية قبائل مـن العموريين والكنعـانيين، ومعهـم اليبوسـيين مـن جهة الخليج العربى.

كان ملك صادق من ملوك اليبوسين هو أول من استوطن هذه المنطقـة، ولما تولى سالم اليبوس الملك شيد على الأكمة الجنوبية المعروفة بجبل صهيـون برجا للدفاع عن المدينة وحمايتها. قد تكون اسم المدينة قديما (أورسالم) أخذ من

اسم الملك سالم اليبوسي، حيث أن كلمة (أور) تعني بلدة أو مدينة، أو يكون معنى كلمة (أورسالم / أورشالوم) مدينة السلام، فكلمة شالوم العبرية تعني سلام بالعربية. ذكر اسم (أورسالم) في نقوش لوحات تل العمارنة، التي وجدت بمدينة أسيوط المصرية. كانت هذه النقوش عبارة عن مجموعة من اللوحات مكتوبة بالخط المسماري (لغة بلاد بين النهرين)، يتخللها شرح باللغة الكنعانية (لغة فلسطين القديمة) جاء في لوحات تل العمارنة أن أحد رجال السلطة في (أورسالم) يسمى عبد حيبا أرسل إلى فرعون مصر تحتمس الأول في عام ١٥٥٠ قبل الميلاد رسالة يستنجده فيها بمدد من الجند لصد غارات شراذم من الغجر الرحل اسمهم حبيرو، أي العبريون. خضعت مدينة اورسالم لفراعنة مصر في عهد تحتمس الثالث نحو ١٤٧٩ ق. م، الذي أقام عليها حاكم مصري. كانت اورسالم من ممتلكات مصر أيضا في عهد امينحتب الثالث في ١٤١٣ ق.م، وإخناتون ١٣٧٥ق. م، وتوت عنخ آمون ١٣٥١ ق. م، وسيتي الأول، ورمسيس الثاني ١٢٩٢ق. م، وشيشنق ٩٧٠ ق. م، ونينخاو ٦١٠ ق. م.

تغير اسم اورسالم في بعض الأحيان إلى يبوس في عهد اليبوسيين ظلت اورسالم في يد اليبوسيين إلى السنة الثامنة من حكم داوود، الذي وحد الأسباط أو قبائل بني إسرائيل الاثنى عشر وهزم اليبوسيين، واستولى على جبل صهيون ثم على بلده اورسالم سنة ١٠٤٩ ق. م فتحول اسمها إلى أورشليم أي مدينة السلام وامتدت مملكة داود من دان في الشمال إلى بئر سبع في الجنوب. خلف داود ابنه سليمان ١٠١٥ ق. م فاتسعت القدس في عهده وازدهرت. قبل موت سليمان انقسمت مملكة بني إسرائيل، وضعفت، فاستغل فرعون مصر شيشنق الفرصة واحتل القدس نحو ٩٧٠ ق. م. نحو عام ٥٥٨ ق. م استولت جيوش بابل على أورشليم، وأخذ آلاف من الأسرى اليهود إلى بابل، فكان التشتت الأول لهم. لما استولى قورش الفارسي على بابل نحو ٥٣٨ ق. م، اذن لبني إسرائيل العودة إلى أورشليم.

غزا الإسكندر المقدوني أورشليم عام ٣٣٢ ق. م، ولكن استطاع اليهود استعادة المدينة عام ١٦٥ ق. م بعد مرور قرن من الزمان تقريبا، وفي عام ٦٣ ق. م، استولى القائد الروماني بومبي على المدينة. في عهد الرومان ظهر السيد

المسيح، فقاومه معظم اليهود ولم يعترفوا أو يؤمنوا به كمسيح منتظر كما جاء فى عقيدتهم، أما الكنعانيون وغيرهم من الشعوب العربية بأورشليم فمنهم من آمن به، ومنهم من أعرض عنه فى. عام ٧٠ ميلاديا، قتل القائد الرومانى تيتوس معظم من كان من أورشليم من اليهود ودمر الهيكل، فترك معظم اليهود أورشليم فى التشتت الثانى، وبعد ذلك ثار من بقى من اليهود على الرومان، مما جعل الإمبراطور هدريان يأمر بمحاصرة المدينة، وذبح من اليهود الكثير وغير كل شى فى المدينة حتى اسمها تحول إلى (ايليا كابيتولينا)، وأقام فى مكان هيكل سليمان معبدا لجوبيتر، كبير آلهة الرومان، ووضع تمثالا لجوبيتر مكان الهيكل نكاية فى اليهود الذين تحرم عقيدتهم كل ما هو منحوت، ومنع اليهود من دخول المدينة، وجعل عقوبة الإعدام لأى يهودى يوفد إلى المدينة، ثم سمح لهم بالمجئ يوم واحد فى السنة والوقوف على الجدار القائم الوحيد، والمتبقى من الهيكل فى الجزء الغربى من المدينة، وهو ما يسمى بحائط المبكى.

استغل ملوك الفرس من الساسان فرصة ضعف الدولة البيزنطية، وغزوا بلاد الشام ومنها مدينة ايليا كابيتولينا، واستولوا عليها عام ٦١٤م، وذبح من سكانها نحو تسعين ألف مسيحى، وهدم كنيسة القيامة، وغيرها من الكنائس، والقصور المعمورة. جاء فى كتب كثير من المؤرخين أن الفرس قاموا بهذه الأعمال بتحريض من اليهود. عندما استرد هرقل ايليا البيزنطى المدينة من الفرس عام ٦٢٩ م، انتقم من اليهود وقتل منهم آلاف.

استولت جيوش العرب المسلمين فى عهد عمر بن الخطاب، وبقيادة أبى عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد، على مدينة ايليا عام ٦٣٦ م (١٥ هجرية)، بعد أن اشترط أهل المدينة ألا يسلموها إلا إلى شخص الخليفة عمر. قدم أهل المدينة مشروع معاهدة إلى عمر تقضى بكل ما يريده العرب، بشرط الإبقاء على الحرية الدينية للمسيحيين، واستمرار القرار الرومانى القديم بمنع اليهود الوفود إلى المدينة. قبل عمر جميع الشروط عدا الشرط الخاص بحرمان اليهود الدخول إلى المدينة، معتذرا بأن القرآن قد حدد ما لأهل الكتاب من يهود ومسيحيين، وما عليهم. تعهد عمر للمسيحيين بعدم دخول اليهود المقدسات المسيحية أو السكن حاراتهم.

صعد عمر إلى هضبة جبل موريا واختط مسجدا بجانب الصخرة الشريفة التى كان النبى محمد صلى الله عليه وسلم قد اسرى به إليه ليلة الإسراء والمعراج، وعليه تم بناء مسجدا متواضعا وصغيرا، هو المسجد الأقصى. أما تاريخ المسجد الأقصى فى العصر الأموى، فقد اختلفت آراء المؤرخين المسلمين عليه. ذهب فريق إلى القول بأن الخليفة عبد الملك بن مروان هو الذى بنى المسجد الأقصى، وأضاف البعض أن عبد الملك قد بنى مسجدا صغيرا ملحقا إلى مسجد عمر بن الخطاب وفى نفس المكان - على أنقاض الكنيسة التى كان قد أقامها الإمبراطور جستنيان للسيدة العذراء، ويرى فريق ثانى من المؤرخين أن الذى أقام المبنى الثانى للمسجد الأقصى هو الوليد ابن عبد الملك. كان رأى الفريق الثالث وسطا، حيث قالوا أن عبد الملك بن مروان هو الذى أمر ببناء مسجد بجوار مسجد عمر، لكن البناء لم يتم إلا فى عهد ولده الوليد. أما الذى انشأ مسجد قبة الصخرة فهو الخليفة عبد الملك بن مروان. تحول اسم المدينة إلى بيت المقدس بالنسبة للمسلمين، بالرغم من احتفاظها باسم أورشليم بالنسبة لليهود، وتداولا الاسمين : بيت المقدس / القدس، وأورشليم حتى اليوم. وهكذا أصبحت المدينة مقدسة بالنسبة لليهود حيث يوجد أطلال هيكل سليمان، وللمسيحيين حيث يوجد كنيسة القيامة وحيث دفن المسيح، وللمسلمين حيث يوجد المسجد الأقصى أول القبلتين وثالث الحرمين، وقبة الصخرة. فى مساحة لا تزيد عن كيلو متر مربع، شهدت كثيرا من الصراع والحروب على مدى أكثر من ثلاثة آلاف عام، ووجد فيها مقدسات ثلاثة أديان سماوية.

لما استولى الفاطميون على مصر وسوريا عام ٩٦٩م خضعت القدس لحكم المعز لدين الله الفاطمى، الذى كان مشهورا بعطفه الشديد على الأقليات من أهل الكتاب وخاصة اليهود.

أقام الفاطميون الكثير من المبانى فى القدس، كما وسعوا المسجد الأقصى، ورمموا ما تصدع منه أثر الزلازل التى كانت تجتاح المدينة. استولى السلاجقة على بيت المقدس بعد أن أخذها الملك ألب آرسلان عام ١٠٧٢م من

الفاطميين، ثم استطاع الأمير ارتق بن أكسك الاستيلاء على بيت المقدس بحد السيف، وأسس فيها دولة عرفت بدولة الارتقيين.

قامت فى أوروبا فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر فكرة الحرب المقدسة، بعد أن انتشرت عادة حج مسيحى أوروبا إلى القدس فى بداية القرن. روجوا العائدين من القدس الكثير عن اضطهاد المسيحيين فى الشرق وعن ثروات الشرق الطائلة. دعا البابا اوربانوس الثانى كافة المسيحيين الممتهنين الخدمة العسكرية، والحاملين شارة الصليب، إلى الذهاب بأسلحتهم إلى القدس. لبى طبقة الفرسان فى أوروبا الدعوة أيضا، وجهزوا لأول حملة صليبية على القدس. دخل الصليبيون أورشليم / القدس عام ١٠٩٩م بقيادة دى بويون أمير مقاطعة اللورين بفرنسا، فأبادوا جميع المسلمين واليهود فى المدينة، وأحرقوا ديارهم ومقدساتهم، وحرموا عليهم دخولها. ظلت القدس ترزح تحت نير الحكم الصليبى، فقد تعاقب على حكمها ملوك الصليبين قرابة ٨٨ عاما، تكونت فيها فرقتان من الفرسان، الأولى هى فرسان الهيكل لمكافحة المسلمين، والثانية فرسان الاسبتارية لرعاية الحجيج والعناية بالمرضى المسيحيين، ولكن سرعان ما تحولتا الفرقتان إلى هيئة حربية، واتخذتا من المسجد الأقصى مقرا لأعمالهما، ومستودعا لأسلحتهما. كانت الحملة الصليبية الثانية فى الفترة ١١٤٦-١١٤٨ م بقيادة الإمبراطور الفرنسى لويس السابع، والإمبراطور الألمانى كنراد الثانى، والتى انتهت بفشل ذريع. ظلت مدينة أورشليم اللاتينية فى الأربعين عاما التى أعقبت الحملة الصليبية الثانية تمزقها المنازعات الداخلية، على حين أن المسلمين كانوا يسيرون بخطى حثيثة نحو الوحدة. تولى السلطان صلاح الدين الأيوبى حكم مصر وسوريا عام ١١٧٥م، بينما فرسان الصليبيون فى أورشليم يتنازعون للاستيلاء على الحكم. نظم صلاح الدين جيوشه وقام ببعض الغارات الصغيرة على القوات الصليبية، حتى نشبت المعركة الفاصلة عند حطين بالقرب من طبرية فى اليوم الرابع من شهر يوليو عام ١١٨٧م. كان صلاح الدين ملما بمعالم الأرض فاختار لجيوشه الأماكن المشرفة على آبار الماء. دخل الصليبيون ميدان المعركة يلهثون من الظمأ بعد أن اخترقوا السهول فى حر منتصف الصيف، فانهزم الصليبيون شر هزيمة.

حاصر صلاح الدين بعد ذلك مدينة بيت المقدس حتى استسلمت بعد اثنى عشر يوما، ووافق صلاح الدين على أن يغادر الصليبين المدينة لقاء دفع الجزية. أقسم نبلاء الصليبين الذين أطلق سراحهم ألا يحملوا السلاح مرة ثانية، ولكن ما كادوا يشعرون بالأمان فى طرابلس وإنطاكية المسيحيتين حتى أحلهم حكم رجال الدين من قسمهم، فأخذوا يدبرون الخطط للثأر من صلاح الدين. أجاز صلاح الدين لليهود أن يعودوا إلى السكنى فى بيت المقدس، وأعطى المسيحيين حق دخولها، على أن يكونوا غير مسلحين، وأمن الحجاج المسيحيين على انفسهم وأموالهم، وعاد المسجد الأقصى وقبة الصخرة مساجد إسلامية مرة ثانية بعد أن تحولت قبة الصخرة فى عام ١٠٩٩م إلى كنيسة، وتحول المسجد الأقصى إلى قصر ملكى صليبى.

كانت الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢م) بقيادة ريتشارد ملك إنجلترا والملقب بقلب الأسد، والملك الفرنسى فيليب أغسطس. تقدمت الجيوش الصليبية إلى أن أصبحت على بعد عشرين كيلو مترا من بيت المقدس. اشتدت الحمى على ريتشارد أثناء المعارك فأرسل إليه صلاح الدين طعاما وشرابا باردا، كما أرسل إليه أيضا طبيبه الخاص. فى الثانى من سبتمبر ١١٩٢م وقع صلاح الدين وريتشارد شروط صلح يدوم ثلاث سنوات. قسمت فيها الأراضى الفلسطينية إلى قسمين، احتفظ ريتشارد بجميع المدن التى فتحها على طول الساحل من عكا إلى يافا، على أن يسمح للمسلمين والمسيحيين بحرية الانتقال بين المدن التى تحت سيطرة المسلمين، والمدن التى تحت سيطرة الصليبين. تعهد صلاح الدين بحماية الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس، على أن تبقى المدينة فى أيدى المسلمين.

توفى صلاح الدين عام ١١٩٣م، مما شجع على قيام الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢-١٢٠٤م). تجمعت الجيوش الصليبية الجديدة فى مدينة البندقية الإيطالية فى صيف عام ١٢٠٢م، وكان معظم الصليبين من الفرنسيين. وصل أسطول القوات الصليبية إلى مدينة القسطنطينية (تركيا) فى يونيو ١٢٠٣م. استولت القوات الصليبية على القسطنطينية، ونهبوا ثرواتها وكنوزها، واغتصبوا نسائها، ثم عاد معظم الصليبين إلى بلادهم مثقلين بالغنائم، ولم يصل منهم إلى

بيت المقدس إلا حفنة قليلة، لم تعمل فيها أى عمل ذو قيمة. توالت الحملات الصليبية حتى نهاية القرن الثالث عشر ، ففشلت الحملة الخمسة فى الوصول إلى بيت المقدس، بينما تحولت الحملة السادسة بقيادة إمبراطور ألمانيا وإيطاليا فردريك الثانى إلى معاهدة سلام بدون حرب، بين الملك الكامل، وفردريك. نظم لويس التاسع أو القديس لويس الحملة الصليبية السابعة عام ١٢٤٨ م. هزم المصريين فى عهد الدولة الأيوبية، جيش لويس حيث كان فى طريقه إلى بيت المقدس عن طريق الأراضى المصرية. ظل المتدينين المتحمسين من أوروبا، حتى نهاية القرن الثالث عشر يقدمون على محاولات متقطعة غير مجدية ليواصلوا فكرة الحرب المقدسة، ولكن أخيرا أدركت أوروبا أن الحروب الصليبية قد انقضى عهدها.

فى عهد دولة المماليك، خرج الصليبيون من بيت المقدس وبلاد الشام كلها إلى غير رجعه، ففى عام ١٢٨٣ م عقدت معاهدة بين السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، والفرنج فى عكا، والتى نصت على أن يكون للسلطان جميع الديار المصرية والحجازية، ومعظم بلاد الشام بما فى ذلك القدس.

انتهت دولة المماليك على يد السلطان سليم الأول العثمانى عام ١٥١٧م. كانت القدس فى العهد العثمانى مركزا لوحدة إدارية تعرف باسم (سنجق القدس)، وهو مؤلف من خمسة أقضية وهى : قضاء القدس، وقضاء يافا، وقضاء الخليل، وقضاء غزة، وأخيراً قضاء بير سبع. كان قاضى القدس فى العصر العثمانى يحتل مكانة كبيرة، فقد كانت بيديه جميع السلطات الإدارية، والسلطة القضائية، والسلطة التنفيذية، كان بالقدس مجلس شورى، ومجلس عمومى، كما كان لواء القدس يمثل فى البرلمان العثمانى سنة ١٩٠٨م بنسبة ثلاثة نواب، اثنان من القدس، والثالث من يافا. لما خسرت الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م، تم تقسيم أملاك الإمبراطورية العثمانية بين كل من فرنسا وبريطانيا حسب اتفاقية سايكس / بيكو فى مارس ١٩١٦، والتى اشتملت على وضع القدس تحت إدارة دولية. فى مارس ١٩٢٠ انعقد المجلس الأعلى للحلفاء فى سان ريمو بفرنسا، وقرر وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى. نص قرار الأمم المتحدة الصادر عام ١٩٤٧ بشأن تقسيم

الأراضي الفلسطينية إلى أن يكون القدس قطاع دولي. قامت الحرب العربية الإسرائيلية الأولى في مايو ١٩٤٨ ثم اتفاقيات الهدنة التي وقعت عام ١٩٤٩، والتي تم فيها تقسيم القدس ما بين العرب (الأردن)، وإسرائيل، وكانت القدس القديمة بما فيها من أماكن مقدسة تحت السيطرة الأردنية، إلى أن وضعت إسرائيل يدها على القدس بشطريها بعد حرب يونيو ١٩٦٧.

سوريا

كانت سوريا قديما شعوب وحضارات عديدة، فقد جاورت الحضارات الفينيقية، والكنعانية غربا، والبابلية والآشورية شرقا، والحضارة المصرية في الجنوب الغربي. استوطنت الأراضي السورية شعوب عدة تناوبت السيطرة عليها، ثم تركت فيها عناصر وقوميات مختلفة، انصهرت على مدى الزمان لتكون الشعب السوري العربي بعد ذلك. كان الآراميون من أوائل الشعوب التي استوطنت هذه الأراضي، وهم قبائل من البدو الرحل، توطنت سوريا والعراق وشمال الجزيرة العربية، وتمثل هذه القبائل الموجة السامية الثالثة التي اجتاحت الهلال الخصيب في منطقة الشام طلبا للماء والمرعى. كان الآراميون بدوا رُحل في شمال الجزيرة العربية، وفي نحو ١٥٠٠ قبل الميلاد نزلوا شواطئ الفرات الأوسط، ثم اتجهوا غربا نحو سوريا وحتى حدود فلسطين وفينيقيا. أهم قبائل الآراميين قبائل الخبيرو (يرجع بعض المؤرخين أن كلمة الخبيرو هي العبيرو -أي العبيرين)، وقبائل الاخلامو التي ورد ذكرها في رسائل تل العمارنة في صعيد مصر، والتي يرجع عهد هذه الرسائل إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد. لم تكن الحضارة الآرامية تتمثل في دولة واحدة، بل ممالك متعددة قد تتحارب أحيانا. كانت أهم ممالكهم هي التي أقيمت في واحة دمشق، وهي مملكة أسرة ابن حدد، ومملكة هازائيل، ومملكة حران، وكذلك ممالك أخرى في حلب وحماة. بلغت الحضارة الآرامية أوج ازدهارها في القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد، ثم استعمروا من بلاد أخرى.

إن الموقع الجغرافي لسوريا وشمال بلاد ما بين النهرين، جعل منهما طريقا للتجارة بين فينقيا (لبنان)، على الساحل الشرقي للبحر المتوسط وآسيا

الصغرى من جهة، وبين مناطق جنوب الفرات ودجلة من جهة أخرى. لقد سمح الموقع الجغرافى لسوريا بأن تقوم بدور الوسيط التجارى البرى، وهو نفس الدور الذى قام به أهل فينقيا ولكن فى البحر. كنتيجة للنشاط التجارى، نشطت الصناعة فى سوريا ونالت شهرة واسعة فى منطقة الشرق الأوسط. استمر الميل إلى التجارة فى أهل سوريا حتى أيام السيطرة اليونانية بعد الفتح المقدونى لبلادهم ثم فى عهد الإمبراطورية الرومانية

وجدت علاقة إيجابية بين أهل سوريا من الآراميين وبين بنى إسرائيل، فعددت التوراة ثلاثة وثلاثين ملكا حليفا لبنى إسرائيل فى القرن التاسع قبل الميلاد، كما وجد فى التوراة بعض المقاطع باللغة الآرامية، بل أن المسيح وأتباعه لم ينشروا تعاليمهم باللغة العبرية ولكن باللغة الآرامية، كما أن اللغة السريانية وهى لغة المسيحيين فى سوريا وبلاد ما بين النهرين طيلة عصور طويلة تشتق من اللغة الآرامية، ولم تزول هذه اللغة إلا بعد الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى.

كانت ديانة أهل سوريا فى العصور القديمة مزيجاً من الديانة الكنعانية والحيثية والفينيقية. عرف اسم "ايل" فى هذه المنطقة بمعنى الإله أو الرب كما كان "حدد" إله الزوابع والأعاصير، وعرف أيضا الآلهة " بعل "، "وعشتروت ". لم تختلف آلهة بلاد بين النهرين عن آلهة بلاد الشام كثيرا. لقد كانت سوريا ملتقى أديان الحضارات المحيطة، وقبل ميلاد المسيح أو فى أوائل العهد المسيحى صهر أهل البلاد ما تجمع من معتقدات دينية، عن طريق التوحيد، فى اللاهوت الشمسى.

قام الإسكندر المقدونى عام ٣٣٣/٣٣٢ قبل الميلاد بالاستيلاء على دمشق وصيدا بدون قتال وهو فى طريقه لغزو بلاد فارس والهند، حاصر الإسكندر بعد ذلك مدينة صور، وكان بها أسطولاً فينيقياً قوياً كان يعمل لحساب الفرس. قاومت مدينة صور جيوش الإسكندر لمدة طويلة، مما دعا الإسكندر إلى صب جماح غضبه على أهل صور فذبح منهم ثمانية آلاف بعد فتح المدينة، وباع من أهلها فى سوق الرقيق حوالى ثمانين ألف. استسلمت

أورشليم للإسكندر بعد ذلك دون مقاومة، ولكن حاربه الفلسطينيين بشجاعة حتى قتل معظم رجال مدينة غزة. واصل المقدونيون بقيادة الإسكندر إلى مصر مخترقين صحراء سيناء، نظرا للتفوق العددى لسكان مصر فآثر الإسكندر الحكمة، فقام بتمجيد وعبادة الآلهة المصرية، فرحب المصريين بالإسكندر، ورأوا فيه منقذهم من نير الفرس، تلمس الإسكندر طبيعة المصريين، فعرف أن الدين أقوى من السياسة فى مصر، فزحف إلى واحة سيوة فى الصحراء الغربية المصرية، وقدم الطاعة إلى الإله آمون، فتوجوه المصريون كفرعون على مصر وألهوه.

وقعت بلاد الشام تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثانى قبل الميلاد، وعاشت مدنها عصر ازدهار ورواج، فصدرت المنتجات المنسوجية إلى معظم دول العالم القديم، واشتهرت مدينة صيدا بصناعة الزجاج، واشتهرت مدينة بريتس (بيروت) بمدارس الطب والقانون. كانت مدن بلاد الشام تتمتع بالماء النقى، والحمامات العامة، ونظافة الأسواق، ودور التعليم، والمدارس، والمعابد. ارتقى فى هذه البلاد الفن بصفة عامة، فكثرت التماثيل التى تزين الميادين، وكذلك المعارض الفنية. كانت تسكن فى بعلبك جالية رومانية، فنمت المدينة وازدهرت وصارت مركز عبادة بعل إله الشمس وملتقى الطرق الممتدة إلى دمشق وبيروت ثم صيدا. أقام أهل الشام بالتعاون مع الجاليتين اليونانية والرومانية فى مكان هيكل (بعل) الفينيقى القديم مزارا ضخما لجوبتير الهليوبوليسى، كما أقاموا بجوار الهيكل الكبير، هيكل آخر صغير لفينوس. اشتهرت مدينة تدمر، أو بلميرا باليونانية (مدينة الآلف نخلة) بخصوبة أرضها، وهياكلها خاصة هيكل الشمس الذى شيد عام ٣٠ ميلاديا للثالوث الأعظم بعل، وبرهبول (الشمس)، وأجلبول (القمر).

كانت بلاد الشام تعيش تحت حكم الرومان فى رخاء ورفاهية، فقد كانت الطبقة العليا ذات ثقافة يونانية، أما الطبقة الدنيا فقد احتفظت بثقافتها الشرقية.

فى عام ٦٣٤ ميلاديا هزمت الجيوش العربية الإسلامية الزاحفة إلى الشام، جيوش الإمبراطورية الرومانية بالقرب من دمشق، فى معركة قتل فيها

الآلاف من جنود الروم، وخسرت فيها الإمبراطورية الرومانية سيطرتها على بلاد الشام. استولى العرب على دمشق عم ٦٣٥، واستولوا على إنطاكية عم ٦٣٦، وعلى بيت المقدس / القدس / أورشليم عام ٦٣٦. فرض العرب سيطرتهم على جميع بلاد الشام قبل أن ينتهي عام ٦٤٠ ميلاديا. وافق البطريق سفرونيوس على تسليم القدس للعرب، وحضر الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه للتصديق على شروط التسليم، ولم يفرض عمر على أهل القدس إلا جزية قليلة، وأمن المسيحيين على كنائسهم وأعطاهم الأمن والإيمان والذى يعرف باسم (العهدة العمرية). طاف عمر فى القدس فى الأيام الأولى لمجيئه واختار بنفسه أول مسجد إسلامى فى القدس. حضر عمر بن الخطاب إلى القدس فى ثياب بسيطة، معه زاده من التمر، ولكن عندما رأى قائد الجيوش العربية أبى عبيدة ابن الجراح والقائد خالد بن الوليد فى ثياب هفهافة يغلبها الترف، وخيول مزركشة، غضب عمر وأنب قادته على الإسراف والرفاهية - رحم الله عمر - فقد كان قدوة، فانتصر العرب والإسلام.

استتبت الأمور فى بلاد الشام، فهاجر كثيرا من أهل الجزيرة العربية إلى الشمال، استوطنوا مدن بلاد الشام، ثم بدأ العرب بعد وفاة عمر يشيدون القصور ويستثمرون أراضى الشام الخصبة، ويستمتعون بالمناخ المعتدل فى جبال الشام. تولى معاوية حكم الشام فى عهد عمر. كان معاوية سياسيا يمتاز بالدهاء، فهو القائل : (لو أن بينى وبين الناس شعره ما انقطعت- إن مدوها خليتها، وإن خلوها مددتها). حدثت الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان بن عفان وحاربت جيوش معاوية، جيوش على بن أبى طالب، ثم قتل على عام ٦٦١م. مات معاوية عام ٦٨٠م بعد أن أحاط نفسه بمظاهر الأبهة والرفاهية، متشبها بأباطرة الدولة البيزنطية، وبملوك الفرس. تجددت الفتنة بعد موت معاوية. بعد عدة سنوات من الفتنة وقتال المسلمين بعضهم البعض، تولى الحكم عبد الملك ابن مروان ابن عم معاوية، فقضى على الفتنة بقسوة وشجاعة. لما استتبت الأمور، تحول عبد الملك بن مروان فى حكمه إلى الحكمة والعدالة.

تولى الحكم بعد ذلك الوليد عام ٧٠٥، فواصل العرب فتوحهم، واستولوا على بلخ عام ٧٠٥، فواصل العوب فتوحهم، واستولوا على بخارى

عام ٧٠٩، وفتحوا أسبانيا عام ٧١١، وسمرقند عام٧١٢، وفى الشرق العربى حكم الحجاج بن يوسف البلاد بحزم وقسوة، ولكن قام بأعمال إنشائية فى البلاد التى حكمها. كان الوليد مثلا طيبا للحكام، يعنى بشئون الإدارة، ويشجع الصناعة والتجارة، وقام بإنشاء المدارس، والمستشفيات، وشجع فتح أسواق جديدة، وأصلح الطرق، وقام بتوسيع مساجد القدس، وقام بإنشاء مسجدا ضخما فى دمشق. توالت الحكام، منهم من كان سيئا مثل سليمان شقيق الوليد، ومنهم الورع الزاهد مثل عمر بن عبد العزيز.

لبنان

فى لبنان وعلى الساحل الشرقى للبحر المتوسط، شمال بلاد الفلسطينيين، وجد الفينيقيون منذ أواخر الألف الثالث قبل الميلاد كشعب سامى، عاش فى الساحل الجنوبى قبل انتقالهم إلى الشمال. توطدت علاقات الفينيقيون بمصر طوال الألف الثالث ومعظم الألف الثانى قبل الميلاد، وكان مركز فينقيا بلدة "جبلة " والتى تحول اسمها إلى بيبلوس أيام السيطرة اليونانية، وتحول الاسم إلى " الجبيل " فى الوقت الحالى، وتقع هذه البلدة شمال بيروت. لم يتح للمدن الفينيقية أن تتمتع بالاستقلال إلا بعد انهيار الإمبراطوريتين العظيمتين المصرية والحيثية فى أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ولكن هذا الاستقلال كان قصير الأمد، إذ أنهم خضعوا بعد ذلك للسيطرة الآشورية، والبابلية الجديدة، والفارسية، ثم بعد ذلك أصبحوا تحت السيطرة اليونانية ثم الرومانية. لم يكتب للمدن الفينيقية الاتحاد بسبب امتدادها إلى أكثر من ثلاثمائة كيلو متر، وصعوبة مواصلاتها البرية التى تعترضها وديان ومرتفعات كونتها السيول الجارفة المنحدرة من الجبل إلى ساحل البحر المتوسط، بالإضافة إلى أن بعض المدن الفينيقية قد ناصبت بعضها العداء، فعاشت صيدا وصور فى عداء طويل الزمن.

زرع الفينيقيون الحبوب على منحدرات الجبال، كما قاموا بتربية الماشية، وتميزوا بصناعة المنسوجات التى كانت تصدر إلى الخارج. كما برع أهل فينقيا فى الصيد والتجارة البحرية مع المدن الساحلية لحوض البحر المتوسط وعملوا بتجارة العبيد المختطفين من المدن الساحلية. تعاون الفينيقيون

تجاريا مع بنى إسرائيل، بل إن أخشاب هيكل سليمان أخذت بتكامل من شجر الأرز بجبال لبنن، كما قامت علاقات تجارية واسعة بين الفينيقيين والسوريين.

كانت الديانة الفينيقية فى بادئ الأمر تتسم بالطابع الزراعى، مما يدعم اشتغالهم بالزراعة قبل أن يعملوا بالتجارة والملاحة البحرية. مثل أهل المناطق المحيطة أطلق الفينيقيون على الإله الرئيسى اسم (ايل) بمعنى الإله، ورأوا فيه خالق كل سيد، فكان ايل هو سيد الآلهة أو رب الأرباب. يأتى بعد ذلك الإله (بعل) بمعنى السيد، وهو يمثل الإله (حدد) فى شمال سوريا، أما (أليان بعل) فكان إله الآبار وينابيع المياه الجوفية، وكان (داغون) إله القمح، (وموت) إله الحصاد، وعشتروت إله الإخصاب، ثم تطورت الآلهة بعد ذلك فى صورة (أدونيس) الذى عبدوه لعهود طويلة.

فى عام ٣٣٢ قبل الميلاد، فتح الإسكندر الأكبر مدينة صور، وقتل من سكانها آلاف، وفى القرن الثانى قبل الميلاد، سيطرت الإمبراطورية الرومانية على جميع بلاد الشام حتى تم الفتح العربى الإسلامى فى القرن السابع الميلادى تم تحت سيطرة العثمانيين فى القرن السادس عشر، تم تحت الانتداب الفرنسى بعد هزيمة العثمانيين فى الحرب العالمية الأولى.

الأردن

سكن العمونيين والمؤابيين فى وادى الأردن، نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ثم سيطر البابليون والآشوريون ثم الفرس على الأردن فى الفترة ٩١٨-٣٣٢ ق. م. أقام الادوميون مملكتهم فى جنوب الأردن، ويعتقد أن بلدة بصيرة كانت عاصمتهم، أما مدنهم الرئيسية فكانت أم البيارة، وطولان بالقرب من البتراء، وتل الخليفة بالقرب من العقبة. انتهت عمون ومؤاب وايدوم كممالك خلال القرن السادس قبل الميلاد خلال غزوات البابليين لأراضيهم. بعد أن تغلب الإسكندر المقدونى على الفرس فى عام ٣٣٢ ق. م أصبح الأردن تحت النفوذ اليونانى، يحكم من خلال البطالمة فى مصر فى الفترة ٣٠١-١٩٨ ق. م، ثم سلوقيو سوريا بعد ذلك. وقعت الأردن وفلسطين تحت الحكم الرومانى فى

عام ٦٣ ق. م، وفى الفترة ما بين بداية الحكم الرومانى وعام ١٣٥ ميلاديا، كونت المدن التى أسست فى العصر اليونانى اتحادا سمى باتحاد المدن العشرة. من بين هذه المدن جرش، وأم القيس، وعمان وكان اسمها قديما فيلادلفيا (بمعنى المحبة الأخوية). أما أنباط جنوب الأردن، فقد ظلوا مستقلين حتى عام ١٠٦م عندما ضمهم الإمبراطور ترجان، ومن ثم أصبح الأردن كله تحت السيطرة الرومانية باستثناء الصحراء الشرقية التى استقرت فيها القبائل الثمودية والصفوية. اتسم العصر الرومانى فى الأردن فى الفترة (١٣٥-٣٢٤م) بالازدهار والأمان. وجدت المعابد الرومانية فى بلدة جرش الأردنية مثل معبد لارتميس ومعبد ليزيوس، وفى عمان شيد الرومان معبد هركرليس. قديما كانت اللغة العربية هى المنتشرة، أما الكتابة فكانت بالحروف الآرامية، ثم انتشرت اللغة اللاتينية فى العصر الرومانى.

يشكل الأنباط الموجة العربية السامية التى أتت إلى مشارف الجزيرة العربية فى نحو عام ٥٠٠ ق. م، وهم من العرب العدنانية، وأغلب الظن أنهم كانوا بدوا رحل فى بادية شرق الأردن. كانت توجد عداوة بين الأنباط واليهود، فقد سارع الحارث الثانى، حوالى ١١٠-٩٦ ق. م لمساعدة غزة لما حاصرها اليهود. حوالى ٩٠ ق. م انتصر الأنباط على اليهود فى معركة حدثت على الشاطئ الشرقى لبحيرة طبريا، ويعتبر الحارث الثالث نحو ٨٧-٦٢ ق. م المؤسس الحقيقى لمملكة الأنباط. انتهى عصر الأنباط الذهبى نحو ٧٠ ق. م، بعد أن تمكنوا من توسيع الرقعة الزراعية واستصلحوا الصحراء.

قام صراع فى الأردن بين المسيحية والوثنية، فى العصر البيزنطى (٣٢٤-٦٤٠م) انتهى هذا الصراع فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول سنة ٣٩٥ م، وعليه دمر الكثير من المعابد الرومانية، وتحول بعضها إلى كنائس. فى السنوات الأخيرة من العصر البيزنطى، استطاع الفرس احتلال سوريا وفلسطين والأردن فى السنوات ٦١٤-٦٢٩م. فى هذه الفترة هدم كثير من الكنائس حتى استطاع الإمبراطور هيروكليس استعادة سيطرة البيزنطيين المسيحيين على بلاد الشام عام ٦٢٩م.

استوطن الغساسنة المهاجرين من بلاد اليمن فـى أواخر القرن الثالث للميلاد حوران وشمال الأردن والبلقاء، وجعلوا عاصمتهم بلدة الجابية، ثم نقلوها إلى بصرى فى حوران. اعتنق الغساسنة المسيحية فى العصر البيزنطى . أيضا استقرت بعض القبائل العربية الأردن قبل ظهور الإسلام، ومنها قبائل ثمود التى استوطنت البلاد الواقعة ما بين الحجاز والشام.

انتشرت قبائل سليح فى القرن الثانى الميلادى فـى أطراف الشـام، بين البلقاء فى الأردن، وجبل الشيخ فى سوريا. كانت قبائل جذام القحطانيـة منتشرة فى معان والعقبة، وحول تبوك حتى سيناء. كانت قبائل عاملـة القحطانيـة تنزل فـى المنطقـة الجنوبيـة الشـرقية للبحـر الميـت. عـاش فـى الأردن قبـائل أخـرى عربيـة، هـاجرت من الجزيـرة العربيـة إلـى الأردن أو الشـام سـعيا وراء وفرة الماء، والأراضى الخصبة.

ظهر الإسلام فى الجزيرة العربيـة، وأرسـل الرسـول مبعوثـا إلـى أمير بصرى الغسانى الذى كـان يسيطر علـى جنـوب سـوريا والأردن، يدعـوه إلـى اعتناق الإسلام. عند وصول المبعوث إلى مؤتـة التـى تقـع فـى جنـوب الأردن، اعترضه شرحبيل بن عمرو الغسانى وقتله.

أعد المسلمون حمله لتأديب قبيلة غسان بقيادة زيـد بـن حارثـة. قـامت معركة بين المسلمين والقوات الرومانية التى تسـاعدها القبـائل العربيـة المواليـة للروم، فى أرض البلقاء، وانتهـت المعركـة باستشـهاد زيـد، واسـتطاع خـالد بـن الوليد أن يعود بالجيش الإسلامى إلى المدينة المنورة.

فى عام ٦٣٢ م اصدر الخليفة أبو بكر الصديق تعليماته إلى جيـش مـن المسلمين بقيادة أسامة بن زيد للتوجه نحو تبوك، فقاومته القبائل المسـتوطنة فـى شمال الجزيرة العربية، ولكن جيش زيد هزم هذه القبائل، واستكمل مسيرته إلـى مؤتة، وحارب قبائل كلب وغسان وثأر لموت أبيه، ثـم عـاد إلـى المدينـة بسـبب حروب الردة قبل نهاية عام ٦٤٠م. أتم المسلمون فتـح بـلاد الشـام بالكـامل فـى عهد عمر بن الخطاب.

لـم يكـن للصليبيين تـأثير يذكـر علـى الأردن. صــدت الأردن غـزوات المغول الأولى عام ١٢٦٠م، ولكن الغزوة الأخيرة عــام ١٤٠١ م بقيـادة تيمـور لنك كانت مدمرة. فى نهاية عصر الدولة المملوكيــة (١٤٠١-١٥١٦م) ضعفت إدارة الدولة المملوكية، وعمت الفوضى فى البلاد، وانتشر مرض الطاعون فــي منـاطق كثيرة مـن الشرق الأردنـى ممـا أدى إلـى إضعـاف الأردن. فــى عــام ١٥١٦م انهزم المماليك أمام القوات التركية العثمانية واصبح الأردن جزءا من الإمبراطورية العثمانية، حتى هزيمة العثمانيين فــى الحـرب العالميـة الأولـى.تـم تقسيم بلاد الشام من بريطانيا وفرنسا، فوضع الأردن وفلسـطين تحت الانتـداب البريطانى، أما سوريا ولبنان فكانا من نصيب الانتداب الفرنسى.

الفصل الثالث

تاريخ بنى إسرائيل

تاريخ بنى إسرائيل

مقدمة

أسماء كثيرة أطلقت على بنى إسرائيل: عبرى - يهودى - إسرائيلى صهيونى - سفاردى- اشكنازى، كل اسم من الأسماء السابقة لها أصل تاريخى. يرجع بعض علماء التاريخ أن كلمة عبرى مشتقة من العبور، حيث هاجرت قبيلة من أرض كلدان (من بلاد بين النهرين - العراق حاليا) مرتحلة إلى أرض كنعان فى شمال صحراء النقب، حيث عبروا النهر، (نهر الفرات أو نهر الأردن - غير معروف بالتحديد). كانت هذه القبيلة تشمل إبرام (أبو الأنبياء إبراهيم) وزوجته سارة وابن أخيه لوط وزوجته. يرجع علماء آخرين إلى أن كلمة عبرى مرجعها إلى أن إبراهيم من نسل عابر بن سام بن نوح.

ترجع كلمة (يهودى) إلى يهودا، وهو أحد أبناء يعقوب الاثنى عشر، وأخو يوسف الصديق. أما إسرائيل فهو اسم يعقوب الذى تغير اسمه إلى إسرائيل بعد أن صارع فى سبيل الله، وتعنى كلمة إسرائيل المجاهد فى سبيل الرب.

ظهر تعبير الصهيونى لأول مرة عام ١٨٩٣م عندما استعمله الكاتب اليهودى ناثان بيربنارم اشتقاقا من كلمة صهيونية، أى الأرض الموعودة. أما كلمة سفاردى، واشكنازى فأصلهما أن الإسرائيليين فى العصر الحديث ينقسمون إلى يهود شمال أوروبا وهم الاشكناز، ويهود غرب أوروبا وحوض البحر المتوسط أى يهود الشرق وهم السفاردى. والاشكنازيم، والسفارديم كلمتان قديمتان استعارتهما التقاليد اليهودية فى العصور الوسطى للتميز بين يهود ألمانيا من نسل قبيلة يهودا، ويهود أسبانيا من نسل قبيلة بنيامين، والسفارديم يدعون أنفسهم القادة من الناحية الدينية، ولكن الاشكناز يعتبرون أنفسهم الطبقة الأرستقراطية الوافدة من الحضارة الغربية المتطورة والمتميزة.

توجد جميع أحكام وشرائع الديانة اليهودية فى التوراة. تحتوى التوراة على أسفار موسى الخمس وهى الأسفار الرئيسية فى الديانة اليهودية (سفر

التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد، وسفر التثنية). يبدأ سفر التكوين بقصة خلق السموات والأرض فى ستة أيام، وظهور الإنسان، والفردوس السماوى، وسقوط آدم فى الخطيئة، وقصة الطوفان، وقصة أبو الأنبياء إبراهيم حتى وفاة يوسف الصديق فى مصر. يحتوى سفر الخروج على قصة خروج موسى من مصر. أما الأسفار الثلاثة الباقية فتسرد الشرائع والأحكام، والوصايا العشر، وباقى قصة رحلة موسى مع بنى إسرائيل، وحتى وفاة موسى قبل الوصول إلى أرض الميعاد. أن إجمالى أسفار التوراة ٣٩ سفرا، وهى أشبه بملحمة تحتوى على تعليم دينى، وتاريخ، وقصص، وأمثال، وشعر. كانت التوراة فى الأصل شفهية متداولة بين اليهود، إلى أن دونت نحو عام ٤٤٠ قبل الميلاد. أما التلمود فكلمة عبرية معناها التعليم والإرشاد (ومنها كلمة التلميذ فى العربية)، والتلمود هو الأدب الدينى لليهود والذى نشأ فى القرن الرابع الميلادى. بعد تشتت اليهود عام ٧٠ م، انمحا اثر الصدوقيون (طائفة يهودية)، وورث رجال الدين اليهودى بعد ذلك تقاليد الفريسيين (طائفة يهودية أخرى). أصبحت هذه التقاليد، وروايات هذه الطائفة الأخيرة هى الشريعة الشفوية لليهود الذين أضافوها إلى أسفار موسى الخمسة. أن القصة التى تروى تاريخهم خلال الألف سنة الأولى مع الشريعة الشفوية، أخذت صورتها النهائية وعرفت بالمشنا. أما القرون الثمانية التالية والتى تجمعت فيها ثمار الجدل، والأحكام، والإيضاح فجمعت فيما يسمى بالجمارتين (من كلمة جمارا العبرية). بانضملم المشنا مع الجمارتين فى صورته المختصرة يتألف ما يسمى بالتلمود الفلسطينى، أما المشنا مع الصورة الموسعة للجمارتين فيسمى بالتلمود البابلى. كان أول ما يدرس للطفل اليهودى فى الشتات هو اللغة العبرية وأسفار موسى الخمسة، فإذا بلغ العاشرة من عمره بدأ يدرس المشنا، وفى الثالثة عشرة يأخذ فى دراسة الأجزاء الرئيسية من التلمود، تاركا الدراسة التفصيلية للتلمود للذين يواصلوا الدراسات الدينية.

يمكن تلخيص قصة بنى إسرائيل فى أسطر قليلة. كانت البداية منذ حوالى ٤٠٠٠ سنة حين هاجرت قبيلة أو عائلة إبرام / إبراهيم من بلدة صغيرة من بلاد بين النهرين إلى أرض الشام ثم إلى مصر، هربا من ملك مستبد، أو

سعيا وراء رزق الرعى. استوطن أحفاد إبراهيم أرض مصر لمدة أربعمائة سنة (من ١٨٠٠ – ١٤٠٠ ق. م)، حتى اخرج موسى شعبه من بنى إسرائيل إلى أرض الميعاد، ليبدأ صراع طويل ومستمر مع الشعوب التى كانت تستوطن هذه الأراضى، ومنهم العمالقة / الكنعانيين / الفلسطينيين، وهم عرب الحاضر. عصر ملوك إسرائيل من شاول وداود وسليمان، وبناء هيكل سليمان عام ٩٦٠ ق. م. نحو ٥٩٧–٥٨٨ ق. م غزا بنوخذ نصر البابلى أورشليم، وأسر من بنى إسرائيل الكثير، وتم ترحيلهم إلى بابل بعد أن هدم هيكل سليمان، فكان هذا أول شتات لليهود. انتهى اسر بابل عام ٥٣٩ ق. م ليعود اليهود الأسرى إلى القدس. يستولى الإسكندر المقدونى على أورشليم عام ٣٣٢ ق. م، ثم يستولى بومبى الرومانى عليها عام ٦٣ ق. م، ويحرق الرومان الهيكل عام ٧٠ ميلاديا، ويتشتت اليهود للمرة الثانية. أصبحت المنطقة تحت الحكم البيزنطى حتى ٦٣٦ ميلاديا حيث فتحها العرب المسلمين. عاشت المنطقة حروب الصليبيين العديدة فى القرون الوسطى، وحكمت على يد المماليك ثم العثمانيين، ثم تحت الانتداب البريطانى / الفرنسى حتى إنشاء دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨.

سوف تدلنا الأحداث التفصيلية إلى مدى قوة الارتباط الدينى لليهود بأرض الميعاد، وبهيكل سليمان كرمز للعقيدة اليهودية، فالتمسك بالأرض كما روت أسطورة الماسادا هو كيان اليهودى الذى عاش مشتتا وأسيراً لقرون طويلة. لنعيد القصة مرة ثانية بشىء من التفصيل.

الجذور الأولى

إذا كان البشر جميعا من نسل آدم وحواء، فأن قصتنا – طبقا لما جاء فى التوراة تبدأ– من عائلة أبو الأنبياء إبراهيم أو إبرام بن تارح أخو ناحور وهاران، وعم لوط ابن هاران. نشأت العائلة فى بلدة أور الكلدانيين فى بلاد العراق حاليا. نظرة عامة على مدينة أور التى كانت تقع جنوب بابل بالعراق وقريبة من نهر الفرات، والعصر الذى بدأ فيه الأحداث، حيث الحضارة السومرية والحضارة البابلية، وأساطير عن بداية الخلق وطوفان مروع غمر البلاد عقابا لأهلها على ذنب ارتكبه أحد ملوكهم القدامى. لقد كانت أور ذو

حضارة مزدهرة حوالى ٣٥٠٠ قبل الميلاد، تنعم بالرخاء والعظمة، حيث أعظم ملوكها واسمه أور - أنجور الذى حكم جميع بلاد اسيا الغربية ونشر فيها لواء السلام، وأعلن فى جميع المدن السومرية أول كتاب شامل من كتب القانون فى تاريخ العالم. نشر أور- أنجور شرائعه باسم الإله الأعظم "شمش"، كلمة شمش بالعبرية أيضا تعنى شمس بالعربية. كانت الأساطير الدينية لها جذور عميقة فى إنسان ذلك العصر، كما كانت وسيلة للتعليم وفرض السيطرة على عقول الأنام. لقد كان السومريون والبابليون مثل قدماء المصريين يؤمنون بالحياة الأخرى. لقد تشابهت حضارات بين النهرين مع الحضارة المصرية القديمة حيث وجد على الأرجح تبادل ثقافى وتجارى بينهم عن طريق خليج السويس ثم البحر الأحمر فالخليج العربى / الفارسى.

حوالى ٢١٠٠ ق. م قضى أهل عيلام الوافدين من الشمال الشرقى (ما بين إيران والعراق) على حضارة أور فنهبوها ودمروها. ظلت بلاد سومر خاضعة لحكم العيلاميين والعموريين الوافدين من الغرب لمدة مائتى عام حتى جاء حمورابى ملك بابل العظيم من الشمال واستعاد بعض المدن المحتلة وغزا بلاد عيلام وقبض على ملكها وبسط حكمه على عمور وآشور، وانشأ إمبراطورية تعتبر من أعظم إمبراطوريات ذلك الوقت. وعليه فان ظهور إبرام / إبراهيم حوالى ٢٠٠٠ ق. م جاء فى فترة احتلال أور من العيلاميين والعموريين مما يدعم زعم هروب تارح والد إبرام غربا إلى أرض كنعان قريبا من سواحل البحر المتوسط هربا من احتلال أجنبى لبلاده. الكنعانيون هم أبناء كنعان بن حام بن نوح، وهم أول من سكن أرض فلسطين، فالكنعانيين قبيلة سامية جاءت أصلا من الجزيرة العربية نحو ٢٥٠٠ - ٣٥٠٠ قبل الميلاد، أى **قبل وفود بنى إسرائيل إلى هذه المنطقة. استقر الكنعانيون فى أرض فلسطين وأقاموا حضارة راقية.**

كان إبرام متزوجا من سارة التى كانت عاقرا. ارتحل تارح بلده أور آخذا معه ابنه إبرام وابن ابنه لوط وسارة امرأة إبرام، مبتعدين غربا بحوالى ألف وثلاثمائة كيلو متر إلى أرض الكنعانيين (فى بلاد الشام) على الشريط الساحل الشرقى للبحر المتوسط. قد يكون سبب الترحال السعى وراء أرض

خصبة ترعى فيها أغنامهم أو هرب من وضع سيسى معين، أو بعدا عن طغيه مستبد يحكم البلاد. مات تارح أبو إبرام قبل الوصول إلى أرض كنعان، وأكمل الرحلة إبرام مع امرأته سارة وابن أخيه لوط. سكن إبرام بلدة شكيم والتى تبعد حوالى خمسون كيلو متر من ساحل البحر المتوسط، كما تبعد شمالا عن أورشليم القدس بنفس المسافة تقريب، ثم نقل إبرام سكنه ومكان عبادته إلى الجبل الشرقى بيت إيل بالقرب من اورشليم القدس. حدث جدب ومجاعة فى الأرض التى سكنها إبرام، فارتحل إبرام جنوبا إلى أرض مصر. فى أرض مصر نصح إبرام زوجته بأن تقول أنها أخته وليست زوجته، خوفا من أن يقتله فرعون. أخذ فرعون سارة لتنضم إلى حريمه فانتقم الرب من فرعون. طلب فرعون من إبرام معرفة حقيقة سارة. لما علم فرعون بأن سارة زوجة إبرام تركها لزوجها، ثم ترك إبرام مصر بعدما أنعم عليه فرعون مصر بالكثير من المواشى، والوافر من الذهب والفضة وأعطاه هاجر زوجته الثانية المصرية. عاد إبرام مرة ثانية إلى أرض الكنعانيين فى بيت إيل سكنه الأول. حدثت مخاصمة بين رعاة مواشى إبرام ورعاة مواشى لوط، فقرر إبرام ولوط الفراق، فارتحل لوط شرقا إلى أرض سادوم، وسكن إبرام فى أرض كنعان. نقل إبرام مكان سكنه إلى حبرون والتى تقع بالقرب من أورشليم القدس وبيت لحم جنوبا.

انجب إبرام من زوجته المصرية هاجر إسماعيل، ثم رزق من زوجته العاقر سارة بولد آخر وهو إسحاق وهى فى سن متأخرة من العمر بعد أن وعدها الرب بالإنجاب. وتغير اسم إبرام إلى إبراهيم. ارتحل إبراهيم مع زوجته سارة وابنه إسماعيل إلى الجزيرة العربية، وترك إبراهيم سارة مع ابنها إسماعيل هناك حيث تفجرت بئر زمزم ليروا ظمأهم. عاد إبراهيم إلى عائلته الأولى، سارة وابنها إسحاق. توالت الأحداث والترحال ومات إبراهيم بعد أن وعده الرب بأن يقتسما نسل أولاده إسماعيل (العرب حاليا) وإسحاق (إسرائيل حاليا) الأرض التى رأتها عينه، ليمتد صراع بين أولاد العم لقرون طويلة، صراع من أجل الأرض، والثروة، والأماكن المقدسة.

لم يشأ إبراهيم أن يزوج ابنه إسحاق من الكنعانيين، فأرسل أحد عبيده إلى حران – شمال العراق القديم – ليأخذ لابنه زوجة من الآراميين. كانت رفقة زوجة إسحاق عاقراً، فدعى إسحاق إلى الرب، واستجاب الرب لدعائه. رزق إسحاق بغلامين، هما يعقوب وعيسو. وتحدث سفر التكوين وهو السفر الأول من أسفار اليهود الخمس عن مناوشات حدثت بين عائلة إسحاق والفلسطينيون على آبار ماء. كبر الغلامين وافترقا بعد أن تصادما، وهرب يعقوب من وجه أخيه عيسو إلى حران، وتزوج يعقوب من ليئة وراحيل وانجب منهما ومن جواريه. حدث أن صارع يعقوب إنسان حتى طلوع الفجر، وعند طلوع الفجر طلب منه هذا الإنسان، (أو ملاك فى صورة إنسان) أن يتركه لان نور الصباح قد بدأ يبدد ظلام الليل، فلم يتركه يعقوب حتى يباركه، فباركه وتحول اسمه من يعقوب إلى إسرائيل لأنه جاهد مع الله. (كلمة ايل تعنى الإله. ـ أما كلمة اسرا فتعنى المصارع أو المجاهد) ارتحل يعقوب وعائلته إلى أرض كنعان (فى بلاد الشام). وتجدد ليعقوب العهد بأن يأخذ هو ونسله الأرض التى أعطيت وعدا لإبراهيم وإسحاق.

كان يوسف بن يعقوب /إسرائيل احب أبنائه إليه لأنه كان ابن شيخوخته فانزرع الحقد بين اخوته وأبغضوه. عندما كان يوسف يرعى الغنم مع أخوته تآمروا عليه وأرادوا قتله، ولكن أشار أحد اخوته إلى رميه فى بئر ليس به ماء بدلا من قتله، ثم باعوه إلى قافلة فى طريقها إلى مصر وذهبوا إلى أبوهم يعقوب وزعموا أن ذئب افترسه. اشترى يوسف إحدى رجال فرعون الذى جعله قائم على داره. هامت امرأة سيد بيت يوسف به لأنه كان حسن الصورة والمنظر، ولكن يوسف قاوم الإغراء ورفض الخيانة. وضع يوسف فى السجن بعد أن اتهمته زوجة سيده ظلما. حدث فى السجن أن ساقى فرعون مصر وخبازه واللذان كانا محبوسين مع يوسف أن حلما فى ليلة واحدة، ففسر يوسف حلمها وأخبرهما بأن الساقى سيخرج من السجن، أما الخباز فسيأمر فرعون مصر بقتله، وطلب من الساقى أن يتذكره عن سيده فرعون. وتحققت الأحلام وخدم ساقى فرعون فى قصره مرة ثانية، ولكنه نسى وعده ليوسف. بعد زمن حلم فرعون بأن سبع بقرات عجاف، هزيلة المنظر وقبيحة، أكلت سبع بقرات

سمان وحسنة الصورة، وان سبع سنابل يابسات ابتلعت سبع سنابل خضر ممتلئة. دعى فرعون مصر جميع سحرة وحكماء البلاد من شمالها إلى جنوبها وقص عليهم فرعون الحلم طالبا تفسيره، ولكن فشل الجميع فى تفسير حلم فرعون. تذكر ساقى فرعون يوسف ورشحه لدى الفرعون لتفسير حلمه. قال يوسف لفرعون مصر أن الحلم واحد وان السبع بقرات السمان والسبع سنابل الممتلئة هى سبع سنوات ستمر على أرض مصر رغدا وفائض فى المحصول، أما السبع بقرات العجاف والسبع سنابل اليابسات هى سبع سنوات ستمر على أرض مصر جوعا شديدا. أعجب فرعون مصر بحكمة يوسف وعينه وزيرا للمالية والتموين، وجاءت سنوات الشبع والخير الكثير فخزن يوسف الكثير من القمح والحبوب، ثم جاءت السنوات العجاف وعمت أرض مصر وجيرانها الجوع والفقر، فأخرج يوسف المخزون وباع للمصريين والتجار من خارج مصر، وربح الكثير وازدهرت البلاد.

أشار يعقوب على أولاده عندما عم الجدب أرضه بالنزول إلى مصر لشراء قمح، ولم يرسل معهم بنيامين أخو يوسف. أتى بنو إسرائيل مصر ليشتروا قمحا وسجدوا ليوسف، فعرفهم يوسف ولكنهم لم يعرفوه، وتحقق الحلم القديم ليوسف الذى رآه وهو طفل صغير، قبل أن يرموه اخوته فى الجب بأن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر سيسجدون له. سارت أحداث القصة حتى أمر يوسف بأن يحضروا بنو إسرائيل من أرض كنعان إلى أرض مصر حوالى ١٨٠٠ ق. م وارتحل يعقوب / إسرائيل مع عشيرته عن أرض كنعان إلى بئر سبع، أول صحراء النقب بالقرب من غزة ورفح، وذبح ذبائح، واخذ وعد من الرب بأن يجعل له أمه عظيمة، فقام بنو إسرائيل وتركوا بئر سبع متجهين إلى أرض مصر، وتقابل الأب يعقوب / إسرائيل مع ابنه يوسف بعد فراق دام سنوات طوال فى لقاء درامى، والتئم شمل الأسرة فى أرض مصر. اسكن يوسف أباه واخوته وأعطاهم ملكا عظيما فى أرض (جاسان - الشرقية) بمصر، ونعم بنو إسرائيل بخيرات مصر وأثمروا وكثروا، وعاش يعقوب فى أرض مصر سبع عشرة سنة، وعندما حان أجله طلب من أبنائه دفنه مع آبائه خارج

أرض مصر، فى أرض كنعان مع إبراهيم واسحق، ودفن يوسف واخوته أباهم يعقوب كما أراد. كان أولاد يعقوب / إسرائيل اثنى عشر هم أسباط إسرائيل.

مات فرعون مصر نصير يوسف وجاء إلى الحكم فرعون آخر لا يحمل ليوسف حباً أو صفاءً، فاستعبد المصريون بنى إسرائيل. وبعد حوالى ٣٥٠ سنة من وفود بنى إسرائيل أرض مصر، أمر فرعون مصر أن يقتل أى صبى يولد لبنى إسرائيل. حدث وان ولد طفل لبنى إسرائيل فخبئته أمه ثلاثة شهور ثم وضعته فى سلة وغطته بأوراق البردى لحمايته من الشمس ووضعته فى النيل، وأوصت ابنتها الكبيرة بمراقبة السلة التى بها الطفل عندما يسير بها التيار. رأت السلة، ابنة فرعون التى كانت تغتسل فى النيل وطلبت من جواريها إحضار السلة، فلما أحضروها لها رأت الطفل الصغير يبكى فرق قلبها، وقالت أخت الطفل التى كانت تراقب الموقف انه طفل من العبرانيين، واستأذنت ابنة فرعون لإحضار مرضعة عبرانية لإرضاع الطفل، فوافقت ابنة فرعون، وتم إحضار أم الطفل لإرضاعه دون أن تعرف ابنة فرعون أن المرضعة هى أم هذا الطفل. سمى الطفل موسى الذى شب وكبر فى كنف فرعون مصر، وتربى فى قصره.

حدث بعد ذلك أن موسى قد رأى رجلا مصريا يضرب رجلا عبرانيا، فتضامن موسى مع العبرانى وتعارك مع المصرى وقتله. وجد موسى أن سر قتله للمصرى سينكشف بعد تدخله فى عراك بين عبرانيان، فهدده إحداهما بفشى سر قتله للمصرى فهرب موسى إلى أرض مدين بسيناء، وتزوج إحدى بنات كاهن مدين بعد موقف شهامة منه بطرد رعاة يتسابقوا فى سقى الأغنام تاركين بنات كاهن مدين لا يستطعن سقى أغنامهن. عاش موسى سنوات فى بلاد مدين، يخدم حماه مقابل زواجه من ابنته، وتوالت الأحداث وطلب الله من موسى إنقاذ بنى إسرائيل من نير المصريين والصعود بهم إلى أرض الميعاد، أرض الأجداد مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين وغيرهم حيث الأرض تفيض لبنا وعسلا. كان موسى ثقيل اللسان فطلب من الله أن يكون هارون أخاه نصيره، يتكلم بلسانه ويؤيده. استأذن موسى حماه للعودة إلى أهله فى أرض مصر آخذا معه امرأته وبنيه. استقبل هارون موسى فى الصحراء قبل وصوله

إلى مدينة فرعون، وتكلم هارون بلسان موسى أمام شعب إسرائيل، ووضع الآيات العجاب التى أوحى بها الرب له، فآمن شعب إسرائيل بموسى. دخل موسى وهارون على فرعون مصر وطلبا منه باسم الرب السماح لشعب إسرائيل للعودة إلى أرض الأجداد أو أرض الميعاد، فطلب فرعون آية بصدق كلامهما، فرمى موسى عصاه أمام فرعون فصارت ثعبانا، فدعى فرعون السحرة، فرمى كل ساحر عصاه لتصبح ثعبانا، ولكن ثعبان موسى ابتلع كل ثعابين السحرة، وتوالت الآيات من إدخال موسى يده داخل ملابسه ثم يخرجها فإذا هى بيضاء مثل الثلج، وخروج موسى إلى أنهار مصر وروافدها ليلمس مياهها فتصير دما، ويعم الدم كل مياه مصر وأخشابها وأحجارها، فتموت الأسماك ولا يستطيع المصريون أن يشربوا من مياه أنهارهم أو يأكلوا أسماكها، كل هذا وفرعون معنت ورافض لإطلاق سراح بنى إسرائيل، فيزيد الله من آياته وعقابه لآل فرعون فيفيض النهر بالضفادع حتى تغطى الأرض كلها وتدخل إلى البيوت والمخادع، وتكرر العقاب بانتشار البعوض والذباب والجراد فى أرض مصر، هذا وفرعون مازال فى عناده وغلظة قلبه. ثم تموت مواشى المصريين دون مواشى إسرائيل، وتنتشر الدمامل على أهل مصر وعلى بهائمها ويعم البرد والمطر، والرعد والبرق كل تخوم مصر، وتنتشر النار فى وسط البرد تلتهم الناس والزرع والبهائم. فرض الرب نوع آخر من العقاب على المصريين ليترك فرعون اليهود يخرجون من مصر، بأن حل الظلام كل أرض مصر لمدة ثلاثة أيام لم يبصر أحداً من المصريين أخاه. كل هذا العقاب الذى ينزل على المصريين وفرعون مصر لا يلين قلبه لإطلاق سراح شعب الله المختار للعودة إلى أرض الميعاد. لقد قاسى المصريون القدامى منكم كثيرا يا بنى إسرائيل. هذا ما ذكرته عقيدتكم وكتبكم الدينية.

وكان الفصل الأخير فى قصة خروج اليهود من مصر طبقا لما ورد فى سفر الخروج، طلب كل يهودى من جاره أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا على سبيل السلف، وتسلل بنى إسرائيل فى منتصف الليل خارجين من أرض مصر متجهين إلى أرض الميعاد، تاركين المصريين فى صراخ ونواح لموت كل بكر من أهل مصر، حتى البهائم لم تسلم من نكبة الموت. طلب الرب من بنى

إسرائيل أن يضعوا علامة من الدم على كل بيت من بيوتهم حتى يتجنبوا ملاك الموت الذى حصد من المصريين الكثير. حمل بنى إسرائيل أمتعتهم ومواشيهم وعجينهم قبل أن يختمر، وكل ما حصلوا عليه من المصريين وارتحلوا شرقا إلى أرض الميعاد. وحسب ما جاء فى سفر الخروج كانت إقامة بنى إسرائيل فى أرض مصر أربعمائة وثلاثين سنة. ارتحل موسى وهارون ببنى إسرائيل، كان عمود سحب يسير أمامهم نهارا، وعمود نار يضيء لهم ليلا ليهديهم أثناء رحلة العودة إلى أرض الميعاد.

خرج فرعون مصر وجنوده وراء بنى إسرائيل، فتذمروا على موسى واتهموه بأنه أخرجهم من أرض مصر حتى يموتون فى البرية، وتمنوا أن يظلوا يخدموا المصريين عن الموت فى الصحراء، حيث كان البحر أمام بنى إسرائيل وجنود فرعون ورائهم. وحدثت المعجزة ، بأن رفع موسى عصاه ومد يده إلى البحر وشقه ودخل بنى إسرائيل فى وسط البحر والماء سور لهم على الجانبين وساروا على اليابسة حتى اجتازوا البحر. كان جنود فرعون فى أثر بنى إسرائيل، ولكن موسى مد يده على البحر مرة ثانية بعد اجتياز بنى إسرائيل البحر، فرجع البحر إلى حالته الأولى والمصريين فى وسطه دون أن يجتازوه فغرق فرعون مصر وجنوده. تذمر بنو إسرائيل كثيرا أثناء رحلة العودة إلى أرض الميعاد (فى بلاد الشام)، تارة من أجل الماء، وأخرى من أجل الطعام، متمنين العودة مرة ثانية إلى أرض مصر حيث يوجد الثوم والبصل بوفره، وحيث مياه النيل تجرى فى كل مكان، فأنزل الله لهم من السماء المن والسلوى يجمعوه كل أيام الأسبوع عدا يوم السبت، ولكن كانت الكمية مضاعفة فى اليوم السابق. عصا بنى إسرائيل أوامر موسى كثيرا واحتجوا عليه، فسخط عليهم موسى ولكن لم يتخلى عنهم بل طلب من الله أن يسامحهم، لأنهم شعب الله المختار الذى وعدهم بأرض الميعاد.

تقابل موسى مع حماه فى البرية، الذى نصحه نظرا لكثرة مشاغله والمشاكل الكثيرة لبنى إسرائيل، باختيار القدير من بنى إسرائيل ليجعلهم رؤساء على الشعب، للنظر فى الدعاوى الصغيرة أما الدعاوى العسيرة فكانوا يرفعوها إلى موسى. سمع موسى نصيحة حماه ونفذها بعد ثلاثة شهور من الخروج،

وفى برية سيناء صعد موسى إلى الجبل المقدس وتلقى الوصايا العشر، والأحكام والشريعة التى سيسير على هداها بنو إسرائيل تاركا أخاه هارون مع شعب الله المختار، وقضى موسى فى الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة.

رأى بنو إسرائيل أن موسى قد أبطأ فى النزول من الجبل، فطلبوا من هارون أن يصنع لهم إلها يسير أمامهم، فنزعوا أقراط الذهب من أذان نسائهم وجمعوا الذهب الذى أخذوه من المصريين وصنعوا به عجلا مسبوكا كى يعبدوه. نزل موسى من الجبل حاملا لوحان منقوش عليهما الوصايا العشر، فلما سمع ورأى صوت غناء ورقص شعبه حول العجل المسبوك غضب وعاتب هارون، ونزل العقاب على بنى إسرائيل بأن يقتل كل واحد أخاه أو صاحبه أو قريبه حتى بلغ عدد القتلى ثلاثة آلاف.

جاء فى الوصية الأولى من الوصايا العشر أساس المجتمع الدينى الجديد، وهو مجتمع يقوم على فكرة الله الملك القدوس الذى لا تدركه الأبصار، والذى أنزل كل قانون، وفرض كل عقوبة، والذى سمى شعبه باسم شعب إسرائيل، أى المدافعين عن الله. حرمت الوصية الثانية أن يكون لله أى صورة مرسومة أو منحوتة، أو مسبوكة، أو أوثان، أو أصنام. تنطق الوصية الثالثة بما كان يستمسك به اليهودى من تقى وتدين، ويحرم على اليهودى أن ينطق باسم الله عبثا. قدست الوصية الرابعة يوم السبت كراحة أسبوعية، فعلى اليهودى أن يعمل فقط ستة أيام فى الأسبوع. تختص الوصية الخامسة بوضع الأسرة وتضعها الشرعية اليهودية من حيث بناء المجتمع فى منزلة لا تفوقها إلا منزلة الهيكل، للأب سلطان كبير على أسرته التى يجب أن تكون متماسكة ومتحابة. تختص الوصية السادسة بالحديث عن الصراع، والقتل والتدمير، والتناسل لتعويض ما قتل من بنى إسرائيل. تقوم الوصية السابعة على أن الزواج هو أساس الأسرة. نهت الوصايا عن السرقة، والزنا، والشهادة الزور، جاء فى الوصايا أيضا أن لبنى إسرائيل عقلية متميزة عن باقى خلق الله. ونصت الوصايا على أن الجزاء من نفس نوع الفعل، كما يفعل الإنسان يفعل به، كسر بكسر، وعين بعين، وسن بسن. كما أحدث عيبا فى الإنسان كذلك يحدث فيه. الأرض يزرعوها ويحصدوها ستة سنوات، ثم تستريح الأرض فى السنة

السابعة حيث لا زرع أو حصاد، لأنها سنة سبت الأرض. لا ملكية للأرض، فالأرض تستخدم سبع سنين سبع مرات (٤٩ سنة) وتقدس السنة الخمسون وينادى بالعتق فى الأرض لجميع سكانها، أى من يريد استخدامها أن يبدأ من جديد. والأرض لا تباع لأنها ملك للرب. كل عشر الأرض من حبوب الأرض وأثمار الشجر فهو للرب.

كان عدد بنى إسرائيل الذين خرجوا من مصر طبقا لما جاء فى سفر (العدد) ستة مائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسون، من اثنى عشر سبطا (أولاد يعقوب/إسرائيل). فى الشهر الثانى من السنة الثانية ارتحل بنو إسرائيل من برية سيناء إلى أرض الميعاد حاملين معهم تابوت العهد. لم يكف بنو إسرائيل من الشكوى والتذمر متذكرين اللحم والسمك والبصل والثوم والكرات، وما لذ وطاب من خيرات مصر، نادمين على تركهم أرض مصر، ويتكرر التذمر والندم على الخروج من مصر كلما مر بهم جوع أو ضيق أو مشقة. نعم أرض مصر طيعة وطيبة، خصبة وخيرة، سهل العيش فيها، ولكن سهولة الحياة فى مصر أثرت على شخصية المصرى، فتشرب الاستكانة وعدم تحمل المخاطر والمشاق.

كان خوف بنى إسرائيل من العمالقة / الكنعانيين هو الذى أدى بهم إلى معصية الله فعاقبهم بالتيه (ضلوا الطريق إلى أرض الميعاد) فى سيناء لمدة أربعون عاما. جاء فى كتاب الدكتور / جمال حمدان : (فلسطين أولا . . . . . إسرائيل) أن الحكمة من التيه، الذى امتد إلى مدى جيل كامل فى بيئة صحراوية قاسية جغرافيا، هو إخضاع بنى إسرائيل لعملية صارمة من الانتخاب الطبيعى، تصفى فيها وتستبعد العناصر الضعيفة الحائرة، وتنتخب العناصر القوية الصلبة التى تصلح لحملة الرسالة وتكملة المسيرة، والكفاح من أجل انتزاع أرض الميعاد من مستوطنيها.

أخيرا وصل بنو إسرائيل إلى أرض الميعاد أى أرض كنعان عن طريق الأردن بعد رحلة طويلة وشاقة انزل فيها الشريعة، وحدث فيها تذمر وندم على ترك مصر، وقتال مع بعض القبائل وأهل البلاد التى مروا من خلال

أرضها ومنهم بالطبع أهل فلسطين. مات موسى قبل أن يصل بشعبه إلى أرض الميعاد، لقد تحمل الكثير من بنى إسرائيل من أجل أرض لم يراها. غضب رب بنى إسرائيل على موسى فلم يسمح له أن يصل إلى أرض الميعاد، ولكن الرب سمح له فقط أن يصعد إلى مكان مقابل أريحا ويرى الأرض بعينيه دون أن يعبر إليها. أمر الله موسى أن يوصى يوشع بن نون ليعبر بشعب بنى إسرائيل إلى أرض الميعاد. أوصى موسى شعبه أنهم حين يعبرون نهر الأردن إلى أرض الميعاد فإنهم يشيدون حجارة كبيرة فى جبل عيبال ويكلسونها بالكلس ويكتبون عليها جميع كلمات الناموس بنقش جيد ويبنون مذبحا للرب من حجارة غير منحوتة بالحديد، ويصعدون عليه محرقات للرب، وفقا لتعليمات الرب التى وردت فى الوصايا العشر. ثم بدأ موسى يعلمهم الوصايا والفروض والشرائع، وبعد أن انتهى موسى من تلقينهم الشريعة قال لشعبه تشجعوا، لا تخافوا ولا ترهبوا، لأن الرب إلهكم سائر أمامكم، لا يهملكم ولا يتركم.

انتهى الفصل الأول ليبدأ فصل جديد من قصة طويلة لصراع لم ينتهى حتى الآن.

لعبت المرأة دور فى الصراع بين الإسرائيليين والفلسطينيين. حدثنا العهد القديم عن قصة شمشون الإسرائيلى ذو القوة الخارقة، والذى أراد الزواج من امرأة من بنات الفلسطينيين فرفضا أبواه، وكان الفلسطينيون فى ذلك الوقت متسلطين على إسرائيل، وكانت العلاقات متوترة والصراع قائماً بين بنى إسرائيل وشعب فلسطين. استغل شمشون قوته فى النيل من الفلسطينيين فأشعل النار فى زروعهم وأحرق أشجار الكروم والزيتون. كانت القصة تدور فى بلدة غزة أو بالقرب منها حيث يسكن أهل فلسطين. لم يجد الفلسطينيون حلا لإيقاف جبروت شمشون إلا الاتفاق مع امرأة تسمى دليلة للإيقاع بشمشون لمعرفة سر قوته مقابل مبلغ كبير من المال. بعد عده محاولات استطاعت دليلة أن تعرف أن سر قوة شمشون فى شعره. وبالدهاء الأنثوى للمرأة أنامت دليله شمشون على ركبتيها وحلقت سبع خصل من رأسه، ففارقته قوته، فأخذه الفلسطينيون وقلعوا عينيه ونزلوا به إلى غزة، وأوثقوه بسلاسل من نحاس، ورموه فى السجن. بدأ شعر شمشون ينبت دون أى يتنبه إلى ذلك الفلسطينيون حيث جرى

العزم على ذبحه لما أحدثه من خراب وقتل. سحب شمشون من السجن وأوقفوه بين أعمدة هيكل أو بيت كبير للفلسطينيين، حيث كان الهيكل مملوءا بأكثر من ثلاثة آلاف رجل وامرأة من أهل فلسطين. قبض شمشون على العمودين المتوسطين اللذين كان البيت قائما عليهما واستند عليهما الواحد بيمينه والآخر بيساره وقال شمشون : (لتمت نفسى مع الفلسطينيين)، وانحنى بقوة فسقط الهيكل أو البيت الضخم على الفلسطينيين فأمات منهم أكثر من الذين أماتهم فى حياته.

فى الإصحاح الرابع لسفر صموئيل الأول، جاء ذكر حرب أخرى من الحروب الكثيرة التى دارت بين الإسرائيليين والفلسطينيين، انهزم فيها بنو إسرائيل وقتل من قتل وهرب من هرب. كانت الضربة عظيمة جدا، فقد سقط من إسرائيل ثلاثون ألف رجل، وأخذ الفلسطينيين التابوت المقدس منهم مدة سبعة شهور ثم أعادوه عندما حلت الكوارث على الفلسطينيين جراء الاحتفاظ بالتابوت.

ثم قامت الحرب مرة ثانية بين الفلسطينيين والإسرائيليين بقيادة صموئيل، وكانت الهزيمة هذه المرة للفلسطينيين، ورجعت الأرض التى أخذها الفلسطينيين مرة ثانية إلى بنى إسرائيل. تجدد الصراع أيام الإسرائيلى شاول الذى أخذ الملك على إسرائيل وحارب العمونيين والفلسطينيين والعماليق وغيرهم من الشعوب التى سكنت الأراضى المجاورة وتغلب عليهم شاول.

تقابلت إسرائيل وفلسطين فى معركة جديدة، اصطف كل فريق أمام الآخر. برز رجل فلسطينى أسمه جليات ودعى الإسرائيليين إلى مبارزة، لكن خاف جميع رجال إسرائيل وهربوا. طلب داود الذى كان مازال غلام صغير من شاول أن يذهب ليقاتل الفلسطينى جليات لمرات عديدة، فتعجب شاول أن يحارب غلام صغير رجل حرب كبير. صمم داود على الذهاب بعد سرد مواقف ظهرت فيها شجاعته، فوافق شاول على ذهاب داوود لمحاربة الفلسطينى. وتسلح داود بعصا وخمسة حجارة ملساء من الوادى وذهب لمقابلة جليات المسلح بسيف ورمح وترس. رمى داود جليات بحجر بالمقلاع فى جبهته

فسقط على وجهه إلى الأرض، وركض داود ووقف على الفلسطينى وأخذ سيفه وقطع به رأسه، فتشجع بنو إسرائيل ولحقوا بالفلسطينيين وهزموهم، ونهبوا محلاتهم، وأخذ داود رأس الفلسطينى وأتى به إلى أورشليم. لعبت الغيرة فى قلب شاول من داود وحقد عليه لصعود مجده، فوعد شاول داود أن يزوجه ابنته على أن يكون المهر قتل الفلسطينيين. كان شاول يأمل أن يقتل الفلسطينيين داود ويتخلص منه، ولكن انتصر داود وتزوج من ميكال ابنه شاول. بعد أن حاول يوناثان ابن شاول أن يوفق بين أبيه وداود فشلت المحاولة وعاد شاول لمحاوله قتل داود عده مرات فى احداث مثيرة تتخللها قتال داود للفلسطينيين وادعائه الجنون أمام اخييش ملك جت، بعد هروبه من شاول. أخيرا ندم شاول على محاولاته قتل داود وبكى أمامه بعد أن أتيحت فرصة لداود لقتل شاول ولكنه أنبه فقط ولم يقتله. وتكررت قصص حروب داود والفلسطينيين.

وفى إحدى الحروب بين شاول والفلسطينيين، اشتدت الحرب على شاول وابناؤه الثلاثة، وماتوا جميعا مع جميع رجاله، فأصبح داود ملكا على مملكة يهوذا أولا ثم ملكا على مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا ووحد داود مملكتى بنى اسرائيل، فى مملكة إسرائيل الكبرى.

مات داود، وتولى الملك من بعده ابنه سليمان الحكيم، الذى صاهر فرعون مصر وتزوج ابنته، وأتى بها إلى مدينة داود إلى أن أكمل بناء بيته ومعبده، وسور أورشليم حواليها. كان سليمان متسلطا على جميع ممالك إسرائيل من نهر الأردن، الى أرض فلسطين، وإلى حدود مصر. واصل سليمان العلاقات الطيبة مع حيرام ملك صور بجنوب لبنان وزادت العلاقة التجارية بين المملكتين القريبتين، فكانت إسرائيل تستورد خشب الأرز وخشب السرو من صور، وكانت صور تستورد الحبوب والزيوت من إسرائيل.

فى حوالى ٩٦٠ قبل الميلاد، وفى السنة الرابعة لملك سليمان على إسرائيل بدأ سليمان فى بناء الهيكل المقدس فى اورشليم (بيت الرب - المعبد)، من خشب الأرز ومن حجارة جبال لبنان، وغشى سليمان الهيكل من الداخل بذهب خالص، وسد بسلاسل ذهب أمام المحراب، كما كانت أرضية الهيكل من

الذهب أيضا. وفى السنة الحادية عشرة من حكمه انتهى العمل فى الهيكل، أى تم بناء الهيكل فى سبع سنين. ثم حول سليمن جميع أقداس دواد ابيه، الفضة والذهب والأنية إلى خزائن الهيكل. جمع سليمان شيوخ إسرائيل، وكل رؤوس الأسباط فى اورشليم، لنقل تابوت العهد من مدينة داود إلى الهيكل فى اورشليم لم يكن فى التابوت إلا لوحا حجر موسى المنقوش عليهما وصيا الرب لبنى إسرائيل.

دشن بنى اسرائيل الهيكل بذبح القرابين والتى بلغت آلاف من الغنم والبقر. عاشت اسرائيل ازهى عصورها القديمة فى عهد سليمان، فتشعبت العلاقات التجارية مع الدول المتاخمة مثل لبنان ومصر، ووصلت قوافله وسفنه إلى افريقيا عن طريق البحر الاحمر وإلى بعض مدن البحر المتوسط. كان سليمان رجل حكمة واقتصاد، لا رجل حرب وصراع، فازدهرت الحالة الاقتصادية لبنى اسرائيل وعاش شعبها فى رفاهية طوال ملك سليمان.

زاعت شهرة سليمان فى البلاد المجاورة، فأتت ملكة سبأ إلى أورشليم بموكب عظيم حاملة الذهب والفضة والأحجار الكريمة، وعاشت مدة فى ضيافة سليمان حتى عادت إلى بلادها. أحب الملك سليمن نساء كثيرة مع بنت فرعون زوجته، من موابيان وعمونيات، وأدوميات، وصيدونيات وحيثيات، من الأمم التى قال عنهم رب اسرائيل لبنى اسرائيل: (لاتدخولون إليهم، وهم لايدخلون إليكم لانهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم). كان لدى سليمان عند شيخوته سبع مائة من النساء، وثلاثمائة من السرارى. ذهب سليمان وراء آلهة الصيدوينون (أهل صيدا) مثل عشروت، وغضب رب اسرائيل من سليمان ومزق مملكته.

مات سليمان وتوالت الملوك على إسرائيل، بعد أن انشطرت مملكة إسرائيل الكبرى إلى مملكتين فى عهد سليمان، الأولى مملكة يهوذا جنوبا، وتضم قبيلتى يهودا وبنيامين، والثانية مملكة اسرائيل شمالا فى السامرة وتضم القبائل العشرة الباقية. أصبحت المملكتين متعاديتين ومتحاربتين، ووقعتا فى سياسة المضاربة بين مصر، وبلاد بين النهرين (بابل وآشور - العراق حاليا) أو الخضوع لهما. قضى الملك الآشورى سرجون على المملكة الشمالية فى

القرن الثامن قبل الميلاد (نحو عام ٧٢١ ق. م)، ونحو عام ٥٩٧ قبل الميلاد غزا بنوخذ نصر ملك بابل اورشليم، وحاصرها لمدة عامين، لما اشتد الجوع على الاسرائيليين استسلمت المدينة، وهرب شعبها ليلا، ولكن جيوش بنوخذ نصر أسرت الكثيرمن الاسرائيليين ونقلوهم إلى بابل وبلغ عدد الأسرى حوالي عشرة الاف من الرؤساء والصناع، ولم يبقى فى المدينة إلا مساكين وضعفاء الشعب الاسرائيلى. ونحو عام ٥٨٨ قبل الميلاد دخل البابلين اورشليم ودمروا هيكل سليمان وسلبوا خزائن ومقدسات الهيكل.

بعد قرن من الزمان، عاش فيه بنو إسرائيل أسرى فى بابل، غزا قورش الفارسى بابل، وأباح لليهود أن يعودوا إلى أورشليم، بل أعاد لهم ماكان باقيا فى خزائن الدولة البابلية من الذهب والفضة اللذين اغتصبهما بنوخذ نصر من هيكل سليمان. لم يتحمس شباب بنى اسرائيل للعودة إلى اورشليم، لان الكثير منهم قد اعتادوا على الحياة فى بلاد بابل، وترددوا طويلا فى ترك حقولهم الخصبة، وتجارتهم الرائجة، وأساطيرهم المثيرة. أذن دارا الأول ملك الفرس للامير زر بابل أن يعيد بناء الهيكل، فأتموا بنائه بعد اثنتى عشرة سنة من عودة اليهود إلى اورشليم.

تدلنا القصص التاريخية السابقة على ان الصراع بين بنى اسرائيل والمصريين كان صراعا من أجل الخروج، أما الصراع مع الفلسطينيين فكان صراع على الوجود. ما فعله موسى مع أهل مصر كان ضغطا على فرعون للسماح للاسرائيليين بالخروج من مصر، أما الصراع الطويل مع أهل فلسطين فكان بسبب اثبات الذات من خلال التواجد فى مكان واحد، والصراع على أرض واحدة، ومصادر مياه واحدة، كل طرف يطالب بالحق فيها.

اليهودية فى العصرين الهيلينى (اليونانى) والرومانى

قام تاريخ اليهود فى بلاد الشام فى العصر اليونانى حول صراعين اولهما النزاع بين آسيا السلوقية ومصر البطالمة للاستيلاء على بلاد اليهود، وثانيهما الصراع الداخلى بين الثقافتين العبرية والهيلينية (اليونانين المقدونين).

كانت بلاد اليهود الواقعة جنوب السامرة فى التقسيم الاول لامبر طورية الاسكندر الاكبر من نصيب بطليموس. لم يقبل السلوقيين هذا التقسيم حيث وجدوا انفسهم منفصلين عن البحر المتوسط، ولانهم كانوا يتطلعون إلى الاثراء من خلال التجارة المارة بدمشق واورشليم. انتصر بطليموس فى الحروب التى ثارت بسبب هذا النزاع واستولى على بلاد اليهود التى ظلت خاضعة لسلطان البطالمة لاكثر من مائة عام (٣١٨-١٩٨ق. م)، كانت تؤدى فى خلالها الجزيه السنوية للملوك البطالمة، ولكن بالرغم من ذلك ظلت بلاد اليهود زاهرة، يعمها الرخاء والازدهار. ترك البطالمة لبلاد اليهود الحكم الذاتى تحت سلطان كاهن اورشليم الاكبر، والجمعية الوطنية الكبرى.

كان اليهود فى ذلك الوقت يشتغلون بالزراعة، عكس الفينقيون والعرب واليونان الذين كانوا تجارا. ظلت بلاد اليهود تابعة لمصر التى كان يحكمها البطالمة حتى عام ١٩٨ ق. م حين هزم انتيوخوس الثالث بطليموس الخامس فضم بلاد اليهود الى الامبراطورية السلوقية. رحب اليهود باستيلاء انتيوخوس على بلادهم.

تولى الحكم بعد ذلك انتيوخوس الرابع الذى امر اليهود ان يؤدوا الى خزائنه ثلث محصول الحبوب، ونصف محصول الفاكهة، لتمويل حروبه. افتتحت فى اورشليم مدرسة للرياضة البدنية، واشترك شباب اليهود والكهنة وهم عراة فى الالعاب الرياضية، وتحول شباب اليهود من الثقافة اليهودية الى الثقافة الهيلينية، فارتاعت شيوخ بنى اسرائيل من هذه التطورات واحسوا ان دينهم يكاد ان يقضى عليه. لما طرد بوبليوس انتيوخوس الرابع من مصر، شاع فى اورشليم انه قتل، ففرح اليهود المتعصبين للديانة اليهودية، وخلعوا الولاة المعينين من قبله، وقتلوا زعماء الحزب الذى كان يدعوا الى الثقافة الهيلينية، وطهروا الهيكل مما كانوا يرونه منكرا، ولكن انتيوخوس الرابع لم يكن قد مات، فعاد الى اورشليم وذبح آلاف من اليهود، ودنس الهيكل ونهبه، وامر ان يعود الهيكل كما كان ضريحا مقدسا لزيوس، رب الارباب عند اليونانيين، وان يتثقف جميع اليهود بالثقافة اليونانية، وان يقام مذبح يونانى فوق المدبح القديم، وان يستبدل بالقرابين القديمة قربان من الخنازير المحرمة فى الدين اليهودى، ثم

حرم تقديس يوم السبت وأمر بأكل لحم الخنزير، كما حرم الاحتفال بالاعياد اليهودية، وجعل الختان جريمة يعاقب عليها. وأشعل النار في اورشليم وبيع سكانها اليهود في سواق العبيد.

اضطهد اليهود على مر الايام، ولكن أخذ اليهود المتعصبون الذين في ديهم يطوفون على الشعب اليهودي، يدعون إلى المقاومة. ثار الشعب اليهودي بعد ذلك بقيادة اليهودي يوداس المعروف باسم مكابي، وكان شجاعا فكون مجموعة من المقاومة اليهودية التي هزمت اليونانيين، ودخل هيكل سليمان وطهره، وأعاد الصلاة اليهودية في الهيكل.

في عام ١٤٣ قبل الميلاد، انتهز سيمون المكابي فرصة النزاع القائم بين السلوقيين، والبارثيين، والمصريين، والرومان، فانتزع استقلال بلاده من ايدي الملوك السلوقيين، واختارته الجمعية الوطنية قائدا وكاهنا أعلى لدولة إسرائيل، التي أصبحت دولة دينية تحكمها أسرة الكهنة - الملوك. قبل حلول منتصف القرن الأول قبل الميلاد كانت اسرائيل جزءا من الولاية الرومانية. في عام ٣٧ ق. م حكم هيرود اسرائيل بعد أن طرد البارثيين من البلاد وحمى اورشليم من السلب والنهب. لم يكن هيرود يهودي الاصل، كما كانت الثقافة الهيلينية اليونانية سائدة في المدن اليهودية. اتسم عهد هيرود بالرخاء والامان، ونشطت حركة التجارة ودبت الحياة في الاسواق والثغور، وانشأت القصور والمباني الرياضية والحدائق، وتحولت اورشليم الى مدينة يونانية الشكل والثقافة، بصورها وتماثيلها المنحوتة التي تحدت العقيدة اليهودية التي تحرم مثل هذه الفنون. مات هيرود في العام الرابع قبل الميلاد، وقسمت مملكته بين ابنائه الثلاثة الباقين احياء.

كانت اشهر الشيع الدينية اليهودية في الجيل السابق لميلاد المسيح : الصدوقيون، والاسينيون، والفرسيون. كان الصدوقيون الذين سموا بهذا الاسم نسبة إلى صدوق مؤسس هذه الطائفة، يؤمنون بالتوراة والشريعة، ولكنهم كانوا يرفضون الاحاديث والقصص الدينية الشفوية التي كان يتناقلها رجال الدين، كما كانوا يرتابون في البعث وخلود الروح والدار الآخرة. كان الفرسيون أكثر تدينا،

ولكنهم كانوا يجمعون بين الصرامة واللين فى الدين. اما الاسينيون فكانوا أكثر الشيع تطرفا، وقد اشتقت عقائدهم وعبادتهم من نظريات الزهاد ونظمهم التى كانت منتشرة فى المنطقة فى القرن الاول قبل ظهور المسيح، كما تأثروا بالثقافات والاديان الشرقية فى بلاد الهند وفارس. كان الاسينيون يتمسكون بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة، يعيشون معا عيشة الزاهدين، يزرعون الأرض وسط الصحراء الواقعة غرب البحر الميت، يتناولون طعامهم وهم صامتون، وينتخبون زعمائهم بالاقتراع العام، يدعون متاعهم ومكاسبهم فى بيت مال مشترك، كانوا يحيون فى نظام اشتراكى أو شيوعى، مماثل لحياة الكيبوتز المنتشرة حديثا فى إسرائيل.

بعد موت هيرود، تخلى اليهود على حياتهم السلمية السلبية، واعلنوا الثورة على اركلوس خليفة هيرود، فقتل جنود اركلوس ثلاثة آلاف من اليهود الذين كانوا قد جاءوا للاحتفال بعيد الفصح فى العام الرابع قبل الميلاد. عادت ثورة اليهود مرة ثانية، وتألفت عصابات لاغتيال كل من يؤيد الحكم الرومانى، فزحف حاكم سوريا الرومانى على أراضيهم، وهدم منازلهم، وصلب آلاف من الثوار، وباع عشرات الآلاف من اليهود فى أسواق العبيد. ذهب بعض من زعماء اليهود إلى روما، وطلبوا من أغسطس قيصر روما إلغاء الملكية فى إسرائيل، فاستجاب أغسطس لهم وعزل اركلوس وجعل بلاد اليهود ولاية رومانية، وعين عليها حاكما مسئولا أمام والى سوريا. نعمت إسرائيل بفترة سلام قصيرة، حتى تولى كاليجولا حكم روما، فأمر ان تضع تماثيله فى هيكل سليمان، فثار بنو إسرائيل على هذه الإهانة التى تمس دينهم وعقيدتهم التى تحرم التماثيل المنحوتة. نزع موت كاليجولا فتيل الثورة. تولى إسرائيل بعض الحكام الفاسدين الذين عينوا من قبل روما، فتفشى الارهاب، وزادت السرقات. تألفت عصابات من اليهود المتمسكين بعقيدتهم لاغتيال اى يهودى خائن، أو متعاون مع الحكم الرومانى. حدث صدام حاد بين المتطرفين اليهود الذين يمثلون الطبقة الفقيرة من المجتمع اليهودى وبين أثرياء اليهود وأتباعهم وقتل فى هذه الاحداث عشرات الآلاف من اليهود من الجانبين. فى عام ٦٦ ميلاديا استولى الثوار اليهود على اورشليم ومدن يهودية اخرى. أرسلت روما قواتها لتأديب الثوار اليهود،

وحاصرت هذه القوات مدينة اورشليم، وحاول اليهود بعد أن نفذت مؤنتهم اختراق صفوف الرومان للحصول على الطعام، ولكن الرومان اسر منهم الاف وصلبوهم فى الطرق، وفى نهاية الحصار الذى دام حوالى خمسة اشهر ازدحمت المدينة بجثث القتلى من اليهود. قدر بعض المؤرخين عدد القتلى من اليهود اثناء الحصار وبعده فيما يتراوح مابين ستمائة الف، ومليون ومائة الف من اليهود.

استمرت المقاومة والثورة اليهودية فى أماكن متفرقة حتى عام ٧٣ ميلاديا، ولكن فى الواقع، كان تدمير هيكل سليمان عام ٧٠ ميلاديا هو نهاية الدولة الاسرائيلية/اليهودية وبداية التشتت الثانى - بعد التشتت الاول فى بابل - والاخير حتى وقتنا الحالى. ترك بلاد اسرائيل حوالى مليون يهودى انتشروا فى البلاد المجاورة فى بلاد البحر المتوسط وفى بلاد الشام وشمال مصر (مدينة الاسكندرية)، والجزيرة العربية، وبلاد الحبشة، ودول البلقان وروسيا، وآسيا الصغرى، وبعض المدن اليونانية والايطالية، ثم إلى جميع بقاع العالم القديم بعد ذلك.

استوطن اليهود المشتتين البلاد المختلفة بثقافاتهم وعقيدتهم، وتشددهم الدينى، وتقديسهم ليوم السبت. عاش اليهود فى أُحياء خاصة بهم (الجيتو)، منعزلين عن السكان المحليين، على أمل العودة إلى أرض الميعاد. أثار اليهود بعزلتهم، وثقافتهم المختلفة، واسلوب حياتهم، وطمعهم، وذكائهم، الشعوب التى عاشوا بينهم فتعرض اليهود على مر العصور للسخرية، والعداء، والتصفية الجسدية، والطرد، واضطر الكثير منهم التخلى عن دينه ظاهريا، والتمسك بدينه باطنيا وواقعيا، مع غرز العقيدة اليهودية فى الأولاد والأحفاد، وسرد وتكرار قصص عودة شعب الله المختار إلى أرض الميعاد. ونجح اليهود المنتشرين فى جميع بقاع العالم المتكلمين لغات مختلفة فى إنشاء دولة إسرائيل الحديثة، رمز الديانة اليهودية. بينما فشل من لم يشتتوا فى توحيد شعوبهم التى تدين بدين واحد وتتكلم لغة واحدة، برغم المال والحضارة القديمة والتمسك بالعقيدة.

قام صراع بين اليهود والامبراطورية الرومانية فدمرت اورشليم سنة ٧٠ بعد الميلاد وذبحت عددا كبيرا منهم وبيعت النساء والأطفال فى سوق الرقيق، وهاجر معظم اليهود إلى البلاد المجاورة، فكانت الجزيرة العربية واحدة منها، فهاجر إليها عدد كبير من اليهود.

انتشرت اليهودية فى اليمن فى عهد الدولة الحميرية الثانية، فكان أسعد ابن كرب(٣٨٥-٤٢٠م) هو اول من اعتنق اليهودية من ملوك الدولة الحميرية. ارتحل بعض اليهود من شمال صحراء النقب إلى جنوب شبه الجزيرة العربية، وانتشر الدين اليهودى فى مملكة اليمن، وأصبحت المملكة اليمنية يهودية الديانة حتى سقطت عام ٥٢٥م فى يد الاحباش والبيزنطين فتحولت إلى المسيحية.

سكن اليهود أخصب بقاع الحجاز قبل ظهور الإسلام، واستغلوها فى الزراعة والصناعة والتجارة. عاش اليهود فى خيبر، أما يثرب فكانت تسكنها قبيلة تسمى العماليق، وحدثت مصادمات بين العماليق واليهود فى العهود القديمة وتغلب اليهود عليهم واستوطن بعض منهم حول يثرب ولكن لم تظهر هجرة اليهود إلى يثرب بشكل واضح إلا بعد مذبحة الرومان لهم وتشتتهم. اندمج اليهود فى الثقافة العربية مع المحافظة على تراثهم وثقافتهم اليهودية. وذلك حتى يحافظوا على مصالحهم التجارية، فانقسم اليهود مثل العرب إلى قبائل، واتخذ معظمهم أسماء عربية. تكلم اليهود العربية مع إدخال بعض الكلمات والمصطلحات العبرية. ساهم اليهود فى الحياة الاقتصادية فى يثرب وسيطروا على معظم الموارد الاقتصادية، واحتكروا التجارة، وجابت قوافلهم بلاد العرب من اليمن جنوبا وحتى بلاد الشام شمالا، وامتلكوا الضياع الواسعة واهتموا بالزراعة، كما اهتموا بالصناعة خاصة صناعة الأسلحة والمصنوعات الذهبية والآلات الزراعية.

كانت أشهر القبائل اليهودية فى يثرب : بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير. عندما حدث دمار لسد مأرب فى اليمن وخربت السيول الأراضى

لزراعية هاجرت بعض القبائل اليمنية شمالا واستقرت قبيلتين فى يثرب وهما الأوس والخزرج. تحالفت هاتين القبيلتين مع القبائل اليهودية فى أول الأمر حفاظاً على حسن الجوار، والنشاط الاقتصادى الذى قام بينهما من تبادل تجارى وزراعى. ثم حدث خلاف بين قبيلتى قريظة وبنى النضير اليهوديتين، وبين قبيلتى الأوس والخزرج العربيتين. استنجدت الأوس والخزرج بالغساسنة الكائنين ببلاد الشام على أطراف الدولة البيزنطية لمساندتهم فى صراعهم مع القبائل اليهودية. دب الخلاف والشقاق بين القبائل العربية وبدأ العداء بين قبيلة الأوس وقبيلة الخزرج. انتصرت الخزرج على الأوس، فقصدت الأوس قبيلة قريش تطلب منها المساعدة فى صراعها مع الخزرج، ولكن رفضت قريش المساعدة حرصاً على علاقتها التجارية مع باقى القبائل، فذهبت قبيلة الأوس إلى أعداء الأمس وتحالفوا مع بنى قريظة وبنى النضير.

دارت حرب عنيفة تسمى فجار يثرب أو فجار الأوس والخزرج، انتهت بانتصار الأوس، ثم اتفق الفريقان على الصلح، وإقامة حكومة مشتركة تنظم العلاقات بين أهل يثرب ولكن هذا المشروع لم يكتب له النجاح بعد ذلك.

قبل ظهور الإسلام، ظهر من بين العرب جماعة مستنيرة نبذت الوثنية، فاعتنق بعضهم المسيحية أو اليهودية، واعتنق البعض الآخر الحنيفية لإحياء دين إبراهيم الحنيف وهو دين التوحيد. وكان ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن اعتنقوا المسيحية، وقرأوا التوراة والإنجيل، وتعلم اللغة العبرية، وأصبح أعلم رجال مكة بالنصوص المقدسة من مسيحية ويهودية.

ظهر الإسلام، وكما عارض اليهود الدين المسيحى عارضوا أيضا الدين الإسلامى، فمن البديهى حين يظهر دين جديد أو عقيدة جديدة يعارض صاحب الدين الأول أو العقيدة المختلفة أى جديد وإلا لكان غير دينه وعقيدته. كانت قبيلة بنى قينقاع أول قبيلة يهودية تبدأ الصراع مع المسلمين. كانت هذه القبيلة تسيطر على شمال الحجاز وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد جعل بينه وبينهم أمانا، وشرط عليهم شروطا منها ألا يظاهروا عليه عدوا. فلما قدم الرسول من بدر أظهر

بنو قينقاع الحسد علـى المسلمين ونقضـوا العهد. ثم حدث احتكاك بين المسلمين وبعض اليهود، فسار إليهم الرسول وحاصرهم خمس عشرة ليلة حتى اضطروا إلى النزول على حكمه الذى تضمن أن تكون أموالهم غنيمة له، وتكـون النساء والذرية لهم، ثم أخلى سبيلهم بعد أن شفع فيهم عبد الله بن أبى، وأمرهم بالجلاء عن المدينة فساروا حتى نزلوا بأذرعات فى شمال الحجاز وعلى أطراف بلاد الشام. كانت قبيلة بنو النضير الثانية فى الصراع مع المسلمين، وحاصر الرسول بنى النضـير، الذين طلبوا الصلح بعد خمسة عشر يوما من الحصار، وصالحهم الرسول علـى ألا يتعرض لأحد منهم بسوء، وان يجلوا من المدينة، ولهم ما حملت الإبل من أموالهم ومتاعهم، ولرسول الله أرضهم ونخلهم وأسلحتهم، غادر بنى النضير المدينة يصحبهم ستمائة بعير نقلوا عليها أحسن ما فى بيوتهم من متاع ورياش ثم خربوا ديارهم بأيدهم ورحل بعضهم إلى الشام، ونزل معظمهم بمدينة خيبر، وهى مدينة يهودية حصينة على مسيرة أيام قليلة من المدينة. بعد إجلاء بنى النضير لم يبق فـى المدينة من القبائل اليهودية سـوى بنى قريظة، وكانوا يملكون حصنا منيعا قرب المدينة. تحالف بنى قريظة مع المشركين الذين قدموا لغزو المدينة فى غزوة الأحزاب (غزوة الخندق). بعد انتهاء غزوة الخندق وجلاء المشركين من المدينة تفرغ الرسول لعقاب بنى قريظة الذين نقضوا عهدهم، وحاصرهم الرسول حتى نزلوا على حكمه، وتم للرسول بالقضاء على بنى قريظة السيطرة علـى المدينة من المناوئين من اليهود.

كانت خيبر آخر معاقل اليهود أمام الرسول، حيث يسكن اليهود الذين تميزوا بالثراء نتيجة اشتغالهم بالتجارة والزراعة وتملكهم كثيرا من قطعان الأغنام وعددا من الحصون المنيعة. كان لهذه البلد تاريخ قديم مع اليهود، فقد جاء فى رواية المؤرخ العربى أبـو الفدا أن موسى بعد عبوره البحر الأحمر أرسل جيشا من الإسرائيليين لقتال العمالقة فى يثرب وخيبر.

أصبحت خيبر ملجأ لليهود بعد أن أجلاهم الرسل عن المدينة واستقروا فيها على أمل الانتقام. أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم أهدافهم فرأى أن يبادر بغزو خيبر. فـى مطلع السنة السابعة من الهجرة، خرج الرسول من المدينة على رأس جيش من المسلمين بلغ ألفا ومائتين من الرجال ومائتين من

الخيله وصحبه أبو بكر وعلى بن ابى طالب وعمر بن الخطاب، وغيرهم من كبار الصحابة. كان يهود خيبر يقيمون فى حصون منيعة، ولم يدر بخاطرهم أن الرسول سيغزوهم لمنعتهم ووفرة سلاحهم وكثرة عددهم. لكن ما لبث الرسول ان نزل بساحتهم ليلا على حين غفلة منهم حيث لم يستطيعو أن يضموا اليهم حلفائهم، فلم أقبل لصباح فوجئوا بوجود المسلمين أمامهم. فولوا هاربين إلى حصونهم، ثم دار القتال بين الفريقين، وهاجم المسلمين حصون اليهود، وتمكنوا من فتح بعضها عنوه، وأخذوا البعض الآخر صلحا. أصبحت الحصون التى فتحت عنوة ملكا للمسلمين، أما ما أخذت صلحا فقد اتفق الرسول مع أصحابها على أن يبقوا بالأرض يزرعونها مناصفة بينهم وبين المسلمين.

اليهود فى المجتمعات الإسلامية

عاش اليهود فى مجتمعات القرون الوسطى الإسلامية فى أمان، وتولوا كثيرا من الوظائف الهامة. ترك عمر بن الخطاب أراضيهم مقابل دفعهم الخراج فضلا عن الجزية. منذ هاجر اليهود من جنوب الجزيرة العربية نزلوا فى الكوفة، وعمل بعضهم بالزراعة وعمل البعض الآخر فى حرف أخرى.

امتنع يهود الحيرة، وهى بلدة على أطراف العراق، من الانتقال إلى الكوفة عند إنشائها، ولكن وجدوا بعد ذلك أن من سبقوهم فى الهجرة قد نالوا الثراء، فأسرعوا فى الهجرة إلى الكوفة سنة ٢٠ هجرية. احترف عدد كبير من اليهود الصباغة ونسج الحرير وصناعة الزجاج، كما عمل اليهود بالتجارة واحترفوا الطب، واتصلوا بالملوك والأمراء لاشتغالهم بصنع المجوهرات والتجارة فيها. كان يهود أورشليم القدس يحتكرون تجارة الأصباغ وصناعة النسيج وبرعوا فيها.

أن كان المسلمين قد حرصوا على جباية الجزية من غير المسلمين، وتطبيق القوانين الإسلامية عليهم ومنهم اليهود، إلا أنهم أتاحوا لليهود تقلد العديد من المناصب العامة، فكان حسداى بن شبروط له مكانة مميزة فى بلاط الخليفة الأموى عبد الرحمن الثالث.

عاش اليهود حياه تسامح واطمئنن فى أرجاء الدولة العباسية، وكان معظم الصيارفة وأصحاب المصارف فى الشام من اليهود. تولى اليهود المناصب الكبرى فى عهد الخليفة المعتضد، وكان لليهود فى بغداد مستعمرة كبيرة. تمتع اليهود أيضا بنفس التسامح والأمان فى بلاد الأندلس الإسلامية وفى ظل الحكم الإسلامى لمصر. وفى العصر الطولونى، لم يهتم الطولونيون بالجزية، وانصرفوا إلى الخراج ومضاعفته، باعتبار مصر بلد زراعية، أما فى العصر الإخشيدى فقد اشتغل اليهود بالحرف والصناعات التى كانت تدر عليهم أرباحا طائلة وبرز منهم كثير من الصياغ والأطباء والصيارفة. عاش اليهود فى العصر الفاطمى فى عصر يسوده الرخاء، فقد تقلدوا أرقى المناصب خاصة فى عهد الخليفين المعز بالله والمستنصر، فقد تولوا المناصب المالية فى الدولة، بل تقلدوا الوزارة أيضا، واستعان المعز لدين الله الفاطمى بكثير من الأطباء اليهود، واشتهر صلاح الدين الأيوبى بالتسامح والرحمة مع غير المسلمين.

عاش اليهود فى بلاد الأندلس كطبقة مقهورة ومضطهدة قبل أن يفتحها المسلمون ويخلصونها من حكم القوط الغربيين. كان اليهود قد هربوا إلى أسبانيا وبلاد اليونان وإيطاليا وشمال أفريقيا وبلاد الشرق الإسلامى بعد الهدم الثانى لهيكل سليمان بواسطة الرومان عام ٧٠ ميلاديا. اتجه عدد كبير من اليهود إلى أسبانيا والمغرب العربى بسبب بعدهما عن عاصمة الدولة البيزنطية الرومانية، وضعف سلطان الكنيسة المسيحية على أسبانيا، فاستقر عدد كثير من اليهود فى أسبانيا، وعاشوا فى مدن كثيرة مثل طليطلة، وقرطبة، واليسانة، والبيرة، وغرناطة.

عاش اليهود فى أمان وسلام حتى عهد حكم القوط لأسبانيا، الذين اضطهدوا اليهود. كان الفتح الإسلامى للأندلس بقيادة طارق بن زياد، وبارك اليهود الفتح الإسلامى بل ساعدوا الفاتحين المسلمين، فكان من الطبيعى أن يكافئ المسلمون اليهود، فاتخذوا منهم حرسا للبلاد التى فتحوها إلى جانب الحرس الإسلامى. قضى المسلمين على حكم القوط فى أسبانيا، وعاش اليهود لمدة قرنين من الزمان فى أمان ورخاء تحت الحكم الإسلامى، لهم حرية العبادة والتجارة، وبرز كثير من اليهود منهم الطبيب النابغة موسى بن ميمون.

شغل اليهود فى العصر الحديث الكثير من المناصب الهامة فى البلاد العربية، فكان معظم رجال الاقتصاد والأطباء إبان حكم المماليك من اليهود، وكان كبير الصرافين عادة من اليهود. كان الحكام يحرصون على تولية اليهود مهمة الإشراف على الشئون المالية لما عرف عنهم من خبرة فى هذا المجال.

من الأمانة التنويه على أن الأقلية فى أى بلد لا تتمتع بنفس المزايا التى يتمتع بها أهل البلد، وأصحاب الدين المخالف لا يتمتع بنفس مزايا أصحاب الدين السائد، فهذه طبيعة بشرية، ولكن فى جميع الأحوال فان حال اليهود فى ظل الحكم الإسلامى كان افضل من اليهود الذين عاشوا فى أوروبا فى القرون الوسطى حيث كان التعصب العرقى والاضطهاد العقائدى.

دولة الخزر اليهودية

نحو القرن السابع والثامن الميلادى، كانت تحكم تخوم أوروبا الشرقية الممتدة بما بين القوقاز ونهر الفولجا دولة يهودية عرفت بإمبراطورية الخزر . كانت هذه الإمبراطورية فى أوج عظمتها من القرن السابع إلى القرن العاشر الميلادى، ولكن دمرت هذه الإمبراطورية فى القرن الثالث عشر.

يرجع الشعب الخزرى إلى الأصول التركية، فهم ليسوا من نسل بنى إسرائيل ولكنهم متهودين. يذهب كثير من المؤرخين إلى أن جزءا كبيرا من يهود شرق أوروبا أصلهم من دولة الخزر القديمة، أى أنهم جنس غير سامى الأصل.

لم يكن للخزر منافس لسيادتهم على الأقاليم الواقعة شمال بحر قزوين وأقاليم السهوب والغابات المتاخمة لنهر الدينبر حتى القرن العاشر الميلادى. لقد كانوا أصحاب السيادة العليا فى النصف الجنوبى من أوروبا الشرقية، وشكلوا سدا منيعا يحول دون أى زحف قادم من آسيا أو أوروبا عبر المدخل القائم بين الاورال وبحر قزوين. لقد كان الجنس الخزرى مختلف عن الجنس اليهودى السامى القادم من بلاد بابل أو من قرب سواحل البحر المتوسط، فقد كانت بشرتهم بيضاء وعيونهم زرقاء، وشعورهم كثيفة تميل إلى الحمرة.

دمرت إمبراطورية الخزر فى القرن الثالث عشر، فانتشر يهودها فى البلاد الروسية وفى شرق أوروبا، كما اتجه بعضهم شمالا وانضموا إلى الجماعات اليهودية فى مدينة كييف، كما عاد بعض يهود الخزر إلى القوقاز.

يهود أوروبا فى القرن الثامن عشر

عاش يهود التشتت فى أوروبا فى القرون الوسطى وسط عقائد معادية، وشرائع مختلفة، وكان على الكنيس اليهودى (المجمع الدينى) أن يقوم بمهام السلطة الدينية وسلطة الحكومة، على تجمعات يهودية فى مدن أوروبا. ربط الحاخامات اليهود فى وحدة متماسكة خلال جميع الظروف السياسية والاجتماعية، بإعطائهم بركة إيمان دينى، فكانت أسفار موسى الخمسة دستورهم، وكان التلمود هو المحكمة العليا لدولتهم غير المنظورة، على الأقل لغيرهم. عاش اليهود ما يقرب من ألفى عام فى مجتمعات مختلفة فى جميع بقاع العالم فلم ينصهروا فيها. فى مقولة للفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو (بادت اثينا واسبرطة، وروما، ولم تترك خلفا على الأرض، أما دولة صهيون التى دمرت فلم تفقد بنيها، فقد احتفظوا بكيانهم، وهم يتكاثرون، وينتشرون فى أرجاء العالم، وهم يخالطون كل الشعوب دون أن يذوبوا فيها، وليس لهم حكام، ومع ذلك فهم دائما شعب).

خفت حدة عداء الشعوب المسيحية لليهودية فى القرن الثامن عشر مع بداية انتشار أفكار التحرر من قيود الدين، وانتشار الفلسفات الإلحادية فى أوروبا. ندد الفيلسوف فولتير كثيرا باضطهاد المسيحيين لليهود، بل اثنى عليهم بالرغم من اختلافه معهم بعد ذلك لخلاف مادى. لم يكن لليهود فى فرنسا أى حقوق مدنية قبل الثورة الفرنسية التى قامت فى نهاية القرن الثامن عشر، لكنهم أنشأوا جماعات ناجحة أفرزت زعماء ذوى نفوذ. لعب المال لعبته. فاعترفت الحكومة الفرنسية بامتنان مساعدة الماليين اليهود لها فى حروب الوراثة الأسبانية البولندية، كما كان لليهود دورا كبيرا فى احياء شركة الهند الشرقية.

كان الوضع فى أسبانيا والبرتغال مختلف عن باقى الدول الأوربية بلغ اضطهاد الأسبان لليهود مداه فى نهاية القرن السابع الميلادى على يد الملك القوطى

ايرفينج حيث تقرر إرغام اليهود جميعا على التحول إلـى المسيحية أو ترك البلاد، فغير معظم اليهود دينهم ظاهريا. لما فتح المسلمون معظم أسبانيا، عام ٧١١م. عاش اليهود تحت الحكم الإسلامى فى أمان ورخاء على مدى ثمانية قرون، عدا عصر سيادة شمال غرب أفريقيا (المغرب العربى) على يد المرابطين الموحدين فى الفترة ١٠٨٦-١٢١٤ أى فترة امتدت لحوالى قرن وربع قرن، حيث حدث خلاف بين المسلمين واليهود، حيث وقف اليهود بجانب المسيحيين عندما بدأ الصراع بين المسلمين والمسيحيين على حكم أسبانيا. ولكن عندما قضى على آخر معاقل المسلمين فى أسبانيا حتى بدأ المسيحيين يطاردون اليهود ويضطهدونهم مرة ثانية.

لم يكن لليهود وجود ظاهرى فى أسبانيا فـى القرن الثامن عشر، ففـى مطلع حكم البوريون الأسبان، حاولت جماعة صغيرة من اليهود استئناف شعائر عبادتهم سرا، فتم اكتشاف هذه المحاولة وتم إعدام عدد من اليهـود فى الأعوام ما بين ١٧٠٠-١٧٢٠م فى بعض المدن الأسبانية. وكانت القوانين الأسبانية تحرم من المناصب المدنية أو الحربية أى شخص لا يستطيع إثبات نقاء دمائه من كل أثر علق به من أسلاف اليهود، وقد خفف شارلى الثالث من هذه القوانين عام ١٧٨٣م. وقد تشابه الوضع فى البرتغال فقد أحرق ديوان التفتيش عام ١٧١٧م عددا من اليهود لرفضهم الارتداد عن الديانة اليهودية.

سبقت مدينة البندقية باقى المدن الإيطالية فـى تحرير اليهود من الاضطهاد، ففى عام ١٧٧٢م أعلن أن اليهود متساوون مع سائر السكان. أما يهود روما فقد حصلوا على المساواة بعد غزو نابليون لروما. وفى النمسا قامت ماريا تريزا بوازع دينى مسيحى بحبس اليهود فى أحياء ضيقة خاصة بهم، وبحرمانهم من الحرف والمناصب وتملك العقارات، إلا أن ابنها يوزف الذى تأثر بحركات التنوير الفرنسية، قد قام فى عام ١٧٨١م بتشجيع اليهود على تعليم اللغة الألمانية، كما دعى شعبه إلى ترك اليهود لممارسة شعائرهم الدينية، وترك لهم حرية التجارة والاندماج فى مجتمع الإمبراطورية النمساوية (النمسا والمجر وبوهيميا)، وبالرغم من أن مجلس الدولة، وبعض فئات الشعب النمساوى قد اعترضت واستنكرت المزايا الممنوحة لليهود، إلا أن الإمبراطور النمساوى نصح رعاياه بإعطاء اليهود حقوقهم باعتبارهم إخوانا لهم.

كان لليهود فى تركيا مميزات كثيرة تفوق حتى الأهالى الأتراك أنفسهم. أما فى روسيا فكان وضع اليهود مختلف، خاصة فى الأقاليم القريبة من بولندا. ففى عام ١٧٤٢م أمرت الإمبراطورة الروسية بترحيل جميع اليهود ما لم يعتنقوا الديانة المسيحية. وقد خففت الإمبراطورة كاترين الثانية من القوانين الصارمة المفروضة على اليهود خاصة فى بولندا التى كان يسكنها حوالى ٦٢٠ ألف يهودى عام ١٧٦٦ م. قامت مجموعة من العصابات البولندية عام ١٧٦٨م بحملة اغتيال لليهود فى بعض المدن البولندية وخاصة فى الأقاليم اليهودية وذبحت كثيرا من اليهود، إلا أن الإمبراطورة كاترين كونت جيشا روسيا يتعاون مع القوات البولندية للقضاء على هذه العصابات.

عاش اليهود فى ألمانيا فى أمان ورخاء نسبيين، وان عانوا من بعض المضايقات فى الحياة الاقتصادية والسياسية، فقد فرضت عليهم ضرائب خاصة. كان القانون فى برلين لا يسمح إلا لعدد محدود من اليهود بالعيش فى برلين، إلا أن هذا القانون لم ينفذ بدقة، فزادت الجالية اليهودية فى برلين التى كانت تتمتع بالثراء، أيضا تكونت مستوطنات يهودية فى بعض المدن الألمانية الأخرى مثل هامبورج وفرانكفورت. واستخدم الحكام الألمان والأمراء والأساقفة الكاثوليك اليهود فى إدارة شئونهم المالية وتموين جيوشهم، وظهرت فى ألمانيا الأسر اليهودية الثرية مثل أسرة روتشيلد (الدرع الحمراء).

تمتع اليهود فى الدول الاسكندنافية وهولندا بحرية نسبية، فلم يسكن اليهود فى الدنمارك فى أحياء خاصة بهم مثل باقى المدن الأوربية، فقد تنقل اليهود فى هذه البلاد فى حرية وسمح لهم بالتزاوج من أهل البلد، وفى السويد بسط الملك جوستاف الثالث حمايته على اليهود، وترك لهم حرية ممارسة الشعائر اليهودية.

هاجر كثير من اليهود المضطهدين فى بولندا وبوهيميا إلى إنجلترا، فزاد عددهم من ستة آلاف يهودى فى عام ١٧٣٤م إلى ستة وعشرين ألف فى عام ١٨٠٠م. فى منتصف القرن الثامن عشر أنقذ أثرياء اليهود النظام المصرفى من الانهيار اثر أزمة سياسية. أعربت الوزارة الإنجليزية فى تلك

الوقت عن تقديرها لليهود وقدمت مشروع قانون إلى البرلمان عام ١٧٥٣م يعطى الحق في الجنسية لجميع اليهود المولودين في الخارج والذين أقاموا في إنجلترا أو ايرلندا لمدة ثلاث سنوات، ووافق أعضاء مجلس العموم على القانون، ولكن الشعب البريطاني احتج على هذا القانون وعارضه، فتم إلغاء القانون عام ١٧٥٤ م.

كان القرن الثامن عشر هو القرن العظيم بالنسبة لأوروبا، لقد انتهت القرون الوسطى في القرن السابع عشر الذي بدأ فيه بزوغ النهضة الأوربية الحديثة، تطورت العلوم تطورا مثيرا، وحدث تقدم سريع في الصناعة، وجميع فروع العلم. شجع الفكر الحديث نبذ المعتقدات القديمة، وتحرر الإنسان الأوروبي من أساطير لازمته وسيطرت عليه على مدى قرون طويلة. ظهرت مفاهيم جديدة للعالم، قائمة على العلم والمنطق، وزاد التعاون التجاري بين الدول الأوربية. سـ ـ التطور في عملية الطباعة والنمو المتصاعد في صناعة الورق في انتشار الكتب والدوريات العلمية، وتبادل الأفكار، فبدأ حلول عصر الاكتشافات والاختراعات. لقد بشر الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون في القرن السابع عشر بعصر العلم والتكنولوجيا، كما ظهر في القرن السابع عشر الفيلسوف الإنجليزي جون لوك الذي أرسى مبادئ الديمقراطية الدستورية، شهد القرن الثامن عشر اكتشاف الجاذبية الأرضية بواسطة العالم البريطاني اسحق نيوتن، لقد غيرت نظرياته في مجال الضوء وحساب التفاضل والتكامل والفلك مسار العلم إلى الحداثة والتطور. وشهد هذا القرن أيضا اختراع صناعة أول آلة بخارية بواسطة جيمس وات، واكتشف الإنسان الصلب وطاقة البخار، فأنشأ السكك الحديدية والكباري لتضيق المسافة بين الشعوب وتزيد من معدل الارتحال وتبادل المعرفة والثقافة. شهد هذا القرن أيضا الكيميائي الفرنسي لافوازييه، أول من اتخذ للعناصر وللمعادلات الكيميائية رموزا، فأصبح للكيمياء لغة واحدة، كما ظهر الهولندي ليفنهك الذي اكتشف الميكروب، والطبيب الإنجليزي وليم هارفي مكتشف الدورة الدموية. في عالم الاقتصاد ظهر الاسكتلندي آدم سميث وكتابه الشهير (ثروة الأمم) فكانت أبحاثه هي بداية علم الاقتصاد السياسي الحديث. وجد أيضا في

القرن الثامن عشر الموسيقار الألمانى العظيم بيتهوفن بسيمفونياته الرائعة، والموسيقار الألمانى باخ، والفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو صاحب كتاب العقد الاجتماعى، والتى أدت كتاباته إلى ميلاد الاشتراكية، وكانت آرائه من أسباب قيام الثورة الفرنسية.

أيضا كان هذا القرن هو قرن التنوير اليهودى فى أوروبا، فتمرد عدد كبير من اليهود على سيطرة رجال الدين، واندمجوا فى تيار الفكر الحديث. تعلم المتمردين اليهود اللغات الأوربية من إنجليزية وألمانية وفرنسية، وقرأوا مؤلفات الفكر الحر الأوربى الذى ظهر حديثا، وتماشوا مع أفكار كانط، وجوته، وشيلر، وفولتير، وروسو. وقع انقسام فى المجتمعات اليهودية بين المحافظين، وأصحاب الفكر التنويرى الحر، ولكن كانت الغلبة لأصحاب الأفكار الحديثة، وانتشرت حركة التنوير اليهودية فى ألمانيا والنمسا، ثم فى بوهيميا وبولندا وروسيا، ودعى بعض المفكرين اليهود إلى دخول الطلبة اليهود فى نظام التعليم العلمانى، وحثوا الجيل الجديد إلى دراسة العلوم والفلسفة بجانب دراسة التوراة والتلمود، ومنذ ذلك الحين كما يقول المؤرخ ول وايريل ديورانت : اسهم اليهود فى العلم والفلسفة والأدب والموسيقى والقانون بقدر يفوق كثيرا نسبتهم إلى عدد السكان فى أوروبا.

ساعدت التطورات الفكرية الاقتصادية على تحرير اليهود فى أوروبا، وأطفأت العلاقة التجارية بين المسيحيين واليهود نار الخصومة العرقية التى انتشرت على مدى التاريخ الماضى، ولعب الماليون اليهود فى عدة حكومات أوروبية أدوارا هامة اتسمت بروح التعاون. ارتفعت الأصوات المسيحية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر بإنهاء الاضطهاد الدينى لليهود، وإعطائهم حرية ممارسة جميع المهن والحرف، مع التمتع بجميع الحقوق المدنية.

جاء التحرير السياسى النهائى لليهود مع الثورة الفرنسية وذلك من خلال إعلان حقوق الإنسان الذى أذاعته الجمعية الوطنية فى عام ١٧٨٩م. فى سبتمبر عام ١٧٩١م وافقت الجمعية التأسيسية على إعطاء كامل الحقوق المدنية ليهود فرنسا، ثم جاءت غزوات نابليون بالحرية ليهود هولندا فى ١٧٩٦م،

والبندقية فى ١٧٩٧م، وأخيراً فى روما عام ١٨١٠م، وفرانكفورت عام ١٨١١م. عاش يهود أوروبا فى القرن التاسع عشر كمواطنين أوروبيين لهم نفس حقوق المواطن الأوروبى المسيحى، لتبدأ حقبة جديدة نحو هدف يهودى قديم للعودة إلى أرض الميعاد وإنشاء دولة إسرائيل.

قامت الثورة الفرنسية بشعارات جديدة من الحرية والمساواة، فحدث تغير كبير فى تفكير ساسة اليهود المقيمين فى غرب أوروبا. أقبل اليهود على العلم وتطور الفكر اليهودى القائم على معتقدات دينية جامدة وثابتة لأكثر من ثلاثة آلاف سنة. لم يشهد تاريخ اليهود المتحجر على انهار النيل ودجلة والفرات، وفى أورشليم والمدن اليهودية المحيطة بها مثل هذا التطور فى التفكير من قبل.

لم يعد لسفر التكوين من تواريخ غير منطقية، وقصة بداية الخلق كما وردت فى كتبهم الدينية، مكانا فى ظل التطور فى العلوم الحديثة مثل الفلك والرياضة وعلوم الوراثة. حدثت أيضا طفرات إلى الأمام فى علوم قديمة مثل التاريخ والآثار بعد أن استطاع العلماء فك طلاسم اللغات القديمة مثل اللغة اليهيروغليفية - لغة مصر الفرعونية، والمسامرية - لغة بلاد بين النهرين من بابليين وآشوريين. تعارضت نظرية داروين عن الارتقاء والتطور للكائنات الحية مع المعتقدات اليهودية القديمة عن شعب الله المختار ونسب بنى إسرائيل المتميز، والوحيد المختلف عن باقى مخلوقات الله. حقا لقد بدد نور العلم الحديث ظلام الفكر اليهودى الطاغى على عقولهم على مدى قرون طويلة. ساهم يهود غرب أوروبا فى النهضة العلمية، فظهر منهم العلماء والفلاسفة والأطباء والمخترعون، والعاملون فى مجال المال والاقتصاد ونبغ بعد ذلك العالم النفسانى سيجموند فرويد، وفيلسوف الشيوعية كارل ماركس، والعالم الفذ ألبرت اينشتين.

عاش يهود الشرق مع الشرقيين فلم يتطورا، وعايش يهود غرب أوروبا الثورات الاجتماعية والصناعية والعلمية، فسايروها وتطوروا مع تطور أوروبا الحديثة. كان تأثير الثقافة الأوروبية والفكر الغربى فى حياه يهود الشرق

محدودا للغاية، فكان هذا التأثير مقتصرا على فئة الصفوة التى كان لها علاقات قوية بالغرب، والتى كانت تقيم بالمدن، وتجلت مظاهر هذا التأثير فى عدم تمسك اليهودى الشرقى بالتعاليم الدينية، وحرصهم على أن ينهلوا من منابع الثقافة الغربية.

لم تحاول الثورة الفرنسية أن تستثنى جماعة معينة من التمتع بالحقوق الطبيعية للإنسان وهى الحرية والمساواة، فاستفادت الجاليات اليهودية من النظام الحر الجديد الذى ساد أوروبا الغربية. سقطت جدران أحياء اليهود التقليدية أمام غزوات نابليون للدول الأوربية والشرق أوسطية. كانت أهم مظاهر الحياة اليهودية من خلال القرون الماضية على الثورة الفرنسية والثورة الصناعية العلمية هو الميل للعزلة والاعتقاد بأن اليهودى يحمل من أسرار الكون من خلال كتبه المقدسة، أكثر من أى إنسان آخر، وكان اليهود إذا استوطنوا مكانا معينا رفضوا الاختلاط بأهله واختاروا لهم منطقة بعيدة عن الأنظار ليقيموا فيها مساكنهم، وقد عرفت أحياء اليهود فى أوروبا باسم (الجيتو). كانت هذه العزلة التى عاش فيها اليهود سببا فى الاحتفاظ النسبى لجنسه اليهودى القديم، وبأفكاره ومعتقداته القائمة على الرجوع إلى أرض الميعاد، وإعادة بناء هيكل سليمان بأورشليم.

كان نابليون بونابرت على دراية بأطوار ونفوذ الجماعات المختلفة، ومصادر النفوذ فى الرأى العام الأوروبى. لذا اهتم نابليون بالنفوذ اليهودى فى بلده فرنسا وفى البلاد التى كان يغزوها وذلك لأغراض سياسية وعسكرية. ساعد نابليون يهود أوروبا على العودة إلى أرض الميعاد مقابل أموالهم وتأييدهم لحملته العسكرية على الشرق. أراد نابليون أن يستخدم اليهود للسيطرة على التجارة وطرق المواصلات بين الشرق والغرب، فنشر بالصحيفة الرسمية فى إبريل سنة ١٧٩٩م إعلانا دعا فيه يهود أفريقيا وآسيا إلى موافاة جيشه بمصر، ليدخلوا معه إلى أورشليم. فك نابليون الحصار عن عكا وعاد إلى بلاده بعد أن قاد المقاومة الفلسطينية فى عكا احمد باشا الجزار. إن لم تكتمل تبادل مصالح اليهود ونابليون فى الشرق فإن أنظار اليهود قد بدأت التركيز إلى أرض الميعاد فى خطة حديثة لإحياء حلم قديم للعودة إلى أرض الميعاد.

قام عَادل محمود رياض فى كتابه القيم : (الفكر الإسرائيلى وحدود الدولة) بسرد الأحداث التاريخية الحديثة لإقامة دولة إسرائيل. كانت أول دعوة لإنشاء وطن قومى لليهود فى بداية العصور الحديثة عام ١٦١٩ م، حيث نشر السير هنرى فنش كتابه فى إنجلترا تحت عنوان " نداء اليهود ". فى عام ١٧٩٨م نشر يهودى إيطالى رسالة بعنوان " إلى الإخوان فى الدين "، طالب فيها بإقامة دولة يهودية تشمل المنطقة التى تمتد حدودها على خط يسير من عكا إلى البحر الميت ومن الطرف الجنوبى للبحر الميت إلى البحر الأحمر، كما تضم كذلك مصر السفلى. إذا كان مندلسون (١٧٢٩-١٧٨٦م) قد دعى فى ألمانيا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، باندماج اليهود فى الشعوب التى يعيشوا فيها، إلا أن هذه الدعوة واجهت معارضة من رجال الدين، ومن مفكرى اليهود المتعصبين.

فى القرن التاسع عشر دعا زفى كاليشر (١٧٩٥-١٨٧٤م) فى كتابه "البحث عن صهيون " إلى أن حل المشكلة اليهودية يكون عن طريق تهجير اليهود إلى فلسطين، أو غيرها من البلدان، لأن معاداة السامية لا تزول طالما أن اليهود لا يملكون وطنا قوميا خاص بهم. حث كاليشر أغنياء اليهود على إنشاء جمعية تتولى استعمار فلسطين، وتشجيع الهجرة اليهودية إليها، وإنشاء المستعمرات الزراعية فيها. أثمرت آراء كاليشر فى تكوين " جمعية استعمار أرض إسرائيل " فى برلين عام ١٨٦٤م، كما كانت آراؤه السبب فى أن تقوم جمعية الاليانس التى أنشأتها يهود غرب أوروبا، بتأسيس أول مستعمرة يهودية فى فلسطين بالقرب من يافا. فى كتاب " روما والقدس " الذى نشره موسى هيس (١٨١٢-١٨٧٥) فى عام ١٨٦٢م، جاء فيه أن اندماج اليهود فى المجتمعات الأوربية لا يشكل حلا عمليا للمسألة اليهودية، وزعم هيس بنقاء الجنس اليهودى الذى حافظ عليه عبر القرون. ظهرت فكرة القومية بين اليهود الروس، متأثرين بالأفكار القومية التى اعتنقها المفكرون اليهود، فأصدر ليوبنسكر (١٨٢١-١٨٩١م) نشرته عن "التحرر الذاتى" باللغة الألمانية عام ١٨٨٢م، والتى جاء فيها أن تحرر اليهود يجب أن يتم بالاعتماد على الذات، وانه يجب أن يكونوا

أمة، فـي أرض خاصـة بهم، ولا تجمـع بينهـم لغـة وعـدات مشـتركة. اختلف اليهود الروس حول المكان الذى يهاجرون إليه، وهل توجـه الهجـرة إلـى العـالم الجديـد أى قـارتى أمريكـا واستراليا، أو إلـى فلسـطين. وفضـل بنسـكر أرض فلسطين، مقترحا أن يتـم الحصـول علـى إذن مـن الحكومـة العثمانيـة لقيـام أمـة اليهود فى أرض فلسطين. دعى لورانس أو ليفانت خلال الفترة ١٨٧٨/١٨٧٩ إلى قيام اليهود باستعمار سـوريا الجنوبيـة، كمـا طـالب الإمبراطوريـة العثمانيـة بمنح اليهود مسـاحات بشرق الأردن. أصـدر مـاكس ايزيدوربودنيهـا يمـر عـام ١٨٩١م كتابا بعنوان " أين يذهب اليهـود الـروس" أشـار فيـه إلـى أهميـة العمل على توطين اليهود فى سوريا وفلسطين. فى عام ١٨٩٧م نشر المفكر اليهودى أشر جينز يورج مقالا بعنوان " الدولـة اليهوديـة والمشـكلة اليهوديـة " عبر فيـه عن اهتمام الصهيونية لإقامة الدولة اليهودية.

يعتبر تيـودور هرتـزل (١٨٦٠-١٩٠٤م) المسـئول الأول عـن تحويـل أمانى العودة إلى أرض الميعاد من هدف دينـى إلـى هـدف سياسـى، كمـا أدخـل فكرة الهجـرة إلـى يهـود الغـرب الذيـن كـانوا يسـيرون فـى طريـق الاندمـاج، مستفيدين من مناخ التسامح الدينى، والأفكـار الحـرة التـى كـانت تسـود أوروبـا. حدد هرتزل هدفه بأن يجد الأرض أولا، ثم تقـام بعـد ذلـك دولـة اليهـود، وذلـك عن طريق الهجرة الجماعيـة والاسـتيطان الواسـع النطـاق. نشـر هرتـزل كتابـه "دولة اليهود" باللغة الألمانية عام ١٨٩٦م أشار فيه إلى مكـان الوطـن التـاريخى لليهود المشتتين فى جميع أنحاء العالم. ذكر هرتزل فـى كتابـه أن شـعار اليهـود يجب أن يكون المطالبة بأرض الميعاد، أرض داود وسليمان. نجح هرتـزل فـى إقامة أول حركة يهودية عالمية ممثلـة فـى المؤتمـر الصهيونـى الأول، كمـا قـام بنشر أفكاره على نطاق عالمى. استطاع هرتزل عقد المؤتمـر الصهيونـى الأول فـى مدينـة بـال عـام ١٨٩٧م، وتضمـن البرنـامج الـذى اقترحـه هرتـزل النقـاط التالية:

١- تشجيع الهجرة المنظمة وعلى نطاق واسع إلى فلسطين.
٢- الحصول على اعتراف دولى بشرعية الاستيطان فى فلسطين
٣- إنشاء منظمة دائمة توحد كل يهود العالم فى خدمة القضية الصهيونية

حاول هرتزل إقناع غير اليهود بالمنافع المادية التى تترتب على هجرة اليهود إلى فلسطين، مفترضا أن الحكومات ستحقق مكسبا ماديا من شراء أملاك المهاجرين اليهود وبيعها بعد ذلك، كما أن هجرة اليهود ستتيح فرصا جديدة للمسيحيين الذين سيحلوا محل اليهود المهاجرين فى العمل أو المسكن. قدم هرتزل أيضا وعود إلى سلطان تركيا، بتنظيم النظم المالية التركية مقابل منح اليهود وطن قومى فى فلسطين. أما وعود هرتزل لأوروبا فتمثلت فى انه لو تم إقامة دولة لليهود فى الشرق الأوسط، فان هذه الدولة ستكون امتدادا للحضارة الأوربية فى الشرق، وان اليهود سيشكلون جزءا من السد الأوربى فى وجه آسيا، ومركزا طليعيا ضد البربرية فى الشرق.

حدد المؤتمر الصهيونى الأول سنة ١٨٩٧م غاية الحركة الصهيونية التى تتمثل فى إقامة دولة تسع يهود العالم، كما حدد المؤتمر استراتيجية العمل الصهيونى وتحديد جهاز التنظيمى للحركة الصهيونية الذى سيتولى التخطيط وتنفيذ الإجراءات التى تم تحديدها.

تقرر فى المؤتمر الصهيونى السابع عام ١٩٠٥م العمل على أن تكون فلسطين هى الوطن القومى لليهود، كذلك ضرورة الاستيطان فى تلك الأراضى، واتباع الاتجاه العملى نحو الإسراع فى إيجاد أمر واقع صهيونى.

دخلت الإمبراطورية العثمانية التى كانت الأراضى الفلسطينية واقعة تحت حكمها الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، وانتهت الحرب بهزيمة الإمبراطورية العثمانية، وفى عام ١٩١٦م تم تقسيم بلاد الشام بين بريطانيا وفرنسا، عدا فلسطين التى كانت تسمى المنطقة السمراء فوقعت تحت الإدارة الدولية.

وعدت بريطانيا بإنشاء وطن قومى لليهود على الأراضى الفلسطينية، فصدر تصريح بلفور الشهير فى الثانى من نوفمبر عام ١٩١٧م والذى جاء فيه:

وزارة الخارجية

فى الثانى من نوفمبر سنة ١٩١٧

عزيزى اللورد / روتشيلد

يسرنى جدا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالته التصريح التالى الذى ينطوى على العطف على أمانى اليهود والصهيونية، وقد عرض على الوزارة وأقرته : أن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية. على أن يفهم جليا انه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى، وسأكون ممتنا إذا ما أحطتم الاتحاد الصهيونى علما بهذا التصريح.

المخلص آرثر بلفور

فى الفترة من نوفمبر ١٩١٧م إلى يوليو ١٩٢٢م بسطت بريطانيا نفوذها على الأراضى الفلسطينية بالكامل. بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ثم انعقاد مؤتمر الصلح بفرساى عام ١٩١٩م، الذى ترتب عليه من وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى، نشطت الحركة الصهيونية عملها لتحديد إقليم الدولة اليهودية.

شهدت الفترة من عام ١٩١٨م وحتى عام ١٩٢٣م عدة محادثات بين بريطانيا وفرنسا حول تحديد الحدود الشمالية لفلسطين. حظيت هذه المسألة باهتمام من جانب الصهيونية من اجل مد الحدود الشمالية لفلسطين إلى أكبر قدر ممكن لتتمشى مع الحلم الصهيونى لتوسيع رقعة أرض الميعاد. فى ديسمبر ١٩٢٠م توصل الجانبان البريطانى والفرنسى إلى اتفاق حول الحدود بين سوريا ولبنان وفلسطين والعراق.

تبلور الكيان الاستيطانى اليهودى فى فلسطين فى الفترة ما بين ١٨٨٢ و١٩٤٨ من خلال خمس هجرات كبرى : (١٨٨٢-١٩٠٣)، (١٩٠٤-١٩١٤)، (١٩١٩-١٩٢٣)، (١٩٢٤-١٩٣١)، (١٩٣٢-١٩٤٨). كانت أول هجرات اليهود (العاليا باللغة العبرية) إلى أرض الميعاد مكونة من مئات قليلة من المثقفين اليهود، كثيرون منهم من العائلات الغنية التى تأثرت بموجة المذابح التى حدثت بعد اغتيال قيصر روسيا الكسندر الثانى. أطلق على هؤلاء اليهود اسم (هالوتزيم أى الرواد). فى نفس الوقت وصلت إلى الأراضى الفلسطينية آلاف قليلة من الهجرة اليهودية العادية التى تركت أوروبا الشرقية بحثا عن الرزق، بالرغم من أن كثيرا منهم اتجه إلى أوروبا الغربية وإلى الولايات المتحدة. كانت الهجرة الثانية هى الهجرة الأيدلوجية. بعد فشل الثورة الروسية الأولى والمذابح التى صاحبتها، وضعت الهجرة الثانية، بالتعاون مع المنظمة الصهيونية العالمية، الأساس الاستيطانى اليهودى الجماعى فى أرض الميعاد.

أطلق على عملية الهجرة والاستيطان والتنظيم الوجودى لليهود فى فلسطين اسم الييشوف. نجح الييشوف فى أن يؤسس كيانا سياسيا فى فلسطين، تمثل فى الأحزاب السياسية الصهيونية المتعددة، وفى الوكالة اليهودية بفلسطين، وكذلك خلق بناء اقتصادى يهودى مستقل عن الاقتصاد العربى، وتطوير مؤسساته الاجتماعية المختلفة. فى نهاية هذه المرحلة كان الييشوف بشبكة التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أنشأها وطورها، جاهزا لإنشاء دولة إسرائيل، وما أن أعلن قيام الدولة فى عام ١٩٤٨ م حتى تحولت هذه التنظيمات إلى أجهزة الدولة المختلفة.

بلغ أجمالى المستعمرات اليهودية فى فلسطين فى عام ١٩٠٠ م أثنتا وعشرون مستعمرة. حتى نشوب الحرب العالمية الأولى لم يحقق برنامج الاستيطان اليهودى فى فلسطين إلا نجاحا محدودا. فى عام ١٩١٨ كان اليهود يملكون ٢٪ فقط من الأرض الفلسطينية. راعت الحركة الصهيونية عند القيام بإنشاء المستعمرات فى فلسطين العامل العسكرى الاستراتيجى، وذلك من خلال سهولة الدفاع عن المستعمرات، وتأمين الاتصال والحماية المتبادلة، كما كان

البعد الاقتصادى عاملا مهما فى اختيار الأرض الخصبة القريبة من مصادر المياه وطرق المواصلات.

عاش اليهود المستوطنين فى الأراضى الفلسطينية قبل قيام دولة إسرائيل على المعونات الخارجية، وعلى الصدقات التى كانت ترسل إليهم من بلادهم الأصلية باعتبار أن مساعدتهم واجب دينى. مول هذه المساعدات الخيرية نظام (الحالوقاه) أى التوزيع، والذى بدأ فى القرن الخامس عشر الميلادى عندما تكونت جمعية يهودية بهذا الاسم، ثم تلتها جمعيات مشابهة تقوم بجمع المساعدات من اليهود القادرين، ثم توزع هذه المساعدات على يهود الاستيطان.

فى أغسطس ١٩٣٦م أذيع الأمر الملكى البريطانى بتشكيل اللجنة الملكية، والتى عرفت باسم رئيسها (بيل). أنهت اللجنة أعمالها فى يناير ١٩٣٧م باقتراح إنهاء الانتداب المفروض على فلسطين، وتقسيم الأراضى الفلسطينية إلى دولتين ذاتا سيادة إحداهما عربية والأخرى يهودية، ترتبطا بمعاهدة تحالف مع بريطانيا، كما طالبت اللجنة بإقامة منطقة انتداب بريطانى تشمل جنوب فلسطين والقدس وبيت لحم والناصرة وبحر الجليل (بحيرة طبرية)، وأن ينشأ ممر يصل منطقة القدس وبيت لحم بمدينة يافا مارا باللد والرملة. كانت حجة اللجنة فى إخضاع الأماكن المقدسة للانتداب البريطانى هى المحافظة على الأماكن المقدسة، وتأمين الوصول إليها بحرية وأمان من جميع أنحاء العالم.

فى مايو ١٩٣٩م أصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض الذى جاء فيه : (أن الهدف الذى ترمى حكومة جلالته هو أن تشكل خلال عشر سنوات، حكومة فلسطين مستقلة ترتبط مع المملكة المتحدة بمعاهدة، وأن الدولة المستقلة يجب أن تكون دولة يساهم العرب واليهود فى فلسطين فى حكومتها، كما حدد الكتاب حجم الهجرة اليهودية إلى فلسطين، كما وضع الضوابط المتعلقة بشراء اليهود الأرض فى فلسطين). مع وصول هتلر وحزبه النازى إلى حكم ألمانيا عام ١٩٣٣م، وفى السنوات التالية وحتى نشوب الحرب العالمية الثانية

وأثناء الحرب، واضطهاد هتلر لليهود، حدثت قفزات كبيرة فى هجرة اليهود إلى فلسطين، فقد زاد المستوطنين اليهود فى فلسطين من أقل من مائة ألف عام ١٩٢٢م إلى ما يقرب من نصف مليون فى عام ١٩٣٩م، ثم إلى ثمانمائة ألف فى مايو عام ١٩٤٨م عند قيام دولة إسرائيل.

فى ديسمبر من عام ١٩٤٢ م أعلن دافيد بن جوريون أن الصهيونية قد رسمت سياستها على أساس أن فلسطين يجب أن تصبح دولة لليهود. على اثر هذا البيان عقد زعماء الصهيونية فى فلسطين مؤتمرا كبيرا فى القدس، قرروا فيه رفضهم للمشروع البريطانى فى تقسيم فلسطين، وأعلنوا عن رغبتهم الإجماعية فى تحويل فلسطين بالكامل إلى دولة يهودية. أعلنت المنظمة الصهيونية العالمية فى عام ١٩٤٥م أن لا حل لمشاكل الشعب اليهودى إلا بجعل فلسطين دولة يهودية غير منقوصة طبقا لنص وعد بلفور. اقترحت لجنة أنجلو / أمريكية فى ديسمبر ١٩٤٥ م تقسيم فلسطين إلى منطقتين، عربية ويهودية مستقلتين استقلالا ذاتيا تحت السلطة العليا للمندوب السامى البريطانى، مع بقاء منطقة من الأرض تحت الانتداب البريطانى، ورسمت خطوط التقسيم بنفس الطريقة التى رسمت بها خطوط مشروع تقسيم بيل عام ١٩٣٦م. ردت الوكالة اليهودية على مشروع التقسيم بتقديمها مشروع صهيونى، يحتوى على ضم الخليل، ووادى يزرعل، وكل السهل الساحلى ماعدا يافا، والنقب، وصحراء يهودا فى أريحا، والشاطئ الغربى للبحر الميت.

فى يناير ١٩٤٦ م أعلن بيفن تصريحه بخصوص استقلال شرق الأردن، فاحتجت المنظمات الصهيونية، وأعلنت أنها لا توافق على سلخ شرقى الأردن من جسد الدولة اليهودية التى تطالب بها. أخفقت الحكومة البريطانية فى إيجاد حل للمشكلة اليهودية فتقدمت إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٩٤٧/٤/٢ تطلب مقترحاتها حول مستقبل الوضع فى فلسطين طبقا للمادة العاشرة من ميثاق الأمم المتحدة. عقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة دورة خاصة فى ربيع عام ١٩٤٧ م لبحث المشكلة الفلسطينية، وانتهت إلى تكوين لجنة تحقيق سافرت إلى فلسطين وبعض الدول العربية، ثم وضعت تقريرا قدمته إلى الجمعية العامة فى دورتها العادية فى سبتمبر ١٩٤٧م. أحالت

الجمعية العامة التقرير إلى لجنة خاصة بهذا الموضوع، والتى انتهت إلـى تقديـم مشروع قرار بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية وأخرى يهودية، مع إنشـاء وحـدة مستقلة لمنطقة القدس تكون لها حكومتها الدولية الخاصة وتـدار مـن قبـل الأمـم المتحدة عن طريق مجلس الوصاية، وقد كان هذا المشـروع هـو أسـاس القـرار ١٨١-٢ الصادر عن الجمعية العامة فى ١٩٤٧/١١/٢٩ بشـأن تقسـيم فلسـطين وتدويل القدس. كـان مشروع التقسـيم يحتـوى علـى حوالـى ٥٦٪ مـن مجمـوع مساحة البلاد لإقامة الدولة اليهودية، وحوالى ٤٣٪ لإقامـة دولـة عربيـة، وأقـل مـن ١٪. للقـدس. نشـبت الحـرب العربيـة الإسرائيلية فـى ٣٠ نوفمـبر ١٩٤٧ وامتدت لمدة ستة شهور.

فى ١٩٤٨/٥/١٣ أعلنت بريطانيا أنها ستنهى انتدابها على فلسطين فـى السـاعة صفـر مـن يـوم ١٩٤٨/٥/١٥. وقـف دافيـد بـن جوريـون قبـل السـاعة المحددة بثمانى ساعات فى مدينة تل أبيب أمام أعضاء المجلس الوطنى اليهودى الذين يمثلون اليهودية الفلسطينية والصهيونية العالمية ليعلن قيام دولة يهودية فى فلسطين باسم (إسرائيل).

الفصل الرابع

الحروب العربية / الإسرائيلية الحديثة

يرجع الباحثين فى سياسة الحروب. السبب فى قيام الحروب، إلى أفعال عدوانية سابقة أو رد فعل لأفعال عدوانية. أن نظرية المؤثر والاستجابة أو الفعل ورد الفعل والتى تطبق فى العلاقات الدولية كتفسير للسلوك القومى تعد انعكاسا لنفس النظرية فى السلوك الفردى، حيث أن دولة ما هى إلا مجموعة أفراد تتأثر قراراتها بأفعال الدول الأخرى. دائما هناك تأثير تبادلى للأفعال السياسية والقرارات التى تتخذها دولة ما حيال الدول الأخرى. عندما يتصاعد الصراع بين دولتين، تنشأ بينهما علاقة ثأرية بحيث تنتهز أى من الدولتين الفرصة السانحة لشن الهجوم على الدولة الأخرى. تعددت أسباب قيام الحروب ولكن يمكن تلخيصها فى النقاط التالية :

١- الطبيعة العدوانية للجنس البشرى، فالبشر كما وصف الفيلسوف الإنجليزى توملس هوبز أنانيون وطماعون، ولا يهتمون إلا بإشباع شهواتهم، فالدافع الأساسى للإنسان هو الكسب الشخصى والمجد. لقد وصف الفيلسوف الهولندى اسبينوزا الطبيعة البشرية بوجود صراع هائل داخل الإنسان بين قوى الهوى والقوى العاقلة، ولكن غالبا ما ينتصر الهوى على العقل. ويرى عالم النفس سيجموند فرويد أن السلوك العدوانى للبشر نابع من دوافع لا شعورية بعيدة العمق فى النفس البشرية، فالعدوان صفة سلوكية عند جميع البشر، وهو مرتبط بكل من غريزة حب البقاء التى تسعى للحفاظ على الجنس البشرى، وغريزة الموت الذى قد ينشده البعض من أجل تحقيق ذاته واثبات وجوده.

ذهب فرويد إلى أن الجنس البشرى يخلق الحضارة ويعيد خلقها من مبدأ الأمر الواقع الذى يكتسب الأولوية بين الحاجات النفسية والعقلية للبشر، وان الحضارة تضع نوعا من التقيد لممارسة اللذات والدوافع الغريزية الأخرى مثل العدوان. ان التنصل من متطلبات الغريزة ليس فى حقيقة الأمر إلا قمعا لها، وهكذا ينشأ العدوان الذى قد يوجه الفرد إلى ذاته أو قد يتوجه به إلى الآخرين، وعليه قد يصبح البشر المتحضرين تعساء،

أو همجين في بعض الأحيان. أن البشر في رأى فرويد لن يستطيعوا الفرار من إذعانهم لقوى الطبيعة، ولن يهربوا من أخطار الصراع والحروب ما لم يسلموا بقدر معين من إنكار الذات بما فيه من ألم وحرمان. نقد الفيلسوف ماركيوز تصور فرويد من أن قوى الهدم والتدمير يمكن أن تتحول إلى طاقة بناءة من خلال عملية الإعلاء التى هى جزء من طبيعة الليبدو (الرغبة أو الشهوة). أن الطاقة الجنسية المكبوتة فى رأى فرويد كثيرا ما تتحول إلى مظهر من النشاط الاجتماعى المثمر، وان قوى الهدم والعدوان فى هذه الحالة تتحد مع قوى الليبدو فى مركب عضوى واحد يمثل القوة الكامنة التى تدفع عجلة الحضارة. رأى ماركيوز أن ذلك قد يكون صحيحا إذا كانت نوازع العدوان مسخرة لخدمة الايروس (غريزة الحب). أما حينما تتغلب هذه النوازع على الايروس فان الوضع يختلف تماما ويصبح العكس هو الصحيح، وهذه هى النقطة التى وصلت إليها الحضارة الحديثة، وأصبحت هى طابعها المميز، وما تسابق الدول فى التسليح والتعبئة العسكرية، وحوادث العنف والعدوان ما هى إلا نتيجة لهذه الحقيقة.

٢- تحويل الأنظار عن صراع داخلى وأوضاع داخلية متدهورة. فعندما تتعرض المجموعة الحاكمة، أو الحزب الحاكم لمعارضة سياسية، أو انقسامات لدى مسئولى الحكم أو تدهور فى الحالة الاقتصادية، أو عند حدوث نزاع مدنى أو عصيان، فأن الزعماء السياسيين يسعون إلى إدخال البلد فى حالة حرب قد تصل إلى شن الحرب فعلا على اعتقاد أن الحرب ستساعد على التفاف جماهير الشعب حول الفئة الحاكمة.

٣- عدم تقدير التوازن النسبى فى القوى بين الدول. فإذا أدرك أحد طرفى النزاع انه اقوى من الطرف الآخر، فان الدافع لشن الحرب يتولد، ثقة فى إحراز النصر.

٤- سباق التسلح وتكديس الأسلحة مما يساعد على تزايد الميل إلى الحرب. ويرجع الخبير الأمريكى هنتنجتون قرار قيام العدوان الثلاثى على مصر

عام ١٩٥٦ إلى تزويد مصر بالسلاح من الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية.

٥- الاختلافات الإقليمية في ادعاء الأحقية حول حدود دولتين متجاورتين أو ضم أراضي بأسانيد تاريخية أو قومية.

٦- فرض دولة م عقيدة أو أيدلوجية معينة تتبناها، على شعب دولة اخرى من اجل انتشار هذه العقيدة أو هذه الأيدلوجية، فكثيرا ما قامت الحروب الدينية أو الاستعمارية أو فرض نظام سياسي أو اقتصادي على الدول الأخرى.

٧- الثأر من هزيمة سابقة، فعندما تتغلب الكرامة على تبعات ويلات الحرب فانه يتولد دافع داخلي لشن حرب جديد من اجل الثأر من هزيمة حرب سابقة حتى لو كانت القوى في غير صالح الدولة التي تشن الحرب

وجد للدارسين في علم التاريخ انه توجد دورة للحرب والسلام تتكرر على التوالي على مر الزمان. فسر المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي هذه النظرية بأن الحرب تترك انطباعا سيكولوجيا سيئا وعميقا عند من خاضوها، مما يدفعهم تجنيب الأجيال التالية من خوض تجربة الحرب بما فيها من قتل ودمار وخراب، وتدهور الحالة الاجتماعية والاقتصادية للشعب. وعليه فأن الجيل الذي عاني وقاسى من ويلات الحرب غالبا ما يحاول الحفاظ على السلام. ينسى الجيل الجديد الذي لم يكتوى بنار الحرب بطريقة مباشرة، مآسي الحروب والآثار السلبية التي تنتج منها، مما يساعد على الاستعداد لشن حرب جديدة. وتتجدد الدورة على مر التاريخ. يشار إلى تفسير توينبي لدورة الحرب والسلام، بوجه عام، بمصطلح السأم من الحرب. فالبلاد التي خاضت تجربة الحرب الطويلة المكلفة في زمن قريب غالبا ما تميل إلى المواقف الشديدة المسالمة، وذلك على عكس الدول التي مرت بعهود سلام طويلة والتي قد يصبح لها استعداد أكثر للحرب.

قامت في القرن العشرين أربع حروب بين العرب وإسرائيل، في الأعوام ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، وأخيرا ١٩٧٣، كل حرب من هذه الحروب

لها الظروف الخاصة بها، والمؤثرات التى أدت إلى نشوب الحرب. إذا كان قد سردنا أسباب الحروب بصفة عامة فأن الفصل التالى سيحتوى على أسباب الصراع القديم، والذى تجدد، فى القرن العشرين، مما أدى إلى نشوب الحروب الأربع.

فى التاسعة من صباح يوم الجمعة ١٤ مايو عام ١٩٤٨ غادر حيفا بأرض فلسطين آخر مندوب سام بريطانى، وقبل غروب شمس يوم الجمعة حيث تبدأ العطلة الدينية اليهودية، عقد دافيد بن جوريون فى الساعة الرابعة بعد الظهر جلسة خاصة لمجلس الشعب فى متحف الفن الحديث أعلن فيها أمام ستة وثلاثين ممثلا عن الأحزاب السياسية إنشاء (دولة يهودية فى أرض إسرائيل هى دولة إسرائيل). أشار الإعلان الذى تلاه إلى حق جميع يهود العالم فى الهجرة إلى الدولة الجديدة، وكانت مبادئ دولة إسرائيل الجديدة هى الحرية، والسلام، والولاء لميثاق الأمم المتحدة.

بدأت الجيوش العربية هجومها الجوى على إسرائيل فى صباح يوم ١٥ مايو ١٩٤٨، وهكذا بدأت الحرب الأولى بين العرب وإسرائيل والتى انتهت عام ١٩٤٩، تخللتها هدنتان فرضتهما الأمم المتحدة. هجر أكثر من نصف مليون فلسطينى منازلهم لاجئين إلى الدول العربية المجاورة بينما استقرت أقلية منهم فى إسرائيل، ووضع باقى السكان فى مخيمات اللاجئين تحت إشراف الأمم المتحدة.

كان سكان إسرائيل فى نهاية ١٩٤٩ حوالى مليون نسمة متضمنين ١٥٠ ألف من العرب أو غير اليهود، وتدفقت الأموال إلى إسرائيل عن طريق المساعدات الأمريكية، والتعويضات الألمانية عن خسائر اليهود الأوربيين فى عهد النازية، وتحسن الوضع الاقتصادى الإسرائيلى ببطء فى السنوات الأولى لإنشاء دولتهم.

اشتركت إسرائيل مع بريطانيا وفرنسا فى الهجوم على مصر عام ١٩٥٦ عقب قيام الرئيس المصرى جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس فى

شهر يوليو من نفس العام، وانتهاء سيطرة بريطانيا على شركة قناة السويس، كانت فرنسا هي الأخرى تعانى من دعم مصر لثورة الجزائر، كما عانت إسرائيل من تسلل الفدائيين المصريين إلى إسرائيل والقيام بعمليات فدائية، وتواطأت الدول الثلاث فى شن الحرب على مصر، ونفذت المرحلة الأولى لخطتهم فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ بقيام الجيش الإسرائيلى بغزو مصر عن طريق غزة، ثم صدور الإنذار البريطانى الفرنسى لمصر، الذى أعقبه الهجوم الجوى، وانتهى الغزو الثلاثى بانسحاب جيوشهم، وتسابق الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية فى عزو السبب فى الانسحاب إلى نفسه.

ظهرت شائعات فى مايو ١٩٦٧ حول هجوم إسرائيل على سوريا، ويعلم الله والمروجين لهذه الشائعات من أطلقها، والغرض من ترويجها، هل كان السبب سحب الدول العربية وبالأخص مصر، وجرهم إلى حرب لاكتساب أراضى جديدة، والسيطرة على منابع المياه العربية فى سوريا والأردن، أو القضاء على النظام المصرى برئاسة جمال عبد الناصر. قد تكون الثلاثة أسباب مجتمعة حافزا لقيام حرب ١٩٦٧، والتى خسر فيها العرب الكثير من كرامتهم وأراضيهم.

هزمت إسرائيل الجيوش العربية فى عدة ساعات، وقضى على الطيران المصرى فى بداية المعركة، صباح الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ وهو رابض على الأرض، وتجرع العرب كأس الذل والهوان داخليا وخارجيا، خاصة القيادة المصرية.

انتهت حرب ١٩٦٧ بانسحاب الجيش المصرى من كل سيناء إلى غرب قناة السويس، واستولت إسرائيل على القدس من الأردن، وعلى المرتفعات التى تصل على الجليل من سوريا، وزادت مسافة إسرائيل بعد ضمها الأراضى العربية المحتلة إلى حوالى خمسة أضعاف، وظهر الفرق الشاسع بين المهارة والتكنولوجيا الإسرائيلية وتخلف العسكرية العربية.

لم تشهد الجبهات العربية الإسرائيلية منذ حرب ١٩٦٧ السكون، فكانت مرحلة الاستنزاف من خلال مناوشات حربية وتراشق بالنيران وقصف مدفعية ومعارك طيران واستمرت هذه المرحلة حتى قبلت مصر مبادرة وزير خارجية أمريكا روجرز لإيقاف إطلاق النار يوم الثامن من أغسطس عام ١٩٧٠، ودخلت مصر مرحلة جديدة لتعمل فى صمت وفى صبر، معتمدة على إنسان مصرى جديد متعلم، فى داخله طاقة مرارة هزيمة يونيو ١٩٦٧، يسعى إلى الثأر والانتقام، يخطط ويجهز لجولة جديدة من صراع طويل، بينما اتجهت إسرائيل إلى استرخاء نسبى فى ثقة من عدم قدرة الدول العربية على القيام بحرب شاملة جديدة.

كانت الجولة الرابعة فى السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ فى الساعة الثانية وخمس دقائق بعد الظهر، بمبادرة مصرية عربية، ليعبر الجيش المصرى قناة السويس نحو الشرق، وينجح دهاء الفلاح المصرى أنور السادات فى التغلب على الدهاء اليهودى المشهود به عبر التاريخ.

بدأت معركة أكتوبر ١٩٧٣ بضربة جوية مركزة فى شكل موجات من الطيران الحربى لمنع القوات الإسرائيلية من التدخل ضد القوات المصرية التى تقوم بعبور القناة لاجتياح خط بارليف الدفاعى، وشل فاعلية مراكز قيادة القوات الإسرائيلية وتدميرها والقضاء على مراكز التوجيه والشوشرة الإليكترونية، ووسائل الدفاع الجوى من قواعد صواريخ مضادة للطائرات والمدفعية. بعد بدأ القتال بخمس عشرة دقيقة تحركت موجات الاقتحام الأولى المكونة من خمس فرق مشاة لتعبر القناة فى قوارب مطاطية لمهاجمة مواقع خط بارليف. فى نفس الوقت كانت جماعات قطع طرق منع تقدم قوات العدو للهجوم المضاد قد احتلت مواقعها، وكانت قوات من الصاعقة المصرية تقوم بتلغيم مصاطب الدبابات فى العمق القريب وتهاجم طرق إمدادات القوات الإسرائيلية وبعض مواقعه فى العمق. لأول مرة فى الحروب استخدمت طاقة اندفاع المياه لفتح ممرات فى السواتر الرملية لخط بارليف الدفاعى، فانطلقت مدافع المياه من قناة السويس تقذف بمياهها بسرعة عالية فى المناطق المحددة لفتح الممرات، كانت البداية لجولة جديدة من صدام دام قرون طويلة عبر التاريخ.

فى اليوم الأول للقتال اشتبكت مقاتلات السلاح الجوى المصرى مع الطائرات الإسرائيلية فى معارك جوية ضارية، وقذفت القوات البحرية المصرية الأهداف الإسرائيلية على الساحل الشمالى لسيناء، وشهدت ميادين القتال فى سيناء والجولان أعنف المعارك البرية، وفى اليوم السادس للقتال كانت سيناء مسرح لأكبر معركة للدبابات فى العصر الحديث. فى الرابعة من صباح يوم ٢٢ أكتوبر اجتمع مجلس الأمن بناء على دعوة عاجلة من أمريكا والاتحاد السوفيتى بعد اتفاق كامل على مشروع سلام يدعو إلى وقف القتال وإجراء مفاوضات بين الأطراف المعنية بهدف التوصل إلى سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط. قبلت مصر قرار وقف إطلاق النار الذى أصدره مجلس الأمن بعد قتال دام سبعة عشر يوما، ولكن تفجر الموقف فى منطقة القناة بعد ساعات قليلة من وقف إطلاق النار لتلقى القوات الإسرائيلية إمدادات أثناء الليل ومحاولة الجيش الإسرائيلى التحرك إلى خطوط جديدة غرب القناة. فى يوم الأربعاء ٢٤ أكتوبر لم يتوقف القتال على الجبهة المصرية الإسرائيلية بالرغم من القرار الثانى الذى أصدره مجلس الأمن بوقف القتال فورا وعودة القوات المتحاربة إلى مواقع يوم الاثنين ٢٢ أكتوبر.

الرئيس المصرى محمد أنور السادات، وملك المملكة العربية السعودية فيصل بن عبد العزيز آل سعود، كلاهما كانا الدعامة الرئيسية لنجاح حرب أكتوبر ١٩٧٣. أدار الرئيس السادات خطة الإعداد للحرب والتمويه باقتدار ودهاء، ونجحت شخصية الملك فيصل القوية فى كسب معركة النفط كوسيلة ضغط ضد الولايات المتحدة الأوربية وأوروبا الغربية، لسماع الصوت العربى المدعم بقوة ضغط إمدادات البترول، الذى حاباه الله لدول الخليج وبعض الدول العربية الأخرى. بعد ذلك ماتا الزعيمين مقتولين، على الأرجح فى خطة مسبقة لصراع قائم بين حضارات مختلفة. كانت الدعامة الثالثة هى التضامن العربى الذى لم يلبث أن انهار بعد سنوات قليلة. وتبدأ مرحلة جديدة من صراع السلام، وحرب عربية / عربية من الاتهامات بالخيانة والعمالة.

كان من نتائج حرب أكتوبر ١٩٧٣، أن زادت إيرادات النفط فى البلاد العربية المنتجة للبترول إلى ما يقرب من ثلاثين مرة. ففى المملكة العربية

السعودية كانت إيرادات النفط عام ١٩٧٠ حوالى ١٢٠٠ مليون دولار أمريكى فارتفع هذا الرقم إلى ٣١١٦٣ مليون دولار عام ١٩٧٤ ثم إلى ١٠٢٣٧٢ مليون دولار عام ١٩٨٠. فى الكويت كانت ايرادات النفط عام ١٩٧٠ حوالى ١٢٢ مليون دولار فارتفع الإيراد إلى ٤٧٦٥ مليون دولار عام ١٩٧٠ ثم إلى ١٧٢٤٦ مليون دولار عام ١٩٨٠. فى الإمارات العربية ارتفعت ايرادات النفط من ٢٣٣ مليون دولار عام ١٩٧٠ إلى ٦٣٠٦ مليون دولار عام ١٩٧٤ ثم إلى ١٩٤٥٦ مليون دولار عام ١٩٨٠. ارتفعت ايرادات النفط فى قطر من ١٢٢ مليون دولار عام ١٩٧٠ إلى ١٩٧٩ مليون دولار عام ١٩٧٤ ثم إلى ٥٣٨٧ مليون دولار عام ١٩٨٠ (هذه البيانات من كتاب " خروج العرب من التاريخ " – المصدر : خلدون النقيب – المجمع والدولة فى الخليج وشبه الجزيرة العربية – مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – ١٩٨٧).

فى نوفمبر من عام ١٩٧٧ قام الرئيس المصرى محمد أنور السادات بمبادرة جريئة لزيارة إسرائيل، لاستكمال جهوده بعد حرب ١٩٧٣، لتحرير الأراضى المصرية والأراضى العربية من الاحتلال الإسرائيلى. وقعت مصر مع إسرائيل معاهدة سلام حررت فى عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية، واشنطن فى ٢٦ مارس ١٩٧٩. جاء فى المادة الأولى من المعاهدة : (تنتهى حالة الحرب بين الطرفين ويقام السلام بينهما عند تبادل وثائق التصديق على المعاهدة).

فى أكتوبر من عام ١٩٨٧ وقبل شهرين من انفجار الانتفاضة الجماهيرية فى فلسطين، وجه ياسر عرفات رسالة إلى الشعب الفلسطينى استهله بالحديث عن الانتفاضة الشعبية. تلقت قادة إسرائيل الرسالة بالسخرية، حتى بدأت الانتفاضة الشعبية فى جميع أنحاء البلاد الفلسطينية ليحقق جيل الحجارة والخناجر ما أفزع قادة إسرائيل وأصابهم بالحيرة. حرب جديدة من أطفال وشباب الحجارة أمام قوات نظامية تحمل الأسلحة الفتاكة. حرب جديدة لم تعتادها إسرائيل، وبطولات فدائية من شباب أعياه اليأس والإحباط.

كان الرفض العربى / الفلسطينى لكل من مشروع التقسيم البريطانى عام ١٩٣٧، ومشروع الأمم المتحدة للتقسيم عام ١٩٤٧ سببان رئيسيان وهما :

رفض التخلى عن أى جزء من البلاد يعتبره الفلسطينيون ملكهم بمنطق الحق، وخشية الفلسطينيين من أن يستخدم اليهود دولتهم كقاعدة لمزيد من التوسع. بالرغم من أن الأيام قد أثبتت فيما بعد صحة وجهة النظر العربية / الفلسطينية، إلا أن الرفض كان دون قوة تحميه. إذا كان الحق نسبى، فالحصول على الحق يلزمه قوة تدعمه وتفرضه على الطرف الآخر، وهذا ما لم يحدث فى الصراع العربى / الإسرائيلى.

قامت حرب الخليج فى أغسطس من عام ١٩٩٠ بين دولتين عربيتين هما الكويت والعراق وانقسم العرب بين الطرفين، وانحازت القيادات الفلسطينية إلى الغازى وانتصرت الكويت بالجيوش الأجنبية والعربية. أثرت هذه الحرب على الفلسطينيين سلبيا فى جميع المجالات : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإعلامية. هذا بالإضافة إلى انهيار الاتحاد السوفيتى وتفككه، ومعه الكتلة الشيوعية فى أوروبا الشرقية. أصبحت الحضارة الغربية المكونة من الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا الغربية هى الرائدة والمهيمنة على أمور كوكب الأرض. لقد ساد الضعف العالم العربى، وأصبح المناخ العام ممهداً لقبول عروض سلام أمريكية رفضتها من قبل بعض الأنظمة العربية.

بدعوة من الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفيتى، وبرعايتهما، جرت أول مفاوضات مباشرة بين إسرائيل والفلسطينيين فى أكتوبر نوفمبر ١٩٩١ بمدينة مدريد عاصمة أسبانيا. جاء فى نص الدعوى على أن المفاوضات سوف ترتكز على قرارى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم ٢٤٢ و ٣٣٨، وان هدف المفاوضات هو السلام الحقيقى. جاءت هذه المفاوضات بعد اندلاع ثورة الحجارة فى ديسمبر من عام ١٩٨٧ م، فى الأراضى الفلسطينية المحتلة، وبعد أن قام الملك حسين، ملك الأردن فى عام ١٩٨٨ بفصل الضفة الغربية عن الأردن تأكيدا لهويتها الفلسطينية. وقعت الأردن وإسرائيل معاهدة سلام، وجرت مباحثات سورية / إسرائيلية، مباشرة وغير مباشرة، برعاية الولايات المتحدة الأمريكية، ومفاوضات فلسطينية / إسرائيلية، وتركت إسرائيل قطاع غزة وجزء من الضفة الغربية للحكم الذاتى الفلسطينى. ومازال الصراع مستمرا، إن لم يكن من خلال حروب، فمن خلال

سلام بارد، وانتفاضات، واغتيالات، ومباحثات، ومفاوضات. صراع يحكمه القوة فى نظام قائم على القوة، وجد منذ وجود الكائنات الحية، ثم وجود الإنسان، هذا الكائن الحى المميز عن غيره من الكائنات الحية بالذكاء واستعمال العقل، ولكن بالرغم من التطور الحضارى الذى قفز بالإنسان إلى درجات عالية من الرقى، والتحضر، إلا أن منظومة الصراع مازالت قائمة.

الفصل الخامس

التحليل الاستنتاجى والخلاصة

التحليل الاستنتاجى والخلاصة

قبل أن يقوم القارئ بقراءة الجزء التالى، من الممكن له القيام بتدريب عقلى، وذلك بتحليل موقف أطراف الصراع : العربى / الإسرائيلى، وأبعاده، والتنبؤ بالأحداث القادمة على المدى القصير والمدى الطويل. يتم التحليل داخل عقل الإنسان من خلال الإدراك الخاص بالفرد، والذى تكون فى سنوات حياته الماضية من ثقافته الخاصة، والتى تشمل خبرات ومعتقدات، ومن خلال شخصية الفرد المنفردة والمتميزة عن غيره، والتى تكونت من جينات موروثة، وتجارب سابقة، ومعلومات اكتسبها الفرد من مجتمعه الذى يعيش فيه. ثم يضاف إلى ما سبق ما اكتسبه الفرد من قراءة الجزء السابق من الكتاب. بالطبع سوف يجد القارئ اختلاف بين تحليله، والتحليل الوارد فى الكتاب، فلا يوجد تطابق كامل بين الأفراد. سوف يرى القارئ إلى أى مدى تؤثر الصورة الذهنية الفردية فى التحليل المنطقى الشخصى، ومن ثم فى أى قرار يتخذه الفرد. وإذا اتسعت المقارنة وشملت عدد كبير من القراء وبالتالى عدد كبير من التحليلات، سيظهر التوافق فى الآراء، والتباين، والاختلاف، وكلها من سمات نظام بشرى نحيا فيه ونتعايش به.

أيضا قبل أن نذهب إلى التحليل الوارد فى الكتاب، دعنا نقوم بسرد تعريفات بعض المصطلحات، حتى يكون معنى الكلمة أو المصطلح واضح ومحدد لدى الطرفين (القارئ والكاتب). فكثير من عدم التفاهم والاختلاف الذى قد يصل إلى صراع يعود إلى الاتصال الغير ناجح (Bad Communication) بين الطرفين، أى بين متلقى الرسالة (المستمع أو القارئ)، وبين مصدر الرسالة (المتكلم أو الكاتب). يساعد على عدم الاتصال الغير ناجح، الثقافة المختلفة للأفراد، حتى لو كانوا يعيشون فى مجتمع واحد. مثال على ذلك، بعض المصطلحات التى يستخدمها شبابنا اليوم قد لا تعنى أى شئ مفهوم لدى الأجيال السابقة، أو قد يسئ فهمها أو المراد منها. لذلك من الأجدى أن نتوسع فى شرح معانى الكلمات / الجمل / المصطلحات، التى قد يحدث عليها لبس أو سوء تفاهم.

• التحليل Analysis : بمعناها الفلسفى اكتشاف أشـكال التعبير اللغوية للأفكار والفرضيات، مما يبسط التعقيد الكامن فى الصياغات اللغوية المعتادة لها، والناشئة من الطبيعة المختزلة لتلك الصياغات. أيضا يعرف التحليل بأنه أحد أنواع عملية التحديد والتعريف، بغرض الوصول إلى نتيجة، أو الوصول إلى قرار.

• تحيز Prejudice : الهوى والتحامل والحكم المسبق، والموقف الذى يتخذه الفرد أو الجماعة ضد فرد آخر أو جماعة أخرى، دون سند من المعلومات الصحيحة، أو المنطق السليم والأفكار الموضوعية. قد يكون هذا الموقف رأيا، وقد يتحول إلى فعل عملى. ينشأ التحيز من الصورة الذهنية التى تشكلت من التجارب التى اكتسبها الفرد خلال رحلته الحياتية، أو اكتسبتها الجماعة أو الشعوب خلال تاريخها، فتتحيز الأفراد أو الشعوب التى لها مصالح مشتركة أو ثقافات متقاربة أو ديانة واحدة إلى بعضها البعض، وعليه تتحيز الدول الإسلامية ودول عدم الانحياز سابقا وكثيرا من الدول الشرقية إلى الجانب العربى بينما تتحيز الدول الغربية إلى جانب إسرائيل.

• ثقافة Culture : المجموع المعقد، والمتداخل، والمتفاعل، لكل من المعرفة، والعقيدة، والفن، والأخلاقيات، والعادات، وغيرها من القدرات والتقاليد، كأسلوب العمل واللهو، وأدوات الإنتاج وقواعد السلوك. . الخ، والتى يكتسبها الإنسان من خلال عضويته لمجتمع معين أو حضارة معينة.

• حضارة Civilization : التحضر، والتقدم، والتحول الإنسانى بشكل عام، من مستوى إلى مستوى آخر أكثر تطورا وتعقيدا فى جميع المجالات والأنشطة المختلفة، من حيث التقنية المستخدمة، أو الثقافة السائدة.

• الأسطورة Myth : شكل حكائى قد تكون فى الأصل حقيقة أو خرافة. يدخل فى نسيج الأسطورة الحياة الاجتماعية للناس، وترتبط ببطل أو مجموعة أبطال دينيين، أو حربيين، أو عاطفيين، أو سياسيين، أو علميين. تعكس

الأسطورة وتجسد النظام الاجتماعى والأخلاقى، والمثل العليا والأهداف العامة للمجتمع.

- قومية Nationalism : انتماء جماعة بشرية واحدة لوطن واحد، يجمعها تاريخ مشترك، وثقافة واحدة أو متقاربة ولغة واحدة، وأهداف وطنية واحدة.

- عقيدة Belief / Faith : الإيمان بدين ما، والاعتقاد بصحة أساطير معينة، وتبنى أفكار وأراء معينة.

- منطق Logic : عملية تفكير متسلسلة ومتصاعدة بفرض الاستنتاج، ليكشف العقل من خلالها مزيد من الصفات، ومدى تطابق، أو تشابه، أو تنافر الأشياء بعضها مع البعض، واستنباط العلاقات الداخلية بين الأشياء حتى يتكون نظام معرفى وفكرى متكامل.

- منظومة System : مجموعة من العناصر الديناميكية (غير ساكنة)، لها علاقات متشابكة، تعمل بأسلوب روتينى منتظم، من أجل هدف محدد.

- مواجهة Confrontation : تقابل شيئين وجها لوجه، مقابلة تنافسية أو تصادمية.

- نظرية المباريات Theory of Game : نظرية تجمع وتنظم مجموعة قوانين تحكم السلوك العقلى لطرفين أو أكثر، حيث تتصادم الإرادات والمصالح، ويكون الصدام أو الصراع بدافع رغبة كل طرف فى منع الطرف الآخر من تحقيق أهدافه، مع رغبته فى تحقيق أهدافه هو الخاصة.

- الإدراك الحسى Perception : الإدراك بوجة عام هو الوعى بالأشكال أو المواقف وتقديرهما من خلال الحواس. فالإدراك عملية عقلية تتم من خلالها معرفتنا بالعالم الخارجى. وهى نوع من الاستجابة ترمى إلى القيام بنوع معين من السلوك يتوقف على المنبه الخارجى، وعلى الحالة الشعورية والوجدانية للفرد، وعلى اتجاهه الفكرى، وخبراته السابقة إزاء مثيرات

مشابهة. تمر عملية الإدراك عادة بثلاث مراحل هى النظرة الكلية الإجمالية للشىء المدرك، ثم النظرة التحليلية والكشف عن العلاقات بين الأجزاء، ثم إعادة التأليف بين الأجزاء والعودة إلى النظرة الكلية، ويتم كل ذلك فى ضوء إمكانيات الفرد وخبراته لتتكون الصورة الذهنية للفرد.

- الصورة الذهنية Imago : هى صورة تتكون فى ذهن / عقل الإنسان، نتيجة لتفاعل عملية الإدراك عن طريق الحواس، مع موروثات الفرد الكائنة فى جيناته، مع تجارب الفرد المكتسبة عبر سنوات حياته. هذه الصورة ترتبط بشخصية الفرد المنفردة والمتميزة عن أى شخصية أخرى. من أمثلة الصورة الذهنية : صورة اليهود العالقة فى ذهن العربى المسلم ترتبط بالبخل والتمرد على الأنبياء، والحرص على كثرة المجادلة، وعدم المرونة، واللؤم. بالإضافة إلى اغتصاب الأرض- أما صورة اليهودى العالقة فى ذهن العربى المسيحى هى أنهم السبب فى صلب المسيح، وانهم أقلية مثلهم بالإضافة إلى اغتصاب الأرض. وصورة العربى فى ذهن اليهودى الوافد من الحضارة الغربية هى التخلف، والإرهاب والضعف أمام الغرائز الحسية (مثل الطعام والجنس).

- شخصية Personality : تنظيم ديناميكى متكامل لخصائص الفرد المادية (من مادة Physical)، والعقلية، والخلقية والاجتماعية، والشخصية تعبر عن كون الفرد أمام الآخرين من مظاهر الاخذ والعطاء فى الحياة الاجتماعية، وعلى ذلك فالشخصية تشمل الجوانب الطبيعية الموروثة فى الجينات، وأيضا الجوانب المكتسبة من البيئة، فهى تشمل العادات والميول، والعقد والعواطف، والمثاليات والآراء، والمعتقدات الخاصة بالفرد، والتى تتضح من علاقات الفرد وتفاعله مع المجتمع. وشخصية الفرد نسيج وحيد الشكل والصفة والسمة، لا يتطابق مع نسيج آخر.

- شخصية منوالية Modal Personality : هى شخصية شائعة فى المجتمع، بمعنى أن خصائصها وسماتها هى الأكثر شيوعا فى أفراد مجتمع ما.

- مشاركة وجدانية Sympathy : حالة من التعاطف الانفعالى مع فرد أو مجتمع ما، ومشاركته نفس الإحساس والشعور من حزن وضيق، أو سرور وفرح، مع التبرير العقلى لتصرفات وانفعالات وسلوك الغير الذى نتعاطف معه، وتأييده معنويا أو ماديا.

- عاطفة Sentiment : اتجاه نفسى إيجابى محب، أو سلبى كاره نحو موضوع معين (شخصى، أو جماعة، أو شعب، أو شخصية تاريخية، أو مذهب أيدلوجى، أو فلسفة معينة، . . الخ). يتصف هذا الاتجاه بشحنه انفعاليه قوية سواء بالحب أو الكره نحو موضوع العاطفة. والعاطفة اتجاه نفسى مكتسب - إلى حد كبير - من البيئة كنتيجة لما يمر به الفرد أو المجتمع من تجارب وخبرات، ولما يعايشه من أمور وحوادث. تتميز العاطفة بدرجة ما من الثبات، ولكن يطرأ عليها غالبا بعض التغيرات أو التحويلات بمرور الوقت، وذلك باكتساب مزيد من التجارب المختلفة، قد تقود العاطفة إلى الزيادة أو إلى النقصان.

نعود مرة ثانية إلى موضوعنا الخاص بالصراع العربى / الإسرائيلى لنقوم بتحليله ولنتعرف على أسبابه ودوافعه وذلك من خلال الأبعاد العقائدية، والمادية، والنفسية وأبعاد أخرى تبلورت وتجسمت على مدى التاريخ الطويل الذى ربط بين أطراف الصراع، والذى تم سرده فى الأجزاء السابقة :

أولا : أسباب عقائدية

نزل على الإنسان فى كوكب الأرض ثلاث أديان سماوية، وهى على التوالى :

اليهودية، ثم المسيحية، ثم الإسلام. إذا لم يؤمن معتنق الدين القديم بالدين الحديث، فمعنى ذلك انه لا يؤمن بالدين الحديث، وإلا قام بتغيير دينه. بهذا المنطق داخليا (وليس ظاهريا) لا يعترف معتنقو الدين اليهودى بالدين المسيحى أو بالدين الإسلامى، وبنفس المنطق لا يعترف معتنقو الدين المسيحى

بالدين الإسلامى. والعكس صحيح، فمعتنقى الأديان الحديثة تؤمن بالأديان القديمة بعد استكمالها ووضعها فى موضعها الصحيح. لقد كان لليهود مواقف عدائية مع النبى محمد صلى الله عليه وسلم، رسول المسلمين، سبق سرده – لم ينساه المسلم، ولن ينساه لأنه وارد فى القرآن الكريم. بالرغم من ذلك رفض الخليفة عمر بن الخطاب بعد فتح القدس، استمرار تطبيق القانون الرومانى بمنع اليهود الوفود إلى المدينة المقدسة لزيارة أماكنهم المقدسة، لأنهم من أهل الكتاب. أيضا عاش اليهود فى بلاد الأندلس الإسلامية فى أمان وسلام لعهود طويلة بالرغم من معاناتهم من اضطهاد المسيحيين لهم قبل دخول وبعد خروج الإسلام لبلاد الأندلس. ساعدت الأساطير اليهودية القديمة والقصص التاريخية الكثيرة الواردة فى التوراة والتلمود مثل قصه شمشون ودليلة، فى تكوين الصورة الذهنية العدوانية لدى الطرف الإسرائيلى ضد الفلسطينيين كما غذت حوادث الإرهاب اليهودى فى الأماكن المقدسة الإسلامية، الشعور الانتقامى العدوانى لدى العرب المسلمين.

تدل القصص التاريخية الأولى، والخاصة بخروج بنى إسرائيل من مصر، حتى وصولهم أرض الميعاد، وفقا للعقيدة اليهودية على أن الصراع بين بنى إسرائيل والمصريين كان صراعات من أجل الخروج أما الصراع مع الفلسطينيين فكان صراع على الوجود. ما فعله موسى مع أهل مصر كان ضغطا على فرعون للسماح للإسرائيليين بالخروج من مصر، أما الصراع الطويل مع أهل فلسطين فكان بسبب إثبات الوجود فى مكان واحد، وعلى أرض واحدة، ومصادر مياه واحدة، كل طرف يطالب بالحق فيها.

ثانيا : سلب الأرض

هذا البعد المادى يعتبر من أهم أسباب الصراع. من الواضح واليقين تاريخيا أن كل من العربى الشامى والإسرائيلى، قد عاشا فى الأزمنة القديمة على الأرض المتنازع عليها. لقد تغير الفلسطينى القديم، والكنعانى، والفينيقى، والحيثيين، . . وغيرهم من أهل الحضارات القديمة إلى عرب الشام، أيضا تغير الفرعونى إلى مصرى عربى، وتغير البابلى والآشورى إلى عراقى عربى –

فالمنطق والعدل يؤيدا حق العربى فى الأرض المتنازع عليها. من وجهة النظر الإسرائيلية، فإن اليهود بنى إسرائيل قد عاشوا فى الأرض المتنازع عليها. ليس ذنبهم تشتتهم فى أنحاء كوكب الأرض، لقد أرغمهم الرومان من حوالى ألفى سنة إلى ترك ديارهم. لقد حصل تزاوج واختلاط جنسى بين يهود بنى إسرائيل وأهل البلاد التى عاشوا فيها خاصة فى القرنين الماضيين بعد انتهاء العصور الوسطى فى أوروبا، وحلول عصر الحرية والمساواة والعلم، كما اعتنقت بعض القبائل الدين اليهودى مثل قبيلة الخزر، ولكن تظل الحقيقة بأن بنى إسرائيل قد عاشوا فى أرض الشام دهورا طويلة. وجهة نظر أخرى لها أهميتها هى : بفرض انه جاء الهنود الحمر، سكان أرض الولايات المتحدة قبل وفود الأوروبيين إليها، وطالبوا فى الوقت الحالى بطرد أهل أمريكا من الأصول غير أصول الهنود الحمر، هل سيتقبل أهل الولايات المتحدة، وأصحاب الحضارة الغربية هذا المنطق، بالطبع سيرفضوا. ولن يتحقق ما يطالب به الهنود الحمر إلا إذا كانت لديهم القوة، لفرض مطالبهم (سنأتى إلى محور القوة فيما بعد)، وعليه فان عرب الشام باستيطانهم الأرض لألفى عام منفردين، لهم حق الوجود التاريخى، على الأقل من وجهة النظر العربية والدول المنحازة لها.

اختلفت الآراء على حدود إسرائيل من وجهة نظر الديانة اليهودية، فمنها يحدد الأراضى الواقعة ما بين بلدة دان شمالا إلى بئر سبع جنوبا، وتحتوى على ضفتى الأردن شرقا والبحر المتوسط غربا. أن هذه المنطقة تشمل أرض كنعان التى حددت فى معاهدة السلام بين رمسيس الثانى والحيثيين عام ١٢٧٠ ق. م وينادى البعض الآخر من اليهود بإسرائيل الكبرى، التى يحدها من الشرق الجولان ومرتفعات لبنان حتى صيدا، ومن الجنوب بئر سبع وحتى خليج العقبة، ومن الشرق منطقة شرق الأردن، ومن الغرب البحر المتوسط، وقد تصل حدود مملكة إسرائيل الكبرى إلى نهر النيل فى الجنوب الغربى، وإلى نهر الفرات فى الشمال الشرقى. كما تأتى مدينة أورشليم القديمة كوضع خاص بالنسبة لليهود لوجود هيكل سليمان رمز الديانة اليهودية فى داخلها. أما فى واقع الحضارة الغربية (الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية) والتى تساند، وتدعم، وتأيد إسرائيل فى العصر الحالى، فان

الاستراتيجية السياسية والعسكرية والاقتصادية للحضارة الغربية، تتمثل فى وجود كيان حليف، قريب من منابع النفط والغاز الطبيعى، وفى وسط كيان إسلامى / عربى، لا يريدوا له الصعود والتقدم. أن الحدود الدينية القديمة غير ذا أهمية عند الغرب الذى يهمه فقط وجود كيان حليف بالقرب من مصادر الطاقة، ووسط حضارة إسلامية قد تنهض من جديد وتهدد حضارتهم الغربية. لقد توافقت المصالح بالرغم من اختلاف الهدف الاستراتيجى، وتحالف الغرب مع إسرائيل، خاصة بعد اندماج ثقافة اليهودى الأوروبى بدءا من القرن الثامن عشر فى الثقافة الغربية الحديثة التى دعت إلى الحرية والديمقراطية، وكذلك بعد أن سيطر يهود أوروبا الغربية والولايات المتحدة على الإعلام، والمال، وعلى عالم المعلومات والكمبيوتر حديثا.

ثالثا : الطبيعة العدوانية للبشر

يتطلع الإنسان دائما إلى تأكيد ذاته، ونيل التقدير والاحترام من الآخرين، كما يميل البعض إلى الزعامة والقيادة وإظهار السلطة على الغير. يتمثل هذا فى انتهاز الفرص التى تسمح للبعض بإخضاع من هم أضعف منهم، وإظهار النفوذ والسلطان للغير. ما الدافع إلى العدوان والرغبة فى الصراع والقتال، هل الدافع غريزة موروثة فى جينات الإنسان، أو سلوك مكتسب من البيئة. توجد تفسيرات عديدة للسلوك العدوانى. تذهب بعض نظريات علم النفس إلى اعتبار العدوان مرتبط بالنمو الجنسى للطفل فى مراحله المختلفة. تعتبر نظرية أخرى، العدوان وظيفة من وظائف الذات (Ego)، تظهر بتأثير الإحباط، فان العدوان وظيفة من وظائف الذات الفطرية لتحقيق حاجاتها التى تتعلق بحفظ الحياة وتحقيق الأمن والأمان. ان الميول العدوانية لا تخرج إلى نطاق السلوك والأداء العملى إلا بتدخل من البيئة أساسه المنع والإحباط. تعتبر النظرية الثالثة العدوان تعبيرا عن غريزة الهدم، فالحوافز الغريزية نابعة من قوتين هما إرادة الحياة التى تتعلق بتحقيق الاحتياجات الحيوية مثل الأكل والشرب والسكن، وإرادة الموت التى تتعلق بتحطيم تلك الحياة وكراهية الآخرين. أن المظاهر الجنسية المختلفة ما هى إلا تعبيرات عن إرادة الحياة، أما المظاهر العدوانية فهى للتعبير على الهدم والتحطيم.

يذهب رأى آخر إلى أن العدوان يكتسب فى ظل البيئة التى يعيش فيها الفرد نتيجة احتكاكه السلبى أو الإحباطى أو القمعى بالجماعة التى يعيش بينها، أو بالمجتمعات والدول الأخرى التى يتعامل معها. أن احتياجات الإنسان كثيرة، وتطلعاته كبيرة، ويحد المجتمع من خلال أفراده طموح وتطلعات الفرد. كما تحد القبيلة أو الدولة طموح وتطلعات القبيلة أو الدولة الأخرى، فينبع الشعور بالكراهية والنفور من أفراد المجتمع الذى يقف فى طريق إشباع احتياجات ونزوات وشهوات الفرد، كما ينبع الشعور بالكراهية والميل للعدوان - لدى شعب ما - لشعب آخر يقف فى طريق تحقيق أطماعه وأهدافه. أيضا يولد إحساس التعالى والتفوق الذى يوجد عند بعض البشر، أو عند بعض الشعوب، السلوك العدوانى، فيبدأ الصدام والعنف الذى قد يصل إلى حرب وقتال.

تغذى الصورة الذهنية المتكونة لدى طرفى الصراع الميل للسلوك العدوانى. لقد تكون صور ذهنية لدى العربى والإسرائيلى تمثل الطرف الآخر بالإرهابى القاتل، المغتصب للأرض، المتخلف، المتعصب، البادئ بالعدوان. تولد الصورة الذهنية طاقة انفعالية مثل الشرارة الكهربية، تسرى فى الأفراد ثم الجماعات، لتسود وتشمل المجتمع أو الشعب كله، داعية إلى العدوان والحرب، والانتقام، والثأر من الطرف الآخر. أن التنافس، والصدام، والصراع، والحروب لن تنتهى طالما وجد الإنسان فى مجتمع يعيش بداخله، وطالما عاشت شعوب مع شعوب أخرى فى كوكب محدود المساحة بالرغم من وجود هذا الكوكب فى كون غير محدود. أن غريزة الموت هى نهاية الصراع لإثبات الذات ونيل اعتراف وتقدير الآخرين. فالموت قادم لا محالة، ولئن تعددت الأسباب فالموت قدر على الإنسان.

لماذا تفوقت إسرائيل عسكريا، واقتصاديا، ونجحت فى تحقيق حلمها بإنشاء دولة أرض الميعاد ؟

نشأ بنى إسرائيل والعرب من جنس سامى واحد، وتجاوروا فى الشرق الأوسط فى منطقة حوض البحر المتوسط الشمالى الشرقى. اشترك العرب مع بنى إسرائيل فى الزمن القديم - فى ثقافات شرقية متقاربة، هذا إذا استثنينا

العقيدة والدين. حتى الثقافة الدينية يشترك فى الكثير منها كل من الطرفين. فالمسلمون واليهود يحرمون لحم الخنزير، ويفرضون الختان الذكرى. يشتركون فى كثير من الأنبياء. لدى الطرفين القصص الدينية المشتركة.

إذاً ما الذى ميز بنى إسرائيل عن بنى العرب فى حروب القرن العشرين، وفى تنمية الاقتصاد ليصل الناتج القومى للفرد فى إسرائيل (Gross National Product-GNP) حوالى ستة عشر ألف دولار للفرد فى السنة، أى حوالى عشرة أضعاف مثيلة فى بعض البلاد العربية الغير خليجية، أو التى ليس لديها فائض من المنتجات البترولية. فى النقاط التالية بعضا من التحليل والأسباب التى أدت لهذا التميز.

- ساير يهود أوروبا موجات الحرية والديمقراطية، والتطور الصناعى والعلمى، الذى بدأ فى أوروبا فى القرن الثامن عشر، والذى أذن ببداية حضارة غربية واعدة ومتطورة، ومستمرة حتى يومنا هذا. ظهر الكثير من الفلاسفة، وعلماء الفيزياء، وعلماء النفس مثل كارل ماركس، وألبرت اينشتين، وسيجموند فرويد وغيرهم. بينما تجمد تطور البلاد العربية، التى كانت تنعم بحضارات متميزة فى العصور القديمة، من حضارة فرعونية، وبابلية، وكنعانية، وفينيقية، ثم حضارات إسلامية أنارت ضوء العلم والأدب، والطب، والفلسفة، والصيدلة فى القرون الوسطى، أو قرون الظلام بالنسبة لأوروبا، ثم تجمدت بعد ذلك، ولم تتطور أو تواكب التحرر الفكرى والعلمى الحديث. لقد احتلت معظم الأراضى العربية من العثمانيين أولا، ثم من دول أوربية (بريطانيا وفرنسا وإيطاليا)، ساعد الاستعمار على التخلف وتجزئة العالم العربى إلى دول ودويلات، فتباعدنا عن روح الحرية والديمقراطية، وتخاذلنا فى تطوير حضارتنا.

- تفاعل يهود الغرب مع الثقافة الغربية فى أوروبا فى القرون الحديثة، مع احتفاظهم بثقافتهم اليهودية القائمة على العقيدة القديمة، والدين اليهودى، مما ساعدهم فى فهم الفكر الغربى وتتماشى معه، فحصل بنى إسرائيل على

التأييد المادى، والمعنوى، والحربى، فى صراعهم مع العرب فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

- اليهودى متشبع حتى النخاع بعقيدة شعب الله المختار، وأرض الميعاد، وهيكل سليمان. ساعد على ترسيخ هذه العقيدة سنوات التشتت والهوان ودل أكثر من ألفى عام، عاشها اليهود فى دول تعادى انعزالهم وتمسكهم بعقيدتهم، وثقافتهم الشرقية المختلفة عن الثقافة الغربية، فاضطهدتم الشعوب التى عاشوا معها سنوات التشتت. كان الصبر الطويل، مع الاحتفاظ بالعقيدة اليهودية هما الطاقة التى شحنت عزيمتهم للوصول إلى هدف إنشاء دولة إسرائيل الحديثة.

- تكامل الاتجاه الدينى المتشدد، والذى يؤمن بسلطان الدين على الدولة، مع الاتجاه العلمانى الذى يؤمن بعكس ذلك. قد يتعارض التيارين ظاهريا، ولكن فى حقيقة الأمر فأن كلا من التيارين له دور فى منظومة موضوعة مسبقا لإحياء حلم أرض الميعاد، وإنشاء دولة إسرائيل، ثم تنميتها وتطويرها اقتصاديا، واجتماعيا، وعلميا، وعسكريا، حتى الوصول إلى مملكة إسرائيل الكبرى.

- إذا شبهنا كيان بنى إسرائيل بجسد الإنسان، فالدين والعقيدة لبنى إسرائيل هما القلب والرئة بالنسبة للإنسان، فبدون هذين العضوين تنتهى الحياة، فهما السبب فى استمرار الحياة.

أما رجال السياسة، والمال، والعلم، والفلسفة، والحرب، فهم مثل الحواس الخمس، من خلالهم يتعرف الجسد على العالم الخارجى، ليطور الجسد نفسه، ويرتقى بذاته، ويحقق أهدافه. ثم يظهر العقل، المايسترو الذى ينظم العلاقة بين الطرفين، أو العلاقة بين عضوى الحياة، والحواس الخمس، والعقل مثل زعماء بنى إسرائيل، يقودوا الجميع نحو تحقيق الهدف. فى منظومة من منظومات لعبة الأمم (Game of Nations). وضع اليهود منظومة الكيان الإسرائيلى، وخطة تحقيق هدف إنشاء دولة إسرائيل، ثم

الاستمرار فى الوجود وسط محيط عدائى لهم، عن طريق الحرب أو السلام، بالاعتماد على الذات وعلى قوى أخرى خارجية. فى هذه المنظومة تتفاعل الثلاث مجموعات (زعماء / رجال دين وعقيدة / رجال حرب وعلماء ورجال مال واقتصاد)، فيخططون، ويتعاونون، وينسقون، ويعملون فى تناغم واتفاق، وفى عداء وخصام وعدم اتفاق ظاهرى، من أجل إخراج سيمفونية - ناجحة بالنسبة لهم - من آلات موسيقية مختلفة النغمات، استطاع المايسترو الصهيونى أن يخرجها بإتقان.

- أما الحال فى الجانب العربى فكان عكس ذلك تماما. حدث اختلاف وانشقاق بين زعماء الشعوب العربية، وعاش العربى تحت حكم أسرى أو قبائلى. لم يستثمر العرب حصيلة مواردهم الاستثمار الأمثل فى تنمية بلادهم، وفى إنشاء بنية أساسية، وإقامة صناعات على مستوى تكنولوجى متطور. لم ينجح العرب فى حل خلافاتهم وقيام وحدة عربية. لم تجرى الثروات من أعلى إلى أسفل، فتمتع صاحب الثروة، وحقد عليه الفقير المعدم. ظهر الأصوليين وعادوا من لم يتبعهم، وسفك المسلم دم أخاه المسلم، وذبح العربى أخاه العربى، مما أدى وسيؤدى إلى ضعف كل الأطراف، وعلى ذلك كانت المحصلة بصفة عامة إضعاف قوة الجانب العربى.

- كل طرف له حجة فى الصراع العربى / الإسرائيلى، ولكن إذا كانت الأمور واضحة، والأحكام والقوانين مطلقة وليست نسبية، والمنطق له مقاييس ومعايير واحدة، ما كان حدث الاختلاف الذى يسود نظامنا البشرى، والصراع المستمر الذى بدأ بين الإنسان والطبيعة، وتواصل حتى انتهى بصراع بين البشر بعضهم البعض منذ بدأ الإنسان يعيش فى مجتمع. حتى التحكيم والقضاء نسبى، قد يذهب طرفى النزاع إلى القضاء ويصدر حكم ابتدائى، ويستأنف إحدى الطرفين أو كلاهما، فقد لا يرضى الحكم إحدى الطرفين أو كلاهما، قد يؤيد أحكام الاستئناف والنقض الحكم الابتدائى، وقد تخالفه، ربما تظهر أدلة جديدة، أو تتغير القوانين، أيضا لقد تغير من يحكم، من حكم ابتدائى، إلى استئناف، إلى نقض، كل منهم له صورة ذهنية مختلفة عن الآخر. لو كان الحق مطلق، والأحكام والقوانين والقيم واحدة وواضحة

لكل الناس، ولو كان المنطق له مقاييس ومعايير واحدة، ما كان حدث الاختلاف البين، و الصراع الدائم، وما وجدت درجات القضاء المختلفة. أخيرا فى نظام كونى يسود فيه : الاختلاف، والتباين، والنسبية، والاحتياجات البشرية، وغريزة عدوانية، لابد أن يظهر فيه مبدأ القوة، لينتصر منطق القوى، ويضيع أمل الضعيف. إذاً فالقوة هى العامل الرئيسى لحسم النزاع، ونهو الصراع.

تتمثل القوة فى العصر الحالى فى ثلاثة محاور :

المحور الأول: وجود تكنولوجيا متطورة وعالية التقنية (**High Technology**)، للوصول إلى اقتصاد مرتفع قادر على تحمل تبعيات الصراع، ولإنتاج أسلحة متطورة وقادرة على هزيمة الطرف الآخر .

أما المحور الثانى: فى العنصر المادى او الفيريائى من خامات، وطاقة وأيدى عاملة، وذلك لتنمية المجتمع، ولتحمل تكاليف الصراع، ولإنتاج السلاح اللازم للصراع.

وتجئ المعرفة كمحور ثالث :تشمل المعرفة المعلومات اللازمة للاستعداد للدفاع أو الهجوم وعدد ونوع أسلحة الطرف الآخر، وعتاده، وأماكن تواجده. أن المعرفة عامل أساسى فى جميع أفرع العلم الحديثة، من اتصالات وحاسبات إليكترونية، واقتصاد، وعلوم فلك وفضاء وطب، . . الخ.

يعتمد كل محور من المحاور الثلاثة السابق ذكرها على المحوريين الآخريين، وتتفاعل عناصر المحاور الثلاثة فى منظومة واحدة، لا ينقصها إلا قائد أو قادة، ليست لديهم أطماع شخصية، يعملون فقط من أجل إنجاح المنظومة للوصول إلى الهدف بأقل تكلفة وفى أقصر وقت، مطبقا نظريات المعظمة (optimization). لا داعى لذكر صفات القائد، فكتب التاريخ مملوءة بالقادة والزعماء العظام، ذوى القدوة لشعوبهم، الذين يتصفون بالشجاعة والإقدام، وإنكار الذات، الذين يعملون من أجل المصلحة العامة ومن أجل تحقيق رفاهية وأحلام شعوب البلاد التى يحكمونها.

سؤال : من المسئول عن عبودية العبد، هل هو العبد أو السيد ؟

الإجابة : بالتأكيد العبد، لأنه ارتضى أن يكون عبدا، وفضل العيش في ذل وخنوع بدلا من النضال حتى الموت. أيضا فالمحكوم الضعيف هو المسئول عن ضعف الشعب الذى يعيش فيه، لأنه فرد من الشعب، ارتضى الخضوع للحاكم الأنانى الذى فضل أن يتمتع هو دون باقى الشعب، بالحكم الجائر وبثروة شعبه. لم يهب ملوك وحكام أوروبا الحرية والديمقراطية لشعوبهم، لقد انتزعتها الشعوب قصرا، بالثورات والسجن والموت، بعد أن قاد فئة المفكرين المسيرة الثورية.

شعوبنا تخاف من الحرية، فطريق الحرية صعب وشاق للحاكم والمحكوم. الحاكم سيواجه آراء مخالفة من المعارضة. ففى النظام الديمقراطى، لابد للحاكم أن يهيأ نفسه للدخول فى صراع مع المعارضة، ولكنه صراع من اجل مصلحة الجميع - الحاكم والمحكوم. مادامت توجد شفافية فى القرار، وعدم استغلال لثروات البلاد المحكومة فلن يتمسك الحاكم بالحكم، برضاء الطرفين : الحاكم والمحكوم، أو عن طريق قوة الطغيان والاستبداد. اما بالنسبة للمحكوم فالحرية تعنى التفكير والتحليل، وصراع سلمى مع اطراف اخرى من أجل ان يقول رأيه ويؤكد على تثبيت ذاته، وماأصعب تعب العقول لشعوب ظلت سنوات طويلة فى سبات فكرى عميق.

اسرائيل بالنسبة لى مغتصبة للاراضى العربية، ولكن انشاء دولة اسرائيل بالنسبة لليهود والغرب هو عودة لارض الميعاد، وامتداد لحضارة الغرب فى الشرق الاوسط. ان فتوحات الفراعنة بالنسبة لى هى امجاد عظيمة تتمنى عودتها ونتغنى بها، اما بالنسبة للغير هى احتلال اراضى وسيطرة على شعوب وطغيان واستبداد. غزوات الفتح الاسلامى بالنسبة لى، كان اعلاء لراية الدين الاسلامى، اما بالنسبة للاخرين فهو احتلال بالقهر وبقوة السلاح. مادام كل شئ نسبى فلنكن اقوياء، بحضارة راقية، وقوة عسكرية، وقوة مادية. ان القوة تلزم الأطراف على احترام الطرف القوى والاذعان له، حتى لو كان الضعيف على حق، فان القوه تفرض الخضوع على الطرف الضعيف. قد يلجأ

الطرف الضعيف إلى المقاومة السلبية، أو المقاومة الإيجابية ولكن غالبا ما يحسم الصراع الطرف الأقوى.

أنا لا ألوم الصليبيين على حروبهم الصليبية واحتلالهم القدس ومحاولتهم القضاء على الوجود الإسلامى فى القدس، ولا ألوم الأوربيين لنجاحهم القضاء على محمد على الذى كان يسعى لبناء إمبراطورية حضارية واسعة الأطراف تمتد من مصر، شرقا إلى بلاد الشام ثم إلى الجزيرة العربية، وجنوبا إلى السودان. أنا ألوم فقط أجدادى للتقصير فى الحفاظ على الإمبراطورية الفرعونية، ثم الإمبراطورية العربية، وألوم نفسى الآن كما ألوم أقرانى فى مصر وفى الوطن العربى لأننا قصرنا فى إحياء حضارتنا السالفة. وسيلومنا أحفادنا على تخاذلنا وتقصيرنا، فالحاضر ناتج أفعال الماضى والمستقبل محصله أفعال الحاضر. لقد كنا فى قوتنا غزاه وفاتحين، ونحن نفخر بذلك، ولو عادت إلينا القوة فبالتأكيد سنعيد ما فعلناه من غزو وفتوحات.

طوال ألفى عام، لم يخب الحلم اليهودى للعودة إلى أرض الميعاد، وعلى مدى قرن من الزمان استطاع بنى إسرائيل طبقا لتخطيط مسبق، وعمل متواصل تحقيق الحلم وإنشاء دولة إسرائيل. هل يكون هذا حافزا لنا نحن العرب فى ظل نظام كونى قائم على الصراع، وفى وجود قوى وحضارات عديدة، أن نبدأ فى بناء حضارة عربية جديدة، ليهل القرن القادم، والمنظومة الحضارية العربية هى المتفوقة والسائدة. ليس هدف هذه الحضارة التدمير، ولكن إثبات الذات العربية التى امتهنت فى الألفية الثانية، من احتلال المماليك ثم العثمانيين، ثم الاحتلال البريطانى/الفرنسى، ثم الاحتلال الإسرائيلى، ثم المعونة والحماية الأمريكية. يجب أن ينحى العرب جانبا اتهامات العمالة والخيانة والتكفير. يجب أن يحترم العربى أخاه العربى. يجب أن تكون للعرب دولة واحدة تحكم بشكل ديمقراطى، دولة تسودها الحرية، والعدالة، والمساواة، يجب أن تعم خيرات البلاد جميع أبناء العرب، بالإيثار والتعاون، والتضامن والتكافل، وليس بالحقد والغل والكراهية. سوف تنضب مصادر بلاد العرب من المواد البترولية فى مدى خمسين عاما على الأكثر، فماذا سيكون وضع أحفادنا إذا لم نستثمر ثرواتنا ونحافظ على كياننا واستقلالنا. لقد ماتت فكرة القومية العربية،

الشقاق الوطن العربى، واستطعنا نحن العرب بأيدينا ان نسبب الهزيمة لانفسنا، بتخاذلنا، واطماعنا الشخصية، والانانية الفردية. الخوف من المستقبل القادم قائم، سوف تتطور حضارات فى الغرب، وفى الصين، وفى اليابان، وفى اماكن اخرى، بينما تتدهور حضارة نابعة من حضارات قديمة مزدهرة، سوف يطل علينا سلام بارد طالما اسباب الصراع قائمة، فالطبيعة العدوانية لن تنتهى الا بالقضاء عليها عن طريق الهندسة الوراثية، وهذا أمل بعيد الحدوث فى المستقبل القريب. منابع الثروة النفطية باقية فى أماكنها لمدة نصف قرن تقريبا مما يدعو الغرب وحلفاؤه إلى ابقاء الوضع الحالى فى الشرق الاوسط كما هو عليه، ملتهب وساخن مع عدم اعطاء الفرصة للعرب والدول الاسلامية المجاورة لها للاتحاد وتكوين حضارة عربية / اسلامية جديدة، فى المدى القريب أو المدى البعيد، انه صراع حضارات كما ذكر الامريكى صمويل هنتنجتون فى كتابه "صراع الحضارات". صراع سيستمر حتى يحدث غزو من خارج كوكب الارض ليبدأ صراع جديد بين جنس البشر الساكن فى كوكب الأرض، واجناس أخرى غير معلومة تسكن فى الفضاء الفسيح، قد تكون موجودة أو غير موجودة.

القومية العربية :

تعتبر القومية العربية حتى الآن مجرد قومية للشعب العربى، ولكنها لاتمثل بعد مصالح ومطامع امة عربية لها وجود. تكونت القومية العربية كصورة ذهنية بعد نشوء الامبراطورية العربية / الاسلامية فى القرن السابع الميلادى، ثم كفكرة بعد ذلك كلما تعرضت هذه الامبراطورية - التى انقضى عهدها - للنوائب والغزو الخارجى مثل الحروب الصليبية، وغزوات التتار، والغزو العثمانى، والغزو الاوروبى فى القرن التاسع عشر، ثم اخيرا مع احداث انشاء دولة اسرائيل والحروب العربية / الاسرائيلية، ولكن لم تتحول القومية العربية أبدا وحتى الآن إلى حركة مؤثرة، حتى فى الفترة الناصرية (الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين).

لم يكن الزعماء العرب فى الحقيقة يريدون إنشاء دولة عربية موحدة، ولكنهم كانوا يتطلعون اما إلى تقوية الكيان العربى، أو كسب مصالح شخصيه وشعبية. لم تتمكن الحركة القومية العربية على مر العصور من تحويل الشعوب العربية إلى امة عربية واحدة بالرغم من طمع أطراف أجنبية عديدة فى ثرواتها، بل على العكس فقد حدث الكثير من التقسيم والانفصال لدول عربيه كانت قائمة وموحدة، أو لشعوب كانت تعتبر نفسها دولة واحدة. لقد استطاع زعماء اليهود تجميع يهود الشتات المتناثرين وسط شعوب مختلفة الثقافة والدين واللغة، فى دولة قومية واحدة هى اسرائيل، واستطاع الألمان توحيد شطريه، كما استطاعت معظم دول اوروبا الغربية فى ايجاد كيان واحد لدولها، بينما فشلت القومية العربية على مدى نحو الف وثلاثمائة عام فى إنشاء دولة عربية واحدة. لقد وجد نوع من الاتحاد فى أثناء حكم الدولة الأموية والعباسية وغيرها من الدول الإسلامية ولكنها لم تصل إلى إنشاء دولة عربية واحدة.

هل من الممكن قيام قومية عربية ممثلة فى دولة عربية موحدة ؟

احتماليا نعم من الممكن، ولكن الاحتمال ضعيف فى المدى القصير، وذلك للاسباب التالية :

- عدم وجود نظم سياسية قائمة على الديمقراطية والسياسية، وحرية الفكر، فى معظم الدول العربية. لكى تتحول فكرة القومية العربية إلى فعل، يجب أن تكون النظم السياسية متقاربة فى البلاد العربية. ان المفكرين والزعماء غير الرسميين لهم دور هام فى قيام مثل هذا الكيان العربى الموحد، والمناخ السياسى لايسمح فى الوقت الحاضر أو المستقبل القريب بقيام الثورات الفكرية، الخالصة النيات، النائية عن النفاق والرياء للحكام، البعيدة عن المصالح الشخصية وجنى الثروات. عندما لاندفن رؤوسنا فى رمال وهم ان الوضع الحالى هو أفضل الأوضاع، وعندما تتغير النظم السياسية القائمة على الرأى الواحد وان من لايتجاوب ويتماشى مع ارائنا فهو ضدنا (وليس منا) وضد مصلحة البلاد، وعندما يتقبل الحاكم والمحكوم رأى الأغلبية ومراعاة الأقلية، فسوف تتغير الثقافة السياسية بما يسمح بقيام ديمقراطية حقيقية.

- وجود تفاوت اقتصادى بين الدول العربية ناتج من توافر المنتجات البترولية فى بعض الدول العربية. يجب ان تختفى الفروق الكبيرة لدخول الشعوب العربية المختلفة، حتى لايحقد الفقير على الغنى فيحاول اغتياله أو شن الحرب عليه، وحتى لا يتعالى الغنى على الفقير، أو يحمى نفسه بقوة السلاح حتى لو أدى الامر الاستعانة بجهات اجنبية لحمايته. لن يحدث ذوبان للفروق الملموسة فى الدخل القومى الا بعد نضوب المنتجات البترولية، أو انخفاض اسعارها.

- الصراع القائم بين المذاهب الدينية : اسلامية / اسلامية، اسلامية / مسيحية. من حق كل فرد أو جماعة ان تكون لها عقيدتها الخاصة وارائها المختلفة. يجب أن تعى جميع الاطراف ان اختلاف العقيدة أو الافكار أو الايدلوجية لايعنى ان الآخرين لايعملون لمصلحة الوطن، أو غير مخلصين لانشاء الدولة العربية الموحدة. يجب ان يعرف كل طرف دوره دون الاتهام بالخيانة والعمالة، أو بالكفر والألحاد.

اذا كان من غير المحتمل، انشاء الدولة العربية الموحدة حتى على المدى البعيد، فتمهيدا لهذا الحدث المأمول يمكن السير فى اتجاهين متوازين، متذكرين دائما الهدف الاسلسى، وهو الدولة العربية الحضارية الموحدة، عاملين باخلاص فى القضاء على أسباب عدم تحقيق الهدف.

اولاً :

انشاء كيانات عربية، يتكون كل كيان من دولة أو مجموعة دول لها ثقافة وجذور واحدة، ومستوى اقتصادى واجتماعى متقارب، قد تكون هذه الكيانات هى : (مصر / دول الشام/ دول الجزيرة العربية / دول المغرب العربى / السودان والدول العربية الافريقية / العراق). ستكون عملية هذه الكيانات هى (البروفة) السابقة لعرض الحدث الكبير، اى انشاء الدولة العربية الموحدة.

ثانيا :

انشاء منظمة عربية غير حكومية، قد يأخذ اسم (منظمة تحقيق حلم الامة العربية الموحدة) ويكون اعضاء هذه المنظمة من المفكرين والعلماء، والسياسين، والماليين، . . الخ، بهدف وضع خطة لتحقيق فكرة القومية العربية أو الدول العربية الموحدة. يتجنب تمويل هذه المنظمة من الجهات الحاكمة حتى لاتخضع لاهواء أو ضغوط اى حكومة لها اغراض سياسية فى تسير هذه المنظمة المقترحة. تعمل هذه المنظمة فى مجالات مختلفة مثل : المجال الاقتصادى (تنمية اقتصادية، وزراعية، وصناعية، وسياحية. . الخ، وتكامل اقتصادى فى جميع الأنشطة الاقتصادية) - المجال التعليمى (خطة قصيرة المدى واخرى طويلة المدى للنهوض بالتعليم بهدف اقامة حضارة جديدة مميزة ومتطورة) - المجال الثقافى والاجتماعى (تطوير العادات والتقاليد من أجل الوصول إلى حضارة راقية) - المجال السياسى (وضع استراتيجيات التحرك السياسى، ووضع حطط لتحقيق الهدف - المجال المالى (لربط النظم المالية فى الدول العربية، بهدف عملة عربية موحدة على المدى البعيد).

الهدف واضح وباهر، فيه امل ورفاهية الاجيال القادمة، ولكن الطريق طويل وشاق، يتطلب عمل مستمر وتضحيات كثيرة وكبيرة من الجميع. وأخيرا نحن العرب أونحن البشر الذى قدر لنا ان نعيش فى هذه البقعة من كوكب الأرض، فى هذا الزمان، نجب ان نتذكر انه بأيدينا ان نكون أو لانكون فى منظومة كونية قائمة على الصراع السلمى (المنافسة) أو صراع الفناء والتدمير.

المراجع :

1) "موجز تاريخ العالم" - ه. ج. ويلز - ترجمة عبد العزيز جاويد - الهيئة العامة للكتاب - ١٩٩٩.
2) "حرب المستقبل " - مارتن فان كريفلد - ترجمة د. السيد عطا - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٩.
3) "أزمة الحل العنصرى لفلسطين وسبيل تحريرها " - أحمد صدقى الدجانى - دار المستقبل العربى - ١٩٩٩.
4) "النبوءة والسياسة " - جريس هالسل - ترجمة محمد السماك - دار الشروق - ١٩٩٨.
5) "صدام الحضارات " - صامويل هنتنجتون - ترجمة طلعت الشايب - سطور ١٩٩٨.
6) "الخالدون مائة - أعظمهم محمد رسول الله " - مايكل هارت - ترجمة أنيس منصور - المكتب المصرى الحديث - ١٩٩٧.
7) "لغز الحضارة المصرية " - د. سيد كريم - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٦.
8) "لماذا تنشب الحروب " - جورج كاشمان - ترجمة د. احمد محمود - الهيئة المصرية العلمة للكتاب - ١٩٩٦.
9) "الحرية " - جون ستيوارات ميل - ترجمة طه السباعى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٦.
10) "اليهود فى البلدان الاسلامية ١٨٥٠ - ١٩٥٠" - صموئيل أتينجر - ترجمة د. جمال الرفاعى - عالم المعرفة - مايو ١٩٩٥.
11) "الاتفاق الفلسطينى الاسرائيلى - الرأى والرأى الآخر " - د. حسين ابو شنب - مكتبة مدبولى - ١٩٩٥.
12) "المماليك فى مصر" - أنور زقلمة - مكتبة مدبولى - ١٩٩٥.
13) "المفهوم السياسى والاجتماعى لليهود عبر التاريخ من العهد القديم إلى مفاوضات السلام الشرق أوسطية " - د. حسين شريف - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٥.

١٤) "المقاومة بالحيلة - كيف يهمس المحكوم من وراء ظهر الحاكم " - جيمس سكوت - ترجمة ابراهيم العريس وميخائيل خورى - دار الساقى - بيروت - ١٩٩٥.
١٥) "الطريق إلى مدريد " - احمد نافع - وكالة الاهرام - ١٩٩٤.
١٦) "مصطلحات فكرية " - سامى خشبة - المكتبة الاكاديمية - ١٩٩٤.
١٧) "آلهة المصريين " - والاس بدج - ترجمة محمد حسين يونس - مكتبة مدبولى -١٩٩٤.
١٨) "عصر سلاطين المماليك " - د. قاسم عبده قاسم - دار الشروق - ١٩٩٤.
١٩) "فلسطين اولا. . اسرائيل " - د. جمال حمدان - مكتبة مدبولى - ١٩٩٤.
٢٠) "الطاغية - دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسى " - د. امام عبد الفتاح - عالم المعرفة - مارس ١٩٩٤.
٢١) "معالم تاريخ الانسانية " ه. ج. ولز - ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٤.
٢٢) "خروج العرب من التاريخ " - د. فوزى منصور - ترجمة ظريف عبد الله وكمال السيد - مكتبة مدبولى - ١٩٩٣.
٢٣) "قيام الدولة العثمانية " - محمد فؤاد كوبر يلى - ترجمة د. أحمد السعيد سليمان -الهيئة لمصرية العامة للكتاب - ١٩٩٣.
٢٤) "ملف اليهود فى مصر الحديثة " - عرفة عبده على - مكتبة مدبولى - ١٩٩٣.
٢٥) "تاريخ الحضارات العام - الشرق واليونان القديمة " - آندريه أيمار وجانين أوبوايه - ترجمة فريد داغر وفؤاد أبوريحان - منشورات عويدات - ١٩٩٣.
٢٦) "موسوعة علم النفس والتحليل النفسى " - د. فرج عبد القادر طه، د. شاكر قنديل، د. حسين عبد القادر، مصطفى عبد الفتاح - دار سعاد الصباح للنشر - ١٩٩٣.

٢٧) "ملف اليهود فى مصر الحديثة - عرفة عبده على - مكتبة مدبولى - ١٩٩٣.

٢٨) " موسوعة تاريخ الحضارات العام " - اندريه ايمار وآخرين - ترجمة يوسف داغر وآخرين - دار منشورات عويدات - ١٩٩٣.

٢٩) "اخناتون " سيريل الدريد - ترجمة د. احمد زهير - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٣.

٣٠) " موسوعة علم النفس والتحليل النفسى " - د. فرج عبد القادر طه وآخرين - دار سعاد الصباح للنشر - ١٩٩٣.

٣١) " مقال فى العبودية المختارة " - اتين دى لابويسيه - ترجمة د. مصطفى صفوان - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٢.

٣٢) " وصف مصر " - علماء الحملة الفرنسية - ترجمة زهير الشايب - دار الشايب للنشر - ١٩٩٢.

٣٣) " الاردن فى التاريخ - من العصر الحجرى حتى قيام الامارة " - محمود عبيدات - جروس برس - طرابلس - لبنان - ١٩٩٢.

٣٤) " قصة الحضارة " - ول ايريل ديورانت - ترجمة د. زكى نجيب محفوظ - دار الجبل - ١٩٩١.

٣٥) " مصر فى العصور القديمة " - ابراهيم سيف الدين، وزكى على، واحمد نجيب هاشم - مكتبة مدبولى -١٩٩١.

٣٦) "دراسات فى التاريخ " - أنيس فريحة - منشورات جروس برس - طرابلس - لبنان -١٩٩١.

٣٧) "تاريخ مصر الحديث مع فذلكة فى تاريخ مصر القديم"-جرجس زيدان- مكتبة مدبولى -١٩٩١.

٣٨) "تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث " - مكتبة مدبولى - ١٩٩١.

٣٩) "دراسات فى التاريخ" - أنيس فريحة - منشورات جروس برس - طرابلس - لبنان -١٩٩١.

٤٠) " مصـر المجـاهدة فـى العصـر الحديـث " - الـتراجع والانتكـاس، مـن الاحتـلال إلـى ثـورة ١٩١٩- عبـد الرحمـن الرافعـى - دار الهـلال - ١٩٩١.

٤١) " عندما حكمت مصر الشرق " - ج شتيندورف - ترجمة محمد العزب موسى - مكتبة مدبولى - ١٩٩٠.

٤٢) " تاريخ مصر من الفتح العثمانى - إلـى قبيل الوقـت الحـاضر " - عمـر الاسكندرى وسليم حسن - مكتبة مدبولى - ١٩٩٠.

٤٣) "موجز تاريخ العالم " - مؤرخين سوفيات - ترجمة سليمة شعلان ووداد مراد - دار الفارابى - بيروت - ١٩٩٠.

٤٤) " سيكولوجية الخـوف " - يوسـف ميخـائيل سـعد - نهضـة مصـر - ١٩٩٠.

٤٥) "موجز تاريخ العالم " - أ. مانفرد - ترجمة محمد عيتانى - دار الفارابى - ١٩٨٩.

٤٦) " الانتفاضة الفلسطينية - تاريخ وحاضر ومستقبل " - د. رشيدة مهران - دار النشر للمغرب العربى - تونس ١٩٨٩.

٤٧) "الانتفاضة والدولة الفلسـطينية " - لطفـى الخولـى - مؤسسـة الاهرام - ١٩٨٨.

٤٨) "الدافعيـة والانفعـال " - ادوارد ج. مـوارى - ترجمـة د. احمـد سـلامة وعثمان نجاتى - دار الشروق - ١٩٨٨.

٤٩) " اعلام الفلسـفة المعـاصرة " - انطونـى دى كرسبنى وكينيث مينـوج - ترجمة د. نصار عبد الله - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٨.

٥٠) "تكويـن الصهيونيـة " - خـالد القشـطينى - المؤسسـة العربيـة للدراسـات والنشر - ١٩٨٦.

٥١) "تـاريخ الحضـارات العـام - الشـرق واليونـان القديمـة " - اندريـه ايمـار وجانين أو بوايه - ترجمـة فريـد داغر وفـؤاد ابـو ريحـان - منشـورات عويدات - بيروت -١٩٨٦.

٥٢) " شخصية مصر - د. جمال حمدان - عالم الكتب - ١٩٨٤.

٥٣) إتخاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى " – ابى عبد الله محمد بن شهاب الدين السيوطى (٨١٣–٨٨٠ ه)– تحقيق د. احمد رمضان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٤.
٥٤) " ميادين علم النفس " – النظرية والتطبيق – ج. ب جيلفورد – ترجمة احمد زكى صالح وآخرين – دار المعارف – ١٩٨٣.
٥٥) الصراع العربى الإسرائيلى فى خرائط " – اعداد واشراف – د. خيرية قاسمية – معهد البحوث والدراسات العربية – ١٩٧٩.
٥٦) "حدود فلسطين – دراسة تحليلية لوثائق الانتداب " – د. محمدمحمود الديب – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – معهد البحوث والدراسات العربية – ١٩٧٩.
٥٧) " الفكر الاسرائيلى وحدود الدولة " – عادل محمود رياض – المنظمة العربية للتربية والثقافة – ١٩٧٧.
٥٨) "الساعة ١٤٠٥ – وانطلقت الشرارة لتحقق نصر اكتوبر" – مركز الدراسات الصحفية – مؤسسة دار التعاون للنشر – ١٩٧٦.
٥٩) " يوميات أكتوبر فى سيناء والجولان " – عبدة مباشر – دار المعارف ١٩٧٦.
٦٠) "الاستعمار الاستيطانى الصهيونى فى فلسطين " – معهد البحوث والدراسات العربية – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – ١٩٧٥.
٦١) "مدى مشروعية اسانيد السيادة الاسرائيلية فى فلسطين " – د. محمد اسماعيل السيد – عالم الكتب – ١٩٧٥.
٦٢) " الهجرة اليهودية إلى فلسطين " – وليم فهمى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٤.
٦٣) "إسرائيل" – اليزابيث نوسبوم _ كتب مترجمة الهيئة العامة للاستعلامات – وزارة الارشاد القومى.
٦٤) " حرب رمضان – الجولة العربية الاسرائيلية الرابعة – أكتوبر ١٩٧٣" – حسن البدرى وطه المجدول – ١٩٧٤.

٦٥) "اسرائيل – ركيز للاستعمار بين المسلمين – " د. حسن ظاظا – الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية – ١٩٧٣.
٦٦) "مصر والفتح الاسلامى " – عبد المنعم حماده – المجلس الاعلى للشئون الاسلامية – ١٩٧٠.
٦٧) "لعبة الأمم " – مايلز كوبلان – ترجمة مروان خير – مكتبة الزيتونة – بيروت – ١٩٧٠.
٦٨) "قضية القدس فى محيط العلاقات الدولية " – د. عز الدين فودة – منظمة التحرير الفلسطينية – مركز الابحاث – بيروت –١٩٦٩.
٦٩) "الاسلام وأهل الذمة " – د. على حسنى الخربوطلى – المجلس الاعلى للشئون الاسلامية–القاهرة – ١٩٦٩.
٧٠) "الدوافع النفسية " – د. مصطفى فهمى – مكتبة مصر – ١٩٦٠.
٧١) "مصر ومسيرة السلام – علامات على الطريق " – الهيئة العامة للاستعلامات – القاهرة.
٧٢) " اسرائيل وفلسطين بعد الحقبة الصهيونية " – بنيامين عمرى – كتب مترجمة برقم ٧٦٥ الهيئة العامة للاستعلامات – القاهرة – مصر.

رقم الايداع
٣٦٢١/ ٢٠٠١

I.S.B.N
977-294-223-2